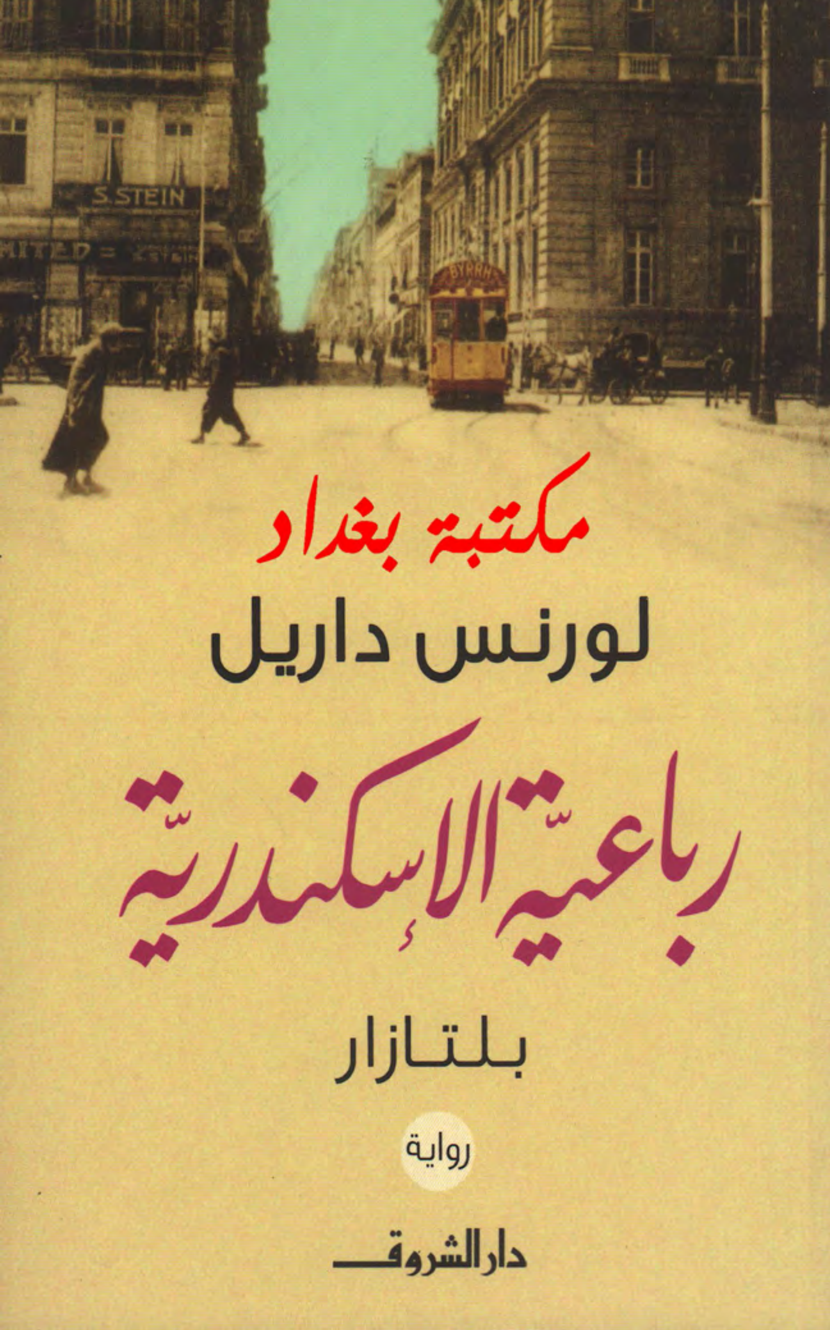

مكتبة بغداد
لورنس داريل
رباعيّة الإسكندريّة
بلتازار
رواية
دار الشروق

لورنس داريل



بلتازار

رواية

ترجمة

فخري لبيب

دار الشروق

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٤٨١٠ / ٢٠٠٨
ISBN 978-977-09-2347-0

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)

email: dar@shorouk. com

www. shorouk. com


https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى

أمي

هذه التذكارات لمدينة لا تنسى

حاشية

إن شخصيات وأماكن هذه الرواية خيالية تماما، وكذا شخصية الراوى، وما كان للمدينة إلا أن تكون أقل واقعية من الشخصيات والأماكن. إن هذه الرواية إنما هى شقيقة «جوستين» وليست تابعة لها أو متممة لأحداثها.

إن الأدب الحديث لا يقدم لنا وحدات متكاملة، ولذا اتجهت إلى العلم محاولا أن أصيغ رواية ذات أسطح أربع، كما يقوم هيكلها على الفرضية النسبية.

إن ثلاثة أبعاد مكانية وبعداً زمنيًا واحداً تشكل الخلطة المتجانسة لفكرة التواصل. إن الروايات الأربع تسير على نفس هذا النهج.

إن الأجزاء الثلاث الأولى سوف تمتد، على أى حال، على اتساع المكان (ومن هنا استخدمت كلمة شقيقة، لا تابعة ولا متممة). وهى ليست مترابطة على نحو متسلسل. إنها تتداخل وتتضافر معا فى علاقة مكانية خالصة، ويظل الزمن واحدا فى ثباته. أما الجزء الرابع وحده فسيمثل الزمن ويكون تتمة حقيقية.

إن علاقة الذات بالموضوع مهمة جداً للنسبية، حتى إننى حاولت

معالجة الرواية موضوعيا وذاتيا، أما الجزء الثالث، «ماونت أوليف»، فهى رواية طبيعية مباشرة، وفيها يتجسد الراوى لكل من جوستين وبلتازار، أى يصبح شخصية.

إن الأسلوب لا يتفق، ومنهاج بروست أو جويس، لأنهما يمثلان، فى وجهة نظرى، «الديمومة البرجسونية» وليس «المكان والزمان».

إن المحور الرئيسى للكتاب يدور حول استقصاء مناحى الحب الحديث.

إن تلك الاعتبارات قد تبدو متعالية بعض الشىء، أو حتى تتسم بالتفاخر والتباهى، لكنها جديرة بمحاولة التجريب، لنرى إن كان فى الإمكان اكتشاف صيغة للشكل، يمكن للمرء أن يسميها «كلاسيكية» هذا الزمان، حتى وإن برهنت النتائج على أنها تنتمى إلى «الخيال العلمى» بالمعنى الصحيح.

ل. د

إسكونا، ١٩٥٧

ترى المرأة الرجل جميلا، فتحب المرأة الرجل. وترى امرأة أخرى الرجل مخيفا فتكرهه. والذى يحدث دوما أن نفس الكائن هو الذى يعطى تلك الانطباعات.

جوستين الماركيز دى ساد

نعم، إننا نصر على تلك التفاصيل. إنك تحجبها فى لباقة تزيح حد ما تثيره من فزع، وبذا يتبقى، فقط، ما هو مفيد لمن يشاء أن يغدو حميم العلاقة بالإنسان. إنك لا تتصور كيف يمكن أن تعاون تلك اللوحات على تنمية الروح الإنسانية، لعلنا مازلنا نجهل هذا الفرع من فروع المعرفة، فقط، بسبب هذا الكبت الأحمق عند هؤلاء الذين يرغبون فى الكتابة عن مثل هذه الأمور. إنهم، وقد سكنت نفوسهم مخاوف سخيفة، يناقشون الأمور الصبيانية المألوفة لكل أحمق، ولا يجرؤون على مد يد جريئة إلى القلب الإنسانى، ليكشف لأنظارنا عن فرط حساسيته المفرطة.

جوستين الماركيز دى ساد

الجـزء الأول

(١)

تتـدرج ألوان الطبـيعة من اللون البنى إلى البـرونزى، الأفق شـديد الانحدار، غـمامة منخفضة وأرض لؤلؤية تظلها انعكاسات محارية بنفسجية. غبار الصحراء العاصف، أضرحة الأولياء قرب البحيرة العتيقة، وقد غدت عند الغروب، فى لـون الزنك والرصاص. الفوالق الرمليـة الضـخـمة وقـد بدت من الجو، جـو البـحـيرة، كـحد مد المياه وجزرها، ويفسح الأخضر والليمونى السبيل لألوان كسبيكة النحاس والقصدير، وشراع وحيد، مبتل، مرتجف، فى لون البرقوق الداكن: حـورية ملبـدة الجناح. تابوزيريس ترقـد ميتـة وسط عمـدها ومنائرها المتداعية، اختفى الصيادون بصناراتهم. . ومربوط هناك، تحت سماء حارة فى لون السوسن.

الصيف: رمال برتقالية صفراء. وسماء رخامية حارة.

الخريف: كدمة منتفخة رمادية الألوان.

الشتاء: جليد متجمد، رمال باردة.

لوحات لسماء صافية: تلمع بالميكا.

خضرة الدلتا مغسولة .

وللنجوم مناظر رائعة .

والربيع ، آه! لا ربيع فى الدلتا هناك ، لا إحساس بانتعاش الأشياء وتجددها . إن المرء ليثب من الشتاء ليغطس فى الصورة الشمعية لصيف حار خانق ، إلا أننا هنا ، فى الإسكندرية ، تنقذنا ، على الأقل ، أنفاس البحر الزاحفة فوق حاجز الميناء ، عبر السفن الحربية من ثقل تفاهة صيف ساكن ، فترفرف تندات المقاهى المخططة على امتداد الكورنيش الطويل ، إننى ما كنت لـ . .

* * *

المدينة ، نصف الخيالية (مع أنها حقيقية تماما) ، تبدأ فينا وتنتهى . إن جذورها تكمن فى ذاكرتنا . لماذا يتحتم علىّ أن أعود إليها ليلة بعد أخرى ، أكتب هنا إلى جوار نار خشب الخروب ، بينما تنقض الرياح الإيجية على هذا المنزل ، فى الجزيرة ، تمسك به ، تطلقه ، تثنى أشجار السرو كما تثنى الأقواس . ألم أقل عن الإسكندرية ، ما يكفى؟ هل سأسقط ، مرة أخرى ، أسير الحلم بها وبذكرى سكانها؟ أحلام كنت أظنها قد أودعت ، فى سلام وأمان ، فوق الورق ، وقد عهد بها إلى حجرات الذاكرة المنيعة! قد تظن أنى أترفق بنفسى ، إلا أن الأمر ليس كذلك . إن باعثا عرضيا واحدا قد غير كل شىء ، وارتد بى على عقبى أقتفى آثار قدمىّ . ذكرى تقع أنظارها على ذاتها فى مرآة .

* * *

جوستين ، ميليسا ، كليا . . لقد كنا فى الحقيقة قلة قليلة ـ لا بد أننى قد اعتقدت سهولة تناولهم والتعرض لهم فى كتاب واحد ـ أليس

كذلك؟ هذا ما كان عليّ أن أعتقده، بل وما اعتقدته بالفعل. لقد انفرط العقد إلى الأبد، بعد أن بددت الأيام شملنا.

كنت قد أخذت على عاتقى مهمة أن أحييهم بالكلمات، أن أجدد وجودهم فى الذاكرة، أن أحدد لكل منهم، رجلا كان أم امرأة، مكانه حينما عاصرته. أية أثرة وأية أنانية - لقد أحسست، عندما أتممت تلك الكتابة، بأننى قد أغلقت منزل الدمى الذى تسكنه أفعالنا. حقا، لم أعد أرى أصدقائى وأحبائى كبشر أحياء، وإنما كصور ملونة ينقلها العقل، إنها لم تعد تغطى المدينة، إنها تسكن الآن أوراقى، كرسوم قماش التطريز المزركش. كان عسيرا عليّ أن أهبهم، والكلمات التى تناولتهم بها، أى مزيد من الحقيقة. ما الذى أعادنى إلى صوابى؟

كان ضروريا، حتى أستمر، أن أرجع إلى الوراء، لا لأننى كتبت عنهم ما هو غير صحيح، فقد كان ذلك أمرا بعيدا، ولكن لأن الحقائق كلها لم تكن فى متناولى عندما قمت بالكتابة. كانت الصورة التى رسمتها صورة مؤقتة، أشبه بصورة حضارة مفقودة، أستدل عليها من حطام زهريات قليلة، ولوح عليه حفر ونقوش، وبعض العظام الآدمية وقناع موت ذهبى تعلوه ابتسامة.

يقول بورسواردن، فى مكان ما، شيئا من هذا القبيل: «إننا نعيش حياة تقوم على أوهام منتقاة، تكيف وجهة نظرنا عن الحقيقة، وضعنا فى الزمان والمكان، لا شخصياتنا كما ينبغى أن نعتقد. وهكذا فإن كل تفسير للحقيقة يقوم على وضع وحيد فريد، وخطوتان إلى الشرق منها أو إلى الغرب تغير معالم الصورة كلها».

أما بالنسبة للشخصية الإنسانية، فلا وجود لمثل تلك الكائنات سواء كانت حقيقة أم من صنع الخيال. إن كل نفس. فى حقيقتها، تل نمل من

ميول متعارضة. إن الشخصية كشىء محدد الصفات والسجايا إنما هى وهم، لكنه وهم ضرورى إن كان علينا أن نحب.

وهنالك من الأشياء ما يظل ثابتا راسخا، كالقبلة الخجولة التى يمكن توقعها من ميليسا (كقبلة هاو أشبه بشكل بدائى للطباعة، أو تقطيبة وجه جوستين التى تلقى بظلالها فوق عينيها الداكنتين المتوهجتين - كمحجرى أبو الهول عند الظهيرة. يقول بورسواردن: «سيتضح، فى النهاية، أن كل شىء، عن كل شخص، إنما هو شىء حقيقى. القديس والشرير شريكان». إنه على حق.

إننى أبذل غاية جهدى كى ألتزم الحقيقة.

* * *

كتب بلتازار فى آخر خطاب منه إلىّ: «إننى كثيرا ما أفكر فيك، يخالجنى بعض المجون الحزين. لقد اعتزلت فى جزيرتك، ومعك، كما تعتقد كل الحقائق عنا وعن حياتنا. لا بد أن تصدر الأحكام علينا فوق الورق، كما يفعل الكتاب. أتمنى لو أرى ما حققت من نتائج. لا شك أنها سوف تكون بعيدة كل البعد عن الحقيقة: أعنى الحقيقة التى فى مقدورى أن أخبرك بها عنا جميعا - بل ربما عن نفسك أيضا. أو الحقائق التى فى مقدور كليا أن تخبرك بها (إنها الآن فى زيارة إلى باريس، وقد توقفت، مؤخرا، عن الكتابة إلىّ). إننى أتصورك، أيها الحكيم، وأنت تمعن النظر فى كتاب «عادات»، ومذكرات جوستين ونسيم.. إلخ، متوهما أنك سوف تجد الحقيقة فى ذلك الكتاب والمذكرات. إلا أن هذا خطأ! خطأ!، فالمذكرات هى آخر مكان تسعى إليه إن رغبت فى البحث عن حقيقة شخص ما. إن أحدًا لا يملك شجاعة الإقدام على اعتراف نهائى عن نفسه، لنفسه، فوق الورق أو،

على الأقل، عما يخص الحب. هل تعرف من أحبت جوستين حقا؟ أنت تعتقد أنك ذاك الحبيب. أليس كذلك؟ أقر بذلك واعترف!»

وكانت إجابتى الوحيدة أن أرسلت إليه حزمة الورق الهائلة، والتى كانت قد نمت بمشقة شديدة وقلمى المتأنى يخطها، وتساهلت فأطلقت عليها اسمها كعنوان - رغم أنى لو أسميتها «مذكرات»، لأدى هذا المسمى نفس الغرض. ومرت شهور، بعد هذا، فى صمت يبعث فى النفس سعادة حقيقية، إذ أوحى بأن ناقدى قد اقتنع وصمت.

ليس فى وسعى القول بأنى قد نسيت المدينة، لقد تركت ذكراها تغفو وتنام، ولكنها يقينا كانت هناك، معلقة فى خاطرى كالسراب الذى غالبا ما يراه المسافرون. ولقد وصف بورسواردن تلك الظاهرة فيما يلى من كلمات:

«كنا ما نزال نبعد ساعتين من الإبحار قبل أن تصبح رؤية الأرض ممكنة، عندما صاح رفيقى فجأة وهو يشير نحو الأفق. ورأينا سراب المدينة بحجمها الطبيعى منعكسا على صفحة السماء، كان سرابا مضيئا، مرتعشا، وكأنه نقش على حرير مترب، ورغم ذلك كان رائع التفاصيل. فى مقدور ذاكرتى تحديد ملامحها بوضوح: قصر رأس التين، جامع النبى دانيال وهلم جرا. كانت الصورة، فى مجملها، تأخذ بالألباب، وكأنها تحفة رسمت بالندى الصافى. لقد علقت هناك، فى السماء، فترة من الوقت، ربما خمس وعشرون دقيقة، قبل أن تذوب ببطء فى ضباب الأفق. وظهرت المدينة الحقيقية بعد ساعة. كانت تعلو وترتفع من بقعة محدودة إلى حجم سرابها».

* * *

كان فصلا الشتاء أو فصوله الثلاث، التى قضيناها فى الجزيرة، فصولا تتسم بالانقطاع والعزلة ـ فصول شتاء جهمة تكنسها الرياح، وفصول صيف ساخن. والطفلة، لحسن الحظ، أصغر من أن تفتقد الحاجة إلى الكتب أو الحديث كما أفتقدهما. إنها فرحة نشطة.

وتأتى أيام الربيع طويلة مفعمة بالسكينة، أيام بلا أمواج ولا أريج، أيام الإلهام. ويروض البحر نفسه ويصبح فى حالة من اليقظة. وعما قريب سوف تقرع حشرات السيكاردا موسيقاها، مشكلة خلفية تصاحب ناى الراعى القابع هنالك بين الصخور، إن السحلية والسلحفاة الحابية، وحدهما، هما رفاق وحدتنا.

سفينة البريد القادمة من أزمير هى زائرنا الوحيد الذى يأتينا، من العالم الخارجى، كل أسبوع. إنها تعبر الجرف مبحرة نحو الجنوب. تأتى دوما بنفس السرعة، وفى نفس الموعد بعد أن يحل الغسق مباشرة، وفى الشتاء تداريها الأمواج العالية والرياح.

إنى أجلس، الآن، فى انتظارها. إنك لا تسمع، فى البداية، غير صوت الماكينات كقرع الطبول، ثم ينزلق الكائن حول الرأس، يشق طريقه الحريرى قدما، ساطع الأضواء عبر ظلام ليل بحر إيجه الناعم الدامس، بلا معالم محددة، أشبه بسحابة من يراعات مضيئة. ثم يرحل سريعا، يختفى حول الجرف التالى، لا يترك وراءه من أثر غير بقية أغنية شعبية شائعة أو قشرة يوسفى أعثر عليها، فى اليوم التالى، مغسولة فوق حصى الشاطئ الممتد طويلا، حيث أستحم أنا والطفلة.

التكعيبة الصغيرة التى يظللها نبات الغار الوردى توجد أسفل السهل حيث غرفة مكتبى. إننى أجلس هنا، وقد أوت الطفلة إلى فراشها، إلى طاولة عتيقة صبغتها مياه البحر، أنتظر الزائر، وأنا عازف

عن إشعال مصباح الزيت، قبل مروره. إنه اليوم الوحيد الذى أعرف اسمه فى هذا المكان. إنه يوم الخميس. يبدو الأمر، هكذا، نوعا من السخف أو الحماقة، إلا أننى فى جزيرة خالية من أى تغيير أو تنوع: أنتظر الزيارة الأسبوعية كما ينتظر الطفل نزهة مدرسية خلوية. إننى أعرف أن القارب يحمل رسائل لى، لعلنى أنتظرها منذ أربع وعشرين ساعة، إلا أننى، دوما، ما إن أرى تلك السفينة الصغيرة تختفى عن ناظرى، حتى ينتابنى الأسى. أشعل المصباح، بعد مرورها، أتنهد فى حسرة وأعود إلى أوراقى. إننى بطىء للغاية وأنا أكتب فى ظل هذا العذاب. لقد أخبرنى بورسواردن، ذات مرة، وكان يتحدث عن الكتابة، إن الألم الذى يصاحب التأليف، إنما يرجع، كلية، عند الفنانين إلى الخوف، الخوف من الجنون. «اقهر ألمك. قل لنفسك إنك لن تبالى البتة إن جننت بالفعل، وحينئذ سوف تواتيك الكتابة على نحو أسرع، سوف تحطم الحاجز». (إننى لا أدرى مدى صدق هذا كله. إلا أن المال الذى تركه لى فى وصيته قد أفادنى كثيرا. لم يزل معى بضعة جنيهات تحول بينى وبين شيطان الدين أو العمل).

إننى أصف هذا التغير الأسبوعى فى إسهاب، نوعا ما، ففى إطار تلك الصورة أقحم بلتازار نفسه، ذات مساء فى شهر يونيو، بطريقة مفاجئة أثارت دهشتى - كنت أوشك أن أكتب «أصابتنى بالصمم»، إلا أننى كتبت «أثارت دهشتى» - حيث لا يوجد هنا من يبادله المرء الحديث. لقد وقع هذا المساء شىء أقرب إلى المعجزة، إذ بدلا من أن تختفى السفينة الصغيرة، كما اعتادت، استدارت فى قوس مداه مائة وخمسون درجة، ثم ولجت المياه الضحلة، حيث قبعت فى شرنقة من ضياء، ناعمة كالفراء، وألقت فى بطء بسلسلة مرساتها الطويلة، فى قلب البركة الذهبية التى صنعتها، فبدت كباحث عن الحقيقة. كان

للمنظر وقعه عليّ، وقد انقطعت سجين الروح، كحال كل الكتاب ـ لقد غدت، حقيقة، كسفينة فى قنينة لا تبحر البتة ـ وراقبت السفينة الراسية، كما راقب هندى أول قارب بلغ شطآن العالم الجديد، يحمل رجلا أبيض.

ومزقت أصوات طبطبة المجاديف غير المنتظمة حجب الصمت والظلام. ومضى زمن كالدهر. ثم ارتفعت خشخشة أقدام تنتعل حذاء من المدينة فوق الحصباء. وعلا صوت أجش يحدد اتجاها ما، ثم ران الصمت. وإذ أشعلت المصباح وسويت ذبالته كى أعتق نفسى من إسار هذا التحول عما اعتدته، تجسد أمامى وسط أغصان الآس وجه صديقى وقوراً أسمر، أقرب إلى شبح الماعز الآتى من العالم السفلى. وحبس كل منا أنفاسه وقد وقفنا فى الضوء الشاحب، يبتسم الواحد منا للآخر. وضحك بلتازار بخصلات شعره الآشورية، وذقنه الشبيهة بذقن الإله «بان»(*)، وهو يقول: «كلا، إننى حقيقى». وتعانقنا فى ضراوة. إنه بلتازار!

البحر المتوسط بحر صغير للغاية. إن عظمته وامتداد تاريخه يجعلاننا نتخيله أكبر مما هو عليه حقا. إلا أن الإسكندرية الراقدة على بعد مئات الأميال البحرية من هنا إلى الجنوب، لا يقل واقعها، فى الحقيقة، عما يمكن تخيله عنها.

قال بلتازار: «إننى فى طريقى إلى أزمير، حيث كنت سأرسل لك، هذه، من هناك بالبريد». ووضع فوق المنضدة، المليئة بالخدوش، حزمة المخطوط الضخم الذى كنت قد أرسلته إليه. لقد غدت الأوراق، الآن، ذابلة مرصعة بقدر كثيف من العبارات والفقرات

(*) «بان» إله الرعاة (المترجم)

وعلامات الاستفهام، فيما بين السطور. وجلس بلتازار قبالتى بذلك الجو الشيطانى الذى يحيط به نفسه، وقال، مترددا، فى نغمة خفيضة:

«لقد جادلت نفسى طويلا، طويلا، إن كنت أخبرك ببعض ما دونته هنا. لقد بدا لى ذلك، فى بعض الأحيان، رعونة منى وسفاهة. إلا أنه رغم كل شىء: هل كان اهتمامك بنا كبشر حقيقيين، أم «كشخصيات روائية»؟ ما عرفت ذلك، وما زلت لا أعرفه. إن هذه الصفحات يمكن أن تفقدنى صداقتك، دون أن تضيف شيئا إلى مجمل معرفتك. لقد كنت ترسم المدينة، لمسة إثر لمسة، فوق سطح منحنى - هل كان قصدك الشعر أم الحقيقة؟ إن كانت الأخيرة، فهنالك أمور من حقك أن تعلمها».

لم يكن قد أوضح لى، بعد، كيفية ظهوره المذهل أمامى. كان مهموما للغاية، بالمغزى الرئيسى لزيارته. وقد أدرك ذلك، الآن، بعد أن لاحظ حيرتى، وأنا أتأمل سحاب اليراعات المضيئة القابعة فى الخليج الذى اعتاد أن يكون مهجورا، فأبتسم:

«ستتأخر السفينة بضع ساعات بسبب خلل فى الماكينة. إنها واحدة من سفن نسيم، يقودها هاسيم كحلى، إنه صديق قديم. لعلك تتذكره؟ لا أعتقد. حسنا، لقد خمنت من وصفك، مكان إقامتك، على وجه التقريب. لكننى، أقر وأعترف، أننى ما كنت أتوقع أن أرسو على عتبة دارك هكذا». ثم ضحك. وكم كان رائعا أن أسمع ضحكته مرة أخرى.

إلا أننى بالكاد كنت أسمعه. لقد أوقعتنى كلماته فى لجة الاضطراب، وانتابتنى الرغبة فى دراسة ما كتبه بين السطور، وأنا أراجع، ليس كتابى (والذى لم يكن له لدى أدنى أهمية حيث إنه لن

ينشر أبدًا). ولكن رؤيتى للمدينة وسكانها. فإسكندريتى قد غدت، وأنا فى كل هذه العزلة والوحدة، عزيزة علىّ، معزة فلسفة تأمل الذات، بل تكاد معزتها أن تكون هوسًا. كانت نفسى تفيض بالعواطف حتى إننى لم أدر ماذا أقول له. قلت: «ابق» معنا يا بلتازار، ابق معنا ولو قليلا. . . ».

قال: «سوف نغادر خلال ساعتين». ثم ربت على الأوراق أمامه وهو يضيف فى غموض: «ربما أمدتك تلك الأوراق بالرؤية والحمية».

قلت: «إننى لا أطمع فى شيء أفضل من ذاك».

قال: «إننا ـ نحن الذين ما نزال أحياء ـ بشر حقيقيون، مهما حاولت أن تفعل بنا. أما ميليسا وبورسواردن فلم يعد فى مقدورهما أن يجيبا عليك، فقد فارقا الحياة. هذا، على الأقل، ما يعتقد به المرء».

«إن ما يعتقد به المرء، هو أن أفضل الإجابات تأتى، دوما، من وراء القبور».

وجلسنا. بدأنا نتحدث عن الماضى، لكن فى جفاء وفتور. كان قد تناول عشاءه على ظهر السفينة، ولم يكن لدى ما أقدمه له غير زجاجة من نبيذ الجزيرة الذى يتصف بالجودة، والذى أخذ يرتشفه فى بطء. ثم طلب منى، فيما بعد، أن أريه ابنة ميليسا. فقدته إلى الخلف عبر أشجار الدقل، وقد تجمعت فى عناقيد، إلى مكان يمكننا منه أن نرى الغرفة الكبيرة المضاءة، حيث ترقد الطفلة جميلة وقورة، وقد نامت وإبهامها فى فمها. ولانت عينا بلتازار القاسيتين الداكنتين، بينما كان يراقبها وهى تتنفس فى رقة. ثم قال فى صوت خفيض: «إن نسيم سيرغب فى رؤيتها يوما ما، فى القريب العاجل. تذكر ما أقول. لقد

أخذ يتحدث عنها فى فضول. إنه يتقدم فى العمر، يحس الحاجة إلى عونها، تذكر كلماتى». ثم اقتبس، نقلا عن اليونانية، «يتسلق الصغار، فى البداية، ركائز كبارهم، فى بطء، كما تتسلق الفروع الكرمة. إن الكبار يحسون بأصابعهم، ناعمة ورقيقة. ثم ينحدر الكبار على أجساد الشباب، التى تدعمهم، تسندهم، إلى حيث ميتاتهم اللائقة بهم». ولم أقل شيئا. كانت الحجرة ـ لا أجسادنا ـ هى التى تتنفس الآن.

قال بلتازار: «لقد كنت وحيدا هنا».

«لكنها وحدة محببة رائعة».

«حقا، إننى، صادقا، أغبطك عليها».

والتقطت عيناه، حينئذ، لوحة وجه جوستين، التى لم تكن قد اكتملت بعد، والتى كانت كليا قد منحتها لى فى ظروف غير تلك الظروف.

قال بلتازار: «تلك اللوحة، قوطعت، أثناء رسمها، بقبلة. ما أطيب أن يراها الإنسان مرة أخرى، ما أطيب ذلك!». وابتسم. «إنها أشبه بسماع جملة موسيقية، مألوفة ومحببة، تحمل المرء إلى آفاق عاطفة، يود، دوما، استعادتها دون أن يصيبه الوهن». ولم أقل شيئا، وما جرؤت أن أقول شيئا.

واستدار إلىّ متسائلا: «وماذا عن كليا؟» قالها أخيرا فى صوت كمن يستنطق صدى. قلت: «لم أسمع عنها شيئا منذ دهور. لا حساب للزمن هنا. إننى أتوقع لها أن تكون قد تزوجت، نزحت إلى بلد آخر، ورزقت أطفالا، وغدت رسامة مشهورة.. تكون قد حققت كل ما يتمناه المرء لها».

نظر إلىّ نظرة غريبة، وهو يهز رأسه، ثم قال: «كلا». وكان ذلك كل ما نطق به.

كان قد انقضى كثير وقت منذ منتصف الليل، عندما ناداه البحارة من بين أكمات الزيتون الداكنة. ومشيت معه إلى الشاطئ، أحس الأسى وهو يغادرنى سريعا هكذا. كان هنالك زورق فى انتظاره، عند حافة الماء، وبحار يقف ممسكا بمجدافيه. قال شيئا بالعربية.

كان بحر الربيع دافئا، يثير الإغراء، بعد أن سطعت عليه الشمس طوال اليوم. وتملكتنى رغبة طارئة، بينما يلج بلتازار القارب، أن أسبح معه حتى السفينة التى كانت ترقد على مسافة تقل عن مائتى ياردة من الشاطئ. وهذا ما فعلت بالفعل. ثم تلكأت أرقبه وهو يتسلق الحاجز، والقارب يسحب إلى أعلى. ونادى بلتازار قائلا: «حذار أن يمسك بك هلب السفينة. عد إلى الوراء قبل أن تبدأ المحركات عملها». قلت: «سأفعل» قال: «انتظر» ثم ارتد إلى حجرته فى السفينة ليعود إلى الظهور، ليلقى بشىء ما فى المياه، سقط إلى جوارى، فأحدث طرطشة ناعمة. قال: «إنها وردة من الإسكندرية من المدينة التى يوجد بها كل شىء ما عدا السعادة التى يجب أن تقدمها لعشاقها». وقهقه قائلاً: «أعطها للطفلة».

«وداعًا بلتازار»

«اكتب لى إن جرؤت على ذلك!».

وأخذت ألوح له ويلوح لى، بينما أمسكت بى، كالعنكبوت، شباك الأضواء المتقاطعة، وأنا أستدير نحو تلك البرك الشاحبة التى ترقد بينى وبين الشاطئ المظلم.

ووضعت الوردة الثمينة بين أسنانى، وأنا أسبح عائدا إلى ملابسى، حيث تركتها فوق الشاطئ المليء بالحصى، وأنا أتحدث إلى نفسى.

هنالك فوق المنضدة، فى ضوء المصباح الشاحب، رقدت حزمة المخطوط، المليئة بما بين السطور، والتى كنت قد أسميتها «جوستين».

كانت مليئة بالخدوش والخطوط المتقاطعة، مرصعة بالأسئلة والأجوبة بمختلف ألوان الأحبار، بحروف كالطباعة الخطية. وبدت لى، حينئذ، وكأنها رموز ما، للحقيقة ذاتها التى عشناها معا ـ صفحة ترك كل منا آثاره أو آثارها الشخصية فوقها، طبقة فوق طبقة.

هل يتوجب علىّ أن أرى، الآن، كل شىء بعينين جديدتين؟ أن أعتاد الحقائق التى أضافها بلتازار؟ من المحال أن أصف الأحاسيس التى قرأت بها كلماته، والتى هى مرسلة أحيانًا، مقتضبة للغاية أحيانا أخرى. إنه يضع على سبيل المثال، فى القائمة التى عنونتها بـ «بعض المغالطات وسوء الفهم»، أشياء يتناولها بلا اكتراث، حيث قال: «رقم ٤». القول بأن جوستين قد «أحبتك». إن جوستين، لو كانت قد «أحبت» أحدًا، فهى قد أحبت بورسواردن. «ماذا يعنى ذلك؟». يعنى أنها كانت مجبرة على استخدامك كطعم حتى تحميه، هو، من غيرة نسيم الذى كانت قد تزوجته. ولم يكن بورسواردن، نفسه، مباليا بها البتة ـ يا لهذا المنطق الأسمى للحب!».

وانتصبت المدينة، مرة أخرى، فى خيالى، تواجه المرآة المسطحة للبحيرة الخضراء، وكتل الأحجار الرملية المحطمة تحد طرف الصحراء. رأيت ألوان الحب وحبائل الشهوة، الخير والشر، الفضيلة والشذوذ، الود والقتل، تتحرك جميعها، بطريقة مبهمة، فى أركان شوارع الإسكندرية وميادينها المظلمة، فى المواخير وقاعات الاستقبال ـ

تتحرك كمجموعة كبيرة من ثعابين الماء تسبح فى حمأة المكيدة والمكيدة المضادة.

كاد الفجر أن يبزغ قبل أن أتخلى عن كومة الأوراق، التى تخلب الألباب، بما عليها من تعليقات تدور حول حياتى الحقيقية، حياتى (الداخلية). وترنحت كالسكران إلى فراشى، وقد أصاب الصداع رأسى الذى كان يدوى بأصداء المدينة الوحيدة التى يمكن فيها لكل العادات والأجناس، مهما تباينت أن تلتقى وتتزاوج وحيث تتقاطع كل المصائر. وبينما أستسلم للنوم، كنت أسمع صوت صديقى جافا وهو يكرر ويعيد ما يقول: «ما مدى اهتمامك بأن تعرف.. ما مدى اهتمامك بأن تعرف؟». وأنا أجيبه فى أحلامى: «يجب أن أعرف كل شىء: حتى يمكننى أن أخلص، أخيراً، من المدينة».

* * *

قالت كليا لبلتازار، ذات مرة: «عندما تقطف وردة، فإن الغصن يضمد موضعها. إلا أن ذلك، ليس حقيقيا، إن تعلق الأمر بما للقلب من عواطف».

* * *

وهكذا دفعت بطيئا وعلى مضض إلى حيث بدايتى. كنت كرجل قيل له عند نهاية رحلة هائلة إنه كان يسير وهو نائم. لقد قال لى بلتازار، ذات مرة، وهو يمخط فى جورب تنس قديم: «إن الحقيقة تناقض نفسها، مع الزمن، أشد التناقض».

كما قال لى بورسواردن فى مناسبة، أخرى، مشهورة: «إن كانت الأمور، دوما، كما تبدو فى ظاهرها، فما أفقر خيال الإنسان».

كيف يمكننى أن أخلص نفسى من هذه البغى بين المدن، بحرها، صحرائها، مآذنها، رمالها وبحرها؟

كلا، يجب أن أدونها جميعا بالأسود والأبيض، حتى يأتى ذاك الزمان التى تستنفد فيه حافزها وذكراها. إننى أعلم أن المفتاح الذى أحاول إدارته، إنما يكمن فى أعماقى.

* * *

(٢)

اعـتـاد كـابود يسـتـريا أن يدعـونا، فى تلك الأيام بالحـواريين. كنا نجتمع، فى الصباح الباكر، لنحلق ذقوننا فى صالون منمجيان، بمراياه ونخيله وستائره المصنوعة من حبات الخرز. كانت المياه الرائقة الدافئة والكتان الأبيض تتماثل تماثلاً، يثير الدهشة، وعملية تجهيز الجثث ومسحها بالزيت. كان الأحدب ذو العينين البنفسجيتين يقوم على خدمتنا بنفسه، فقد كنا زبائن لنا قدرنا (كفراعنة موتى فى حمامات النطرون، وقد أزيحت أحشاؤهم وأمخاخهم لتجديدها واستبدالها).
كان الحلاق نفسه غير حليق، فى غالب الأحيان، حيث كان يحضر إلى الصالون مسرعا من المستشفى، بعد أن يكون قد حلق ذقن جثة من الجثث. كنا نلتقى، لفترة وجيزة، جلوسًا على المقاعد ذات الحشايا، وفى المرايا، قبل أن نفترق إلى أعمالنا المختلفة، داكابو ليقابل سماسرته، بومبال ليهرول إلى القنصلية الفرنسية (وقد التهب فمه كالحريق، تتملكه وخمة السكر وإحساس بأنه قد قضى الليل بطوله سائرا على مقلتيه). وأذهب أنا إلى التدريس وسكوبى إلى مركز الشرطة. وهكذا.

إن فى حوزتى، فى مكان ما، صورة لطقوس مثل هذا الصباح،

بهتت ألوانها. لقد أخذها لنا جون كيتس مراسل الوكالة العالمية المسكين. إنها تبدو غريبة عند النظر إليها الآن، إذ تفوح منها رائحة الأكفان.. إنها صورة ناطقة لصباح سكندرى ربيعى: صوت الاحتكاك الهادئ لدقات طحن البن، والنداءات المتخثرة لحمامات سمان. إننى أتعرف على أصدقائى من الأصوات التى يطلقونها: إن «كواتش» و«بواف» من اللوازم المميزة لكابوديستريا، عند سماعه تعليقًا سياسيًا، ثم يتبعها بتلك القهقهة التى تشبه تجشؤ معدة معدنية، وسعال سكوبى «توش، توش» بسبب التدخين، و«تيانز» الناعمة التى تصدر عن بومبال، وكأن شخصا يطرق مثلثا «تيانز».

وها أنا ذا هناك فى أحد الأركان، فى معطف الشتاء الرث، الصورة المثلى لواحد من المدرسين، وقد جلس توتو برونيل، المسكين الضئيل، فى الركن الآخر. لقد تصيدته لقطة كيتس الفوتوغرافية بينما كان يرفع إصبعًا به خاتم إلى صدغه، ذلك الصدغ القاتل.

توتو! إنه شخص «غريب الأطوار، إنه ثمرة»(*). إن ملامحه ذابلة، أشبه بملامح ساحرة. وعيناه بنيتان، كعينى صبى صغير، وقمة رأسه أشبه برأس أرملة، وابتسامته الغريبة تبدو كتلك المرسومة فى «الفن الحديث»(*). إنه معشوق مجتمع النساء اللاتى يتعالين على الرجال الذين يعيشون على مال النساء. كانت تدعوه (مدام أو مبادا)، «توتو، هو ذا أنت، يا كرنبتى!»(*). أما (أثينا تراشا)، «كم هو ساحر وجذاب. ذلكم هو توتو»(*). كان يعيش على تلك الكسرات الجافة من الاستحسان. إنه رجل النساء المسنات، وقد أخذت غمازتا خديه

(*) بالفرنسية فى الأصل.

تغوران، يوما بعد يوم، فى جلد وجهه المتغضن الذى لا يظهر عليه أثر السنين. كان سعيداً جداً كما أعتقد. نعم، كان سعيداً للغاية.

«كيف حالك - يا توتو؟» - «إننى سعيد لرؤياك، يا مدام مارتيننجو!»(*).

كان كما أسماه بومبال مزدريا، «جنتلمان من المرتبة الثانية المنحطة». كانت ابتسامته تحفر للمرء قبره، وكان لطفه كالمخدر. كانت ثروته ضئيلة، كما كان شططه نزيراً، لكنه، رغم ذلك، كان يشق طريقه فى الوسط الاجتماعى. لم يكن هنالك، كما أعتقد، ما يمكن فعله معه، لأنه كان امرأة: ومع ذلك، فإنه لو ولد امرأة، بالفعل، لبكى نفسه طويلاً حتى انهار وتداعى. كان يفتقد السحر والفتنة، إلا أنه كان لوطيًا مما كان يمنحه نوعًا من الأهمية المحرمة. «إنه رجل خدوم، إنه رجل ظريف»(*) (هكذا قال الكونت بانوبولا، والجنرال سيرفونى - ماذا يريد المرء أكثر من ذلك؟).

لم يكن مرحًا، لكنه اكتشف، ذات يوم، أنه يستطيع إضحاك الناس حتى تنشق جنوبهم. كان يتحدث الإنجليزية والفرنسية، بين بين، لكنه كان إن افتقر إلى كلمة، وضع مكانها كلمة أخرى لا يعرف معناها. وكان هذا الاستبدال العجيب يثير البهجة فى غالب الأحوال. وغدا ذلك هو مسلكه الشخصى الذى يتميز به، حتى كاد يبلغ، فى هذا المضمار، حد الشعر - كما جاء فى بعض أقواله: «انطلق اليوم بعض الذباب من آلتى الكاتبة» أو «إن السيارة اليوم مثقوبة» أو «لقد جريت سريعًا حتى غدوت كقشرة الرأس». كان فى مقدوره أن يفعل ذلك فى

(*) بالفرنسية فى الأصل.

لغات ثلاث، مما كان يعفيه من تعلم تلك اللغات. كان يتكلم لغة خاصة به، لغة توتو.

ووقف كيتس، فى ذلك الصباح، خلف عدساته، إنه من النوع الذى يرى العالم فيه رجلاً طيبًا، خاليًا من كل نوايا الشر. كانت تفوح منه رائحة عرق خفيف. إنها لازمة من لوازم الحرفة(*). لقد رغب يوما فى أن يكون كاتبا، إلا أنه أخطأ الطريق. وقد دربته مهنته، الآن، على أن يظل فوق سطح الحياة الحقيقية (الأفعال وحقائق عن الأفعال). ونمت فيه حاسة الوسوسة التى يتصف بها الصحفيون (وهم يهدئون تلك الحاسة بشرب الخمر) إنه ذلك الشعور بأن شيئًا ما قد حدث، أو أنه أوشك على الحدوث، فى الشارع المجاور، إلا أنهم لن يعرفوا به إلا بعد فوات أوان «إرساله». إن هذا الخوف الذى يعشش فى أعماقه، من أن يفقد كسرة من الحقيقة، يعلم مقدما أنها تافهة، بل وحتى بلا معنى، قد أسبغ على صديقنا ذلك التقلص التقليدى فى عضلات الوجه، والذى يراه المرء عند الأطفال الذين تحل بهم الحاجة للذهاب إلى دورة المياه، الحركة القلقة فوق المقعد، وضم الأرجل متقاطعة ثم إبعادها عن بعضها. كان ما إن يقضى، فى الحديث، معنا بضع لحظات، حتى يهب واقفًا، فى عصبيته، قائلاً: «لقد نسيت شيئًا ما، لن أتغيب أكثر من دقيقة». وفى الشارع، كان يقذف بأنفاسه ليحظى بالراحة. ما كان يمضى، البتة، بعيدًا، لكنه، فى بساطة، كان يسير حول المبنى ليهدأ قلقه. كل شىء كان يبدو طبيعيًا إلى حد اليقين، إلا أنه كان يتساءل: إن كان من الأنسب أن يتصل هاتفيًا بمحمود باشا، بشأن تقديرات الدفاع، أم ينتظر حتى الصباح. . كان جيبه مليئًا بحبات الفول السودانى، التى كان يفرقعها بين أسنانه، ثم يعود فيبصقها، وهو يحس

(*) بالفرنسية فى الأصل.

القلق والاضطراب دون أن يدرى لذلك سببًا. كان بعد أن يسير، يعود إلى المقهى أو دكان الحلاق، يخب فى مشيته وعلى وجهه ابتسامة خجلة معتذرة: كان «رجل وكالة الأنباء»، الذى يقدم أفضل نموذج حديث للتكامل والتوحد. كان لا يعيبه شيء غير المستوى الذى اختار أن يحياه إلا أنه فى وسعك أن تقول نفس الشيء على سميه المشهور. هل فى مقدورك أن تقول غير ذاك؟

إننى مدين له بهذه الصورة باهتة الألوان. أى ولع جنونى هذا بتخليد وتسجيل وتصوير كل شيء! إننى أعتقد أن ذلك الولع إنما يرجع إلى شعور بأنك لا تستمتع بالكامل بأى شيء، وإن كنت تنتزع، حقا، نضارته مع كل نفس من أنفاسك. كانت «إضباراته» هائلة زاخرة، تنتفخ بما احتوت من قوائم الطعام الممهورة وأطواق السيجار التذكارية وطوابع البريد والبطاقات المصورة.. ولقد أثبتت تلك الإضبارات نفعها، فيما بعد، حيث كان قد اقتنص، على نحو ما، بعض ما دونه بورسواردن من ملاحظات عابرة.

وفى أقصى أقصى يمين الصورة، كان يجلس بومبال العجوز الطيب بكرشه الكبير، وانتفاخ تحت كل عين من عينيه، أشبه بحقيبة دبلوماسية حقيقية. كان كل ما يشغل باله، هو خشيته من أن يفقد وظيفته أو أن يصبح عنينًا: وهو ذاك الهم القومى، الذى يثير قلق كل فرنسى منذ جان دارك. كثيراً ما كنا نتشاجر، لكن فى ود ومحبة، حيث كنا نتقاسم شقته الصغيرة، المليئة، دومًا، بتفاهات لا قيمة لها، وتفاهات أكثر قيمة: النساء(*). إلا أنه صديق طيب، رقيق القلب، يحب النساء حقًا. عندما كنت أصاب بالأرق أو المرض، كان يقول لى بطريقة ودودة حانية: «هل

(*) بالفرنسية فى الأصل.

أنت بخير؟»(*)، «اسمع، هل تحتاج إلى مسكن من الإسبرين؟»(*). أو كان يقول: «لا عليك. توجد، إن شئت، رفيقة صبية في غرفتي»(*). (ليست تلك غلطة مطبعية: كان بومبال يسمى كل فتيات الهوى بـ«السيدات الصبيات»). «ما قولك؟ إن شكلها لا بأس به والأتعاب مدفوعة يا عزيزى. إننى أشعر، هذا الصباح بشيء من العداء للمرأة، شد ما مللتهن. ما رأيك؟»(*). كانت التخمة تمسك به فى مثل تلك الأوقات. كان يقول وهو يدير عينه، تلك المضحكة: «أحس أن داء أكل لحوم البشر يتمكن منى، يومًا بعد يوم». كانت وظيفته أيضًا تثير قلقه. فقد غدت سمعته سيئة، إلى حد ما، وقد بدأ الناس يتحدثون عنه، خاصة بعد ما يسميه هو، مسألة سفيفا»(*). وبالأمس دخل عليه القنصل العام، بينما كان ينظف حذاءه بستائر القنصلية... «مسيو بومبال، أجدنى مضطرًا لتوجيه بعض الملاحظات حول سلوكك الوظيفى»(*) أف!. كان ذلك تقريعا من الدرجة الأولى.

إن هذا الذى حدث، يفسر لماذا يجلس بومبال الآن، فى الصورة، يجتر كل ذلك، وقد كسى الغم تعابير وجهه. كانت هنالك، مؤخرًا، جفوة فيما بيننا بسبب ميليسا. كان غاضبًا منى لأنى وقعت فى حبها. كان يراها مجرد راقصة فى ملهى ليلى. وهى لهذا غير جديرة بأى اهتمام جاد. كانت هنالك، أيضًا، مسألة شعوره بالصلف والكبرياء، حيث كانت، فى واقع الأمر، تعيش معنا، الآن، فى الشقة. وكان يحس أن ذلك يحط من قدره ومقامه، وربما، أيضًا، يفتقد الحكمة من وجهة النظر الدبلوماسية.

كان توتو يقول: «الحب حفرية سائلة» - إنها نكتة ساخرة تناسب كل

(*) بالفرنسية فى الأصل.

الضمائر. إذ لو وقع المرء فى حب زوجة رجل من رجال البنوك، فذلك أمر مغتفر، وإن كان مثيراً للسخرية.. أم إنه ليس كذلك؟ فالناس فى الإسكندرية يعجبون، حتى الأعماق، بالمكيدة لذاتها، لكن وقوع المرء فى الحب، يضعه موضع السخرية فى المجتمع (إن بومبال قروى فى أعماقه). إننى أفكر فيما كانت عليه ميليسا من سكينة ووقار هائلين وهى فى رقدة الموت. كان جسدها النحيل، مقمطا، ملفوفًا بالأقمشة، وكأنها قد تعرضت لحادثة أجهزت عليها، فلا براء منها ولا شفاء. حسنا.

وجوستين، لقد قوطع رسم اللوحة التى كانت ترسمها لها كليا بقبلة، كما يقول بلتازار، فى ذات اليوم الذى أخذت فيه هذه الصورة. كيف يمكننى جعل ذلك مفهومًا، بينما لا أستطيع استعادة هذه المشاهد إلا بمثل كل تلك الصعوبة. يجب، كما يبدو، محاولة رؤية جوستين جديدة، بورسواردن جديد وكليا جديدة.. أعنى أنه يجب أن أحاول، وأن أمزق ذاك الغشاء المعتم الذى يحول بينى وبين حقيقة أفعالهم- والذى أعتقد أنه من نسج رؤياى القاصرة وطبيعة مزاجى. إن حسدى لبورسواردن وعاطفتى نحو جوستين وإشفاقى على ميليسا، كانت كلها مرايا شوهتهم جميعًا. إن سبيل المعرفة يجب أن يكون عبر الحقيقة. يجب أن أدون المزيد مما أعرف، وأحاول أن أجعله مفهومًا لى أو معقولا، بفعل من أفعال الخيال، إن لزم الأمر ذلك. أم هل يمكن ترك الحقائق لذاتها؟ هل يمكن أن تقول: «لقد وقع فى الحب» أو لقد «وقعت فى الحب»، دون محاولة التكهن بما يعنيه ذلك؟ لقد قال بومبال، ذات مرة، عن جوستين: «تلك الكلبة. إنها، على ما يبدو، ساخنة، وقد تكيفت من الجو»(*). كما قال عن ميليسا: «إنها، أيا كانت، غانية

(*) بالفرنسية فى الأصل.

مسكينة ضائعة(*) . ربما كان محقًا فيما قال ، إلا أن المعنى الحقيقى لكلماته يكمن مستقرًا فى مكان آخر . إنه هنا ، كما آمل ، فوق تلك الأوراق ، المليئة بالشخبطة ، والتى نسجتها ، كالعنكبوت ، من حياتى الداخلية .

وسكوبى ، حسنا . إنه يمكن ، على الأقل ، فهمه كما يفهم الرسم الهندسى ، إنه بسيط كنشيد وطنى . كان يبدو ، هذا الصباح ، سعيدا ، فقد حقق مجدا منذ فترة قريبة . إذ بعد قضائه سنوات بمباشيا فى الشرطة المصرية ، فيما كان يسميه «غروب حياته» ، عين مؤخرا . . إننى لا أكاد أجرؤ على كتابة الكلمات ، لأنه فى مقدورى أن أرى ارتعاشة الخوف التى تفرضها السرية عليه ، كما فى وسعى ، أيضا ، أن أرى عينه الزجاجية وهى تدور فى محجرها منذرة محذرة . . لقد عين ، مؤخرا ، فى الشرطة السرية . إنه لم يعد حيا ، والحمد لله ، حتى يقرأ هذه الكلمات وينتفض مرتعشا ، حقا ، إنه نفس الرجل ، نفس البحار القديم ونفس القرصان السرى لشارع التتويج ، كما تفتقده المدينة (وتفتقد استخدامه لكلمة هذا شىء «مريع») .

لقد رويت ، فى موقع آخر ، كيف استجبت لاستدعاء غامض ، لأجد نفسى فى غرفة رائعة التناسب ، وجها لوجه مع صديقى القرصان السابق ، وبيننا مكتبه ، وهو يصفر من خلال أسنانه الصناعية غير المحكمة . أعتقد أن وظيفته الجديدة كانت تحيره بقدر ما كانت تحيرنى ، أنا الوحيد الذى يثق فيه ويطمئن إليه . من المؤكد ، حقا ، أنه قد أمضى فى مصر زمنا طويلا ، وأنه يعرف العربية جيدا ، إلا أن سجل حياته كان قاتما ، نسبيا . ماذا تأمل وكالة استخبار أن تحصل عليه منه؟ والأكثر من

(*) بالفرنسية فى الأصل .

ذلك. ماذا يأمل هو أن يحصل عليه منى؟ لقد أوضحت له، تفصيلا، أن الحلقة الضيقة التى تلتقى أسبوعيا لتستمع إلى تفسير بلتازار لمبادئ القابال، لا علاقة لها بالتجسس. إنها فى بساطة، مجموعة من تلامذة هرمس، جذبهم اهتمامهم بما احتوته مادة المحاضرات. إن الإسكندرية هى بلد الفرق والشيع، وكانت أبسط أعمال التحرى وأضحلها كفيلة بأن تكشف له عن وجود مجموعات أخرى تشبه تلك المجموعة التى تهتم بالفلسفة الهرمسية، والتى يخاطبها بلتازار، إذ هنالك: الستينريست، العلماء المسيحيون، الأوسبنسكير والادفنتست.. ما الذى شد الانتباه، بوجه خاص، إلى نسيم، جوستين، بلتازار، كابوديستريا.. إلخ؟ لم يكن فى وسعى أن أخبره، كما لم يكن فى وسعه أن يخبرنى.

«إنهم يدبرون شيئا ما. هذا ما تقوله القاهرة». كان يردد هذا القول فى ضعف ووهن. وكان من الواضح أنه لا يعرف من هم سادته هناك. كان عمله، كما استطعت أن أفهم، يُملى عليه من خلال هاتف متهالك، دون أن يرى أحدًا. ولكن، أيا كان هؤلاء الذين فى القاهرة، فإنهم يدفعون له أجرا طيبا. ما دام معه نقود يبعثرها فى تحريات كالنزهات، فمن أكون أنا حتى أمنعه من ألقائها إلىّ؟ كنت أظن أن تقاريرى الأولى، عن محاضرات بلتازار، عن القابال، سوف تثبط كل اهتمامهم بها، إلا أن ذلك لم يحدث. كانوا يريدون المزيد والمزيد من هذه التقارير.

كان البحار العجوز، فى هذا الصباح الذى ظهر فيه فى الصورة، يحتفل بوظيفته الجديدة، وما عادت به عليه من زيادة فى راتبه، وذلك بحلاقة شعره فى أرقى جزء من المدينة وأغلى صالون بها صالون منمجيان.

يجب ألا أنسى أن هذه الصورة تسجل، أيضا، «لقاء سريا». ولهذا لم يكن غريبا أن يبدو فيها سكوبى ذاهلا. كان محاطا بذات الجواسيس الذين يلزم التحرى عن نشاطاتهم - فما الحال وهنالك، أيضا، دبلوماسى فرنسى تثار حوله شائعة واسعة الانتشار، أنه رئيس «المكتب الثانى» الفرنسى.

لقد كان سكوبى يجد، عادة، فى هذا المكان مؤسسة باهظة التكاليف، ليس فى مقدوره أن يتعامل معها، فقد كان يحيا على معاش ضئيل من البحرية، وراتب هزيل من عمله فى الشرطة، إلا أنه غدا، الآن، رجلا عظيما.

لم يجرؤ سكوبى على شىء، حتى أن يغمز لى فى المرآة، حيث كان الحلاق الأحدب، اللبق كدبلوماسى، يحلق الهواء بطريقة غاية فى الاتزان، كان يحف برأسه اللامعة الشبيهة بالقبة، نوع من الزغب الخفيف للغاية، والأقرب إلى ذلك الذى يراه المرء على مؤخرة فرخ البط الصغير. وكان سكوبى قد ضحى فى السنوات الأخيرة، بلحيته الخشنة قليلة الكثافة الأشبه بالطوربيد.

قال فى صوت أجش (ففى ظل وجود مثل هذا العدد الكبير من الأشخاص المشكوك فيهم يجب علينا نحن «الجواسيس»، أن نتحدث بطريقة «طبيعية»): «يجب أن أقول، أيها الرجل العجوز، إنك تلقى هنا معاملة جيدة للغاية. إن منمجيان يعرف حقا»، ثم تنحنح وأكمل، «سر هذا الفن كله». كان حذرا وهو يتعرض للمصطلحات الفنية. «إن المسألة كلها مسألة مران تدريجى - لقد قال لى صديق حميم، حلاق فى بوندستريت، عليك، فى بساطة، بالمران المتدرج». وشكره منمجيان بصوته المضغوط، وكأنه صادر عن غير فمه. واستمر الرجل العجوز

فى تسامح. «عفوا، فأنا أعرف ثنايا هذا الفن». وأصبح فى مقدوره الآن أن يغمز لى بعينه فغمزت له بدورى. ثم نظر كلانا بعيدا عن الآخر.

ما إن أطلق سراحه حتى وقف وعظامه تطرقع، واتخذ فكه ـ الذى يشبه فك القرصان ـ وضع من يتفجر صحة وعافية. وتفحص صورته فى المرآة راضيا عن نفسه. ثم قال وهو يومئ برأسه إيماءة خفيفة، تتسق ورجل من رجال السلطة: «نعم. هذا حسن. إنه يفى بالغرض».

«سيدى، أتود أن أدلك لك جلد رأسك بالكهرباء؟».

وهز سكوبى رأسه فى تسيد، وهو يضع طربوشه الأحمر كأصيص الورد، فوق جمجمته ثم قال: «إنه يسبب لى بثورا». ثم أكمل فى ابتسامة متكلفة، «سأغذى ما تبقى بالعرق». وحيا منمجيان هذه اللمحة الفطنة بإيماءة صغيرة. وغادرنا الصالون أحراراً.

إلا أن سكوبى لم يكن، فى الحقيقة، منشرح الصدر أبدًا. كان متهدلا ونحن نسير معا فى بطء عبر شارع شريف باشا، متجهين إلى الكورنيش الكبير. خبط باكتئاب فوق ركبته بمذبته المصنوعة من شعر الخيل. كان ينفث، وهو مهموم، بالدخان من غليونه المصنوع من جذور العوسج، والذى عانى الكثير من الإصلاح والترميم. كان يبدو مشغول البال متبرما، وكان كل ما قاله فجأة، «إننى لا أستطيع احتمال توتو هذا. إنه صبى النساء بصورة فاضحة. لو كان ذلك فى زماننا لكنا. . » وهمهم لنفسه زمنا طويلا، ثم غاص فى الصمت مرة أخرى.

قلت: «سكوبى، ما الأمر؟».

قال معترفا: «إننى مضطرب البال، مضطرب البال حقا».

كانت مشيته ومسلكه العام، ونحن فى الجزء الراقى من المدينة، يتسمان بالخيلاء المصطنعة. إنها توحى بحال الرجل الأبيض، عادة، وهو يتأمل مشكلات الرجل الأبيض الخاصة، تلك التى يدعونها أعباءهم. وإن حكمنا عليها، مما بدا عليه سكوبى، فإنها تبدو عالقة ثقيلة فوق رءوسهم. هنالك إيماءاته المحدودة قدر المستطاع والتى تجلجل بالزيف والتصنع، ربته فوق ركبته، مصه بشفتيه واستغراقه فى تأمل مهموم، أمام واجهات المحلات التجارية. إنه يحملق، من عل، فيمن حوله. إن هذه الحركات تذكرنى. بصورة واهنة، بأبطال القصص الإنجليزية الذين يقفون أمام المدفأة التيودورية الطراز وهم يخبطون، بطريقة مؤثرة، أحذية ركوب الخيل، بسياط مصنوعة من عضو تذكير الثور.

إلا أننا ما إن بلغنا أطراف الحى العربى، حتى طرح، جانبا، كل هذه السلوكيات. زال عنه توتره. أزاح طربوشه ليجفف عرق جبهته، وحملق فيما حوله بمودة وألفه. كان ينتمى إلى هذا الحى بالتبنى. هنا كان يحس، حقا، بأنه فى داره. كان يتقدم، متحديا، ليشرب من الصنبور الرصاصى الناتئ من حائط قرب جامع الجوهرى (سبيل عام للشرب)، رغم أن الرجل الأبيض يعرف، فى أعماقه، أن تلك المياه بعيدة تمام البعد عن أن تكون مياه آمنة للشرب. كان يمكن، أثناء مروره، أن يلتقط عود قصب، من حزمته، ويقضمه، يمصه فى الطريق العام. أو يتناول قرن خروب حلو المذاق. هنا، تنبعث من كل مكان، فى الطريق العام، نداءات تحييه ويستجيب لها وقد تألق وجهه بشرا.

«الله يا سكوب أفندى»(*).

(*) بالفرنسية فى الأصل.

«نهارك سعيد يا سكوب»(*).

«الله يسلمك».

كان يقول وهو يتنهد. «قوم أعزاء. أنت لا تدرى كم أحب هذا المكان». ثم يروغ من جمل، كليل العين يسير محدبا بسنامه فى الشارع الضيق، يهدد بإلقائنا أرضا، بأحماله الثقال المنتفخة من البرسيم البرى الذى يستخدم علفا للدواب.

«زاد الله فى نعيمك».

«أستأذنك، يا أمى».

«بارك الله يومك».

«امنحنى حظوتك أيها الشيخ».

كان سكوبى يمشى هنا على راحته، أشبه برجل دخل ضيعته الخاصة، يسير فى بطء وفخامة كرجل عربى.

جلسنا اليوم معا، مدة من الزمن، فى ظلال الجامع التليد نستمع إلى خشخشة أشجار النخيل ونعيق السفن التى تغادر الخليج، غير المرئى أسفلنا.

وأخيرا قال سكوبى فى صوت ذابل حزين: «لقد اطلعت الآن على أمر خاص بمن يسمونهم باللواطيين. لقد هزنى مرآه، بعض الشىء، أيها الرجل العجوز. إننى لا أبالى أن أعترف بأننى لم أعرف معنى الكلمة، وكان علىّ أن أبحث عنها. إن الأمر، على أى حال، يقول بضرورة أن نستبعد أمثال هؤلاء حيث يمثلون خطرا على الشبكة».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

وضحكت. بدا للحظة من ملامح الرجل العجوز، أنه يبغى التجاوب معى بضحكة فاترة، إلا أن إحباطه تغلب على هذا الباعث، تاركا أثره كتجويف صغير فى خديه الأحمرين بلون الكرز. وأخذ يسحب أنفاسا من غليونه، فى غضب، مكررا فى ازدراء «اللواطى»، بينما يبحث عن علبة الثقاب.

قال فى حزن: «لا أعتقد أنهم، فى الوطن، يفهمون الأمر كما ينبغى. إن المصريين لا يلعنون البتة رجلا له ميوله ونزعاته، طالما كان هذا الرجل، مثلى، يمثل جوهر الشرف». كان يعنى ما يقول بالفعل. «ولكن، أيها الرجل العجوز، إن كان علىّ الآن أن أعمل من أجل.. أنت تعرف من أجل ماذا.. فإنه يتحتم علىّ أن أخبرهم، ما رأيك فى ذلك؟».

«لا تكن أحمق يا سكوبى».

«حسنا، إننى لا أدرى». قالها فى حزن. «يجب أن أكون أمينا معهم. ليس الأمر فى كونى قد أسبب ضررا. إننى أعتقد أنه يجب ألا يكون للمرء نزعات تتجاوز أن تكون له بعض الزوائد الجلدية أو الأنف الكبير. ماذا فى وسعى أن أفعل؟».

«ليس فى وسعك، بالتأكيد، وأنت فى هذه السن، أن تفعل إلا أقل القليل».

قال القرصان العجوز فى ومضة من ومضاته القديمة: «لا يوجد أسفل الحزام غير القذارة والقسوة، وحمامة لاستدراج باقى الحمامات إلى الفخ». ونظر إلىّ نظرة ماكرة، من وراء غليونه، ثم فجأة طابت نفسه وابتهج، وبدأ واحدة من استطراداته المرحة فى صورة مونولوج،

يروى فيه فصلا آخر من ملحمة، هو واضعها، تدور حول أقدم أصدقائه، توبى ما نرينج، والذى غدا الآن أسطورة.

«لقد اضطر توبى، ذات مرة، أن يخضع للعلاج الطبى بسبب إفراطه، أظن أنى أخبرتك بهذا الأمر. لم أخبرك؟ حسنا، لقد اضطر بالفعل لأن يخضع للعلاج الطبى». كان يتحدث بمتعة ظاهرة. «يا إلهى، كم اعتاد الممارسة وهو شاب. مد الحبل على غاربه حتى تجاوز الحدود. ووجد نفسه، فى النهاية، تحت يد الطبيب، وكان عليه أن يلبس جهازا خاصًا». وارتفع صوته إلى طبقة عالية، «كان يتجول مرتديا غطاء لليدين، من جلد نمر أرقط، عندما يغادر السفينة، فى إجازة، حتى هب الأسطول التجارى كله ضده يدًا واحدة. ثم وضع، مبتعدًا، فى مأوى مدة ستة شهور، حيث قالوا له بضرورة أن تجرى لك عملية شد، وأيًا كانت تلك العملية، فقد كان يسمع صراخه فى طول تيوكسبرى وعرضها. هذا ما كان يقوله توبى. ثم قيل له: لقد شفيت. إلا أنهم لم يشفوه بالفعل. لم يفعلوا ذلك على أى حال من الأحوال. وأعيد بعد فترة وجيزة. لقد عجزوا عن فعل أى شىء معه، وقالوا إنه مبتلى بسفاهة حيوانية. يالتوبى المسكين!».

وسقط نائمًا، دون جهد، مستندا إلى جدار الجامع («إنها إغفاءة كإغفاءة القطة». هكذا اعتاد القول، «إلا أن الموجة التاسعة توقظنى على الدوام». وساءلت نفسى، إلى متى تطول غفوته؟). وأعادته الموجة التاسعة بعد لحظة حملته عبر زبد أحلامه إلى الشاطئ. جفل ثم اعتدل فى جلسته، قال: «ماذا كنت أقول؟ حسنا، كنت أتحدث عن توبى. كان أبوه عضوا فى البرلمان، له مكانته العالية. كان ابن رجل ثرى. حاول توبى، فى البداية، أن يلتحق بالكنيسة. قال إنه أحس

بالنداء يدعوه إلى ذلك إلا أننى، شخصيا، أعتقد أن الرداء الكهنوتى، فقط، هو الذى جذبه - كان توبى هاويا مسرحيا كبيرا. ثم فقد إيمانه وانزلق وزل، وكانت فاجعة - وأوقع به. قال إن الشيطان أغواه. قال الرئيس: «تيقنوا ألا يفعلها ثانية، وخاصة فى مكان عام ك«توتنج». كانوا يودون وضعه تحت الفحص - قالوا إنه مصاب بمرض نادر، أعتقد أن اسمه قرن الإخصاب. إلا أن والده، لحسن الحظ، ذهب إلى رئيس الوزراء وطمس الأمر كله. لقد كان من يمن طالعه، أيها الرجل العجوز، أن كان لكل أعضاء مجلس الوزراء، فى ذلك الحين، نزواتهم أيضا. كان الأمر غريبا، إذ إن رئيس الوزراء، وحتى أسقف كانتربرى تعاطفا مع توبى المسكين. كان ذلك من حسن حظه. ولقد حصل، بعد ذلك، على بطاقة متميزة وأبحر».

ونام سكوبى ليستيقظ من جديد بعد ثوان قليلة، ليكمل بطريقة مسرحية، متحدثا دون توقف، وهو يرسم علامة الصليب فى تقوى ويبتلع أنفاسه. «لقد كان توبى العجوز هو من دلنى على طريق الإيمان. ففى واحدة من الليالى، وبينما كنا نقوم معا بنوبة الحراسة فوق ظهر «الميريديت» (تلك السفينة العتيقة البديعة) قال لى: «أيها الدنىء هنالك شىء يجب أن تعرفه. ألم تسمع أبدا عن العذراء مريم؟». بالطبع كنت قد سمعت عنها بطريقة مبهمة. لم أكن أعرف شيئا عن واجباتها، حتى يمكننى الحديث عنها..»

ثم نام مرة أخرى. وانطلق من شفتيه شخير قصير كالنقيق. وأخذت غليونه، بحرص، من بين أصابعه، وأشعلت لنفسى سيجارة. هذه الصحوة ثم الغفوة فى صورة الموت، تركت فى نفسى أثرا ما. يالهذه الزيارات القصيرة التى يقوم بها إلى الأبدية، التى سوف

تكون، عما قريب، سكناه الدائمة، مع من يرتاح إليهم أمثال توبى وبدجى والعذراء مريم بواجباتها المحددة. . كان مهموما بمثل تلك المشكلات، وهو فى سن، كما كنت أرى، تجعل من مباهاته الكلامية مصدرا للإزعاج إلى حد ما (كنت مخطئا، فقد كان سكوبى شخصا جامحا مستعصيا).

واستيقظ مرة أخرى، بعد مدة، من هذا النوم الأعمق مما سبقه، نفض نفسه ونهض، يدعك عينيه بجمع يديه. وشققنا طريقنا إلى ضواحى المدينة القذرة حيث يعيش فى حجرتين متداعيتين، فى شارع التتويج. وأمسك بسلسلة أفكاره بإحكام، قائلا مرة أخرى: «ومع ذلك. فما أيسر أن تقول لى، يجب ألا تخبرهم. لكننى مازلت أسأل نفسى». (وهنا توقف يستنشق رائحة الخبز العربى المنبعثة من باب أحد الحوانيت. وصاح الرجل العجوز: «إن رائحته كرائحة حجر الأم!»). كانت مشيته المتمهلة تواكب تأملاته، «المصريون، كما ترى أيها العجوز ـ يبدون قساة، من بعض النواحى، إلا أنها قسوة، كما اعتدت أن أقول دوما، مشوبة بالصفح والكياسة. إنهم متسامحون مع بعضهم البعض. لقد قال نمرود باشا بنفسه: (اللواط شىء، وتدخين الحشيش شىء آخر تماما). إنه جاد كما ترى. وأنا لا أدمن الحشيش البتة أثناء تأدية عملى، فذلك أمر ردىء. إلا أنه من المؤكد، من زاوية أخرى للرؤية، أن البريطانيين لن يقدموا على فعل أى شىء، مع موظف رسمى له مكانة مثل مكانتى. لكن، إن أخذ المصريون فى توجيه النقد لى، أيها العجوز، فمن المحتمل أن أفقد كلا الوظيفتين وكلا الراتبين. إن هذا هو ما يثير قلقى».

وصعدنا السلم الذى كان يترنح تحت وطء أقدامنا، وقد هلهلته

جحور الفئران. قال موافقا: «إن له رائحة ما، إلا أنك تعتادها. إنها رائحة الفئران. كلا، لن أغادره. قد عشت فى هذا الحى، حتى الآن، سنوات. إن كل من فيه يعرفنى ويحبنى. كما أن عبده على مقربة من هنا».

وضحك ضحكة مكتومة، ثم توقف على أول بسطة فى السلم، خالعا طربوشه الأشبه بإناء الزهور ليجفف عرقه بطريقة أفضل. وتهدلت كتفاه كما يفعل دوما عندما يفكر بجدية، وكأن أحمال الفكر ذاتها تثقل عليه. ثم تنهد وهو يقول فى بطء، وقد أحاط نفسه بجو من أراد، مهما كلفه الأمر، أن يكون معبرا، أن يصبغ فكرته بأكبر قدر يستطيعه، من الوضوح، «الأمر كله ذو علاقة بالنزوات. لن تدرك هذه المسألة إلا وقد تجاوزت زهرة الشباب وحار الدماء». ثم تنهد مرة أخرى، «المسألة تكمن من الحاجة إلى الرقة والحنان، أيها العجوز. والأمر كله، بصورة ما، يتوقف على ممارساتك. ومع ذلك، فأنت تشعر بالوحدة. إن عبده، الآن، هو صديقى الحقيقى». وعاد يضحك ضحكته المكتومة مبتهجا. «إننى أدعوه بلبل الأمير. لقد أقمت له عمله، بدافع من الصداقة فقط. اشتريت له كل شىء: حانوته وزوجته الصغيرة. لم أمسسه بضرر، ولن أفعل ذلك البتة، وذلك لأنى أحب هذا الرجل. إننى سعيد بما فعلت، إذ رغم تقدمى وتحسن وضعى، فما زال لى صديق حقيقى. إننى أطل عليهما، كل يوم، لأراهما، وذاك يضفى علىّ قدرًا من السعادة لا يمكن تخيله. إننى حقا، أيها العجوز، أستمتع بسعادتهما. إنهما كابن وابنه لى، هذان الفأران الذابلان، إننى لا أحتمل سماعهما يتشاجران. إن هذا الأمر يثير قلقى على أبنائهما. إننى أعتقد أن عبده يغار عليها، دونما سبب. إنها تبدو لى ذات دلال. إلا أن الرغبة الجنسية هنا، فى هذا الطقس الحار،

عارمة، ولذا فالبعض منها يفى بالحاجة كما اعتدنا أن نقول عن الروم فى الأسطول التجارى: ملءُ ملعقة منه تفى بالغرض. إنك ترقد وتحلم به كما تحلم بالمرطبات، أقصد الجنس، لا الروم. إنهم يختنون الفتيات المسلمات، أيها الصبى العجوز، وهذا أمر قاس، قاس حقا، مما يجعل موضوع الجنس هو معزوفتهن المفضلة، لقد حاولت أن أجعلها تتعلم الحياكة، أو أشغال الخيط، إلا أنها غبية إلى حد أنها لم تفهم شيئا، لقد جعلا من فكرتى مزحة يضحكان منها، إلا أن هذا الأمر لم يثر ضيقى، فما كنت أبغى غير تقديم العون لهما. لقد كلفنى ما أسست لعبده، من عمل، مائتى جنيه، إنها كل مدخراتى. إلا أنه الآن، ناجح فى عمله، إنه ناجح للغاية».

وكان لتلك المفاجأة أثرها الذى مكنه من تجميع كل طاقاته للهجمة الأخيرة. فرحنا نصعد الدرجات العشر الأخيرة بخطى واسعة. وفتح سكوبى شقته. لم يكن فى وسعه، فيما مضى، أن يستأجر غير غرفة واحدة - إلا أنه استطاع، بفضل راتبه الجديد، أن يستأجر كل هذه الشقة القذرة.

كانت كبرى الغرفتين على النمط العربى القديم، وهو يستخدمها كغرفة نوم واستقبال فى آن واحد. كانت مؤثثة بسرير قديم الطراز غير مريح، منخفض يمكن طيه، وحامل عليه طاولة مستديرة.

وتراصت فوق رف المدفأة المتآكل بعض أعواد البخور، ونتيجة من نتائج الشرطة، ولوحة القرصان التى رسمتها له كليا، والتى لم تكن قد انتهت منها بعد. وأشعل سكوبى لمبة كهربائية وحيدة يغطيها التراب - وهى بدعة حديثة، كان جد فخور بها (إذ كان الجاز يمتزج بطعامه) - وتلفت حوله فى سعادة حقيقية. ثم سار على أطراف أصابعه حتى

الركن البعيد. لم أكن فى البداية، وبسبب العتمة، قد تبينت الساكن الآخر: كان ببغاءً أمازونيًا زاهى الخضرة فى قفص نحاسى مغطى بقطعة من قماش أسود، أزاحها الرجل العجوز حذرا، كمن يتخذ موقفا دفاعيا، وقال: «لقد كنت أحدثك عن توبى. لقد مر الأسبوع الماضى عبر الإسكندرية على خط يوكوهاما، لقد حصلت على الببغاء منه ـ كان عليه أن يبيعه ـ لقد أثار الطائر اللعين الهياج والشغب. إنه محاور بارع. ألست كذلك يارون، هيه؟ إنه حاد الظراط، ألست كذلك يارون». وأطلق الببغاء صفيرا خافتا، بينما يحنى رأسه. وقال سكوبى فى استحسان: «هذا ما أتوقعه منك». ثم التفت إلىَّ وأضاف: «لقد حصلت على رون بثمن زهيد. نعم بثمن زهيد للغاية. أتود أن أخبرك لماذا؟».

وفجأة وعلى غير المتوقع، انثنى ضاحكا حتى قارب أنفه ركبته، وهو يطن، بلا صوت، كنحلة صغيرة، ويضرب فخذه ضربة لا صوت لها أيضا، ثم يعود كما كان، كانت نوبة فجائية. قال: «أنت لن تتصور الشغب الذى أثاره رون. لقد أحضر توبى الطائر إلى الشاطئ. كان يعلم أنه يستطيع الكلام، ولكن ليس بالعربية. يا إلهى، كنا نجلس نثرثر فى مقهى (فلم أكن قد رأيت توبى منذ خمس سنين)، عندما بدأ رون يتحدث بالعربية. كان يتلو «الكلمة». إنها نص من القرآن له قدسيته. ألم تفعل ذلك يا رون؟ ووافقه رون على قوله بصفيرة. وأخذ سكوبى يشرع فى وقار، «إن (الكلمة) مقدسة للغاية، وكان أن أحاط بنا جمع غاضب. وكنت محظوظا لمعرفتى سبب ما يجرى. كنت أعرف أنه لو ضبط غير المسلم وهو يتلو هذا النص، على وجه الخصوص، فإنه عرضة لأن يختن فى الحال». وبرقت عيناه. «لقد كان مؤسفا للغاية أن يختن توبى هكذا بينما يقضى إجازته على الشاطئ، وأصابنى القلق

(كنت أنا قد ختنت من قبل). إلا أن حضور بديهتى لم يهجرنى، على أى حال، فى تلك اللحظة. كان توبى يود أن يلكم بعض الرءوس، إلا أننى منعته. كنت أرتدى حلة رجل الشرطة، كما تعرف، مما يسر الأمر علىّ. ألقيت حديثا قصيراً، فى هذا الجمع، قلت فيه إننى فى طريقى لأخذ هذا الكافر. وهذا الطائر الفاسق إلى الحجز لوضعهما فى التخشيبة. وأرضاهم ما قلت، إلا أنه لم يكن هنالك من وسيلة لإسكات رون حتى بعد أن وضعنا عليه غطاءه الصغير - أليس كذلك يا رون؟ لقد ظل ابن الزنى يتلو (الكلمة) طوال طريق العودة. وكان علينا أن نجرى حتى لا نتعرض ثانية لما تعرضنا له. يا إلهى، يا لها من تجربة!».

كان يخلع ملابسه الرسمية، بينما يتكلم، واضعا طربوشه على المسمار الحديدى الصدئ المثبت فى الحائط فوق سريره، وفوق الصليب الموجود فى كوة صغيرة حيث كان يضع، أيضا، قلة ماء شرب فخارية. وارتدى سترة قديمة مهترئة ذات أزرار من صفيح. واستمر فى حديثه وهو لا يزال يمسح رأسه، «يجب أن أقول، لكم كان رائعا أن أرى توبى العجوز، مرة أخرى، بعد طول فراق. كان عليه أن يبيع، بالطبع، هذا الطائر، بعد مثل هذا الشغب. ما كان يجرؤ على العودة إلى منطقة الميناء ومعه الببغاء. وأنا الآن فى حيرة من أمره بعد أن اشتريته، إذ لا أجرؤ على أخذه خارج الحجرة، خشية ما قد يتلفظ به». ثم تنهد وتابع الحديث. «كما قدم توبى لى شيئا طيبا آخر، إنه وصفة لصناعة الويسكى المغشوش، هل سمعت بها؟ ولا أنا. إنه أفضل من الإسكوتش وأرخص من التراب، أيها العجوز إننى، ومن الآن، سوف أصنع كل مشروباتى بنفسى، انظر إلى هذه». ثم أشار إلى قارورة صغيرة مليئة بسائل نارى اللون، وقال: «إنها بيرة صنعتها هنا،

وهى، أيضا جيدة للغاية. لقد صنعت ثلاثًا، انفجرت منها اثنتان. سوف أطلق عليها اسم، بيرة بلازما».

وسألته: «ولماذا هذا؟ هل تنوى بيعها؟».

فقال: «كلا، يا إلهى، إنها لاستخدامى الخاص». ثم مسح على معدته متأملا، وهو يلعق شفتيه، «جرب كأسا منها».

«كلا، شكرًا».

ونظر العجوز إلى ساعته الضخمة ثم زم شفتيه، «بعد قليل يجب أن أتلو صلاة العذراء مريم. سأكون مضطرا لإخراجك أيها العجوز. لكن دعنا نلقى نظرة على هذا الويسكى المصنع لنرى كيف حاله. هل نفعل ذلك؟».

انتابنى فضول شديد، أن أرى كيف يجرى تجاربه الجديدة، فتبعته راضيا إلى بسطة السلم مرة أخرى، ثم إلى تلك الخلوة كالكوة القذرة، التى وضع فيها، الآن، مغسلاً حديديًا مطليًا بالزنك (مكلفن) كئيب المنظر، لا بد أنه اشتراه خصيصا لهذه الأغراض المحظورة. كان يقف منتصبا أسفل خزانة شديدة القذارة، وقد ازدحمت الأرفف حوله بأدوات هذه الحرفة الجديدة - دستة من زجاجات البيرة الفارغة، منها اثنتان مسكورتان، والمبولة الضخمة التى كان سكوبى يدعوها دوما «بالميراث». هذا غير مظلة شاطئ كالخرقة الممزقة وزوج من أحذية المطر. ولم أستطع أن أمنع نفسى من السؤال، بينما أشير إلى هذه الأخيرة، «وما دور هذه فى العملية؟ هل تدهس فيها الأعناب أو البطاطس؟».

واتخذ سكوبى سمت عانس وقد احولت عيناه حول أنفه، تعبيرا عن أن التمادى فى النزق حول هذا الموضوع، محل النقاش، لم يعد له

مكان. وأصغى بعمق للحظة، كأنما يستمع إلى صوت التخمير. ثم ركع على ركبة مرتعشة وهو يمعن النظر، بتركيز، وإن كان بريبة، فى محتويات المغسل. ورسمت عينه الزجاجية، على وجهه، تعبيرا آليا، بينما تحملق فى المزيج الذى بدا كئيب المنظر وقد فاض به المغسل. وأخذ يتشممه، دون انفعال، ثم فى تأفف، قبل أن ينهض مرة أخرى، وقد أخذت مفاصله فى الصرير. ثم اعترف قائلا: «إنه لا يبدو جيدا كما أملت أن أكون. لكن علينا أن نمهله بعض الوقت. يجب أن نمهله بعض الوقت». وتذوق بعضا منه على طرف إصبعه، وقد كور عينه الزجاجية، ثم اعترف قائلا: «إنه يبدو عكرا، بعض الشىء، كالوحل، وكأن شخصا ما قد بال فيه». ولما كان هو نفسه وعبده المشاركان فى معرفة المفتاح الوحيد لجهاز التقطير المحظور هذا، فقد كان فى وسعى أن أبدو بريئا.

وسألنى متشككا: «هل تحب تذوقه؟».

«كلا، شكرا، يا سكوبى».

فقال متفلسفا: «آه، حسنا. ربما لم تكن كبريتات النحاس الحمراء طازجة. لقد أمرت باستحضار الراوند من بليتى. دفعت فيه أربعين جنيها. لم يكن يبدو جيدا عندما جىء به إلى هنا، لكننى لم أجد ضرورة لإخبارك بذلك. لقد خلطت المواد بنسب صحيحة، راجعتها بعناية مع توبى قبل أن يرحل. إنها تحتاج بعض الوقت. ذاك ما تحتاجه بالفعل».

وانتعش الأمل، مرة أخرى، فشق طريقه عائدا إلى غرفة النوم يصفر، فى همس، بعض مقاطع أغنية شهيرة، ما كان يغنيها بصوت مرتفع إلا إن كان ثملا بشراب البراندى.

إننى أبغى

أحدا يضاهى خيالى

إننى أبغى

أحدا يوازى طرازى

لقد كنت طيبا لزمن طال

والآن سآخذها بين أحضانى

يا لها من متعة

توم تى توم تى.

وهنا هبط النغم، فى مكان ما كأنما من فوق هوة، وتلاشى، وإن كان سكوبى لا يزال يطن المقطع وينقر الإيقاع فى تتابع.

وجلس فوق السرير يحملق فى حذائه الرث الزرى.

وفجأة، ودون تفكير واضح مسبق (أطبق عينيه فى سرعة، كمن يبغى إغلاق الحديث فى هذا الموضوع إلى الأبد) استلقى سكوبى فوق السرير واضعا يديه خلف رأسه وقال:

«لدى، قبل أن تغادر، اعتراف صغير أود طرحه بين يديك، أيها العجوز، حسنا، ما قولك؟».

وجلست فوق المقعد غير المريح وأنا أومئ برأسى. «حسنا»، قالها مؤكدا وهو يسحب نفسا عميقا، «حسنا إذن: إننى أحس، فى بعض الأحيان، عندما يكتمل القمر، إنى خاضع لسيطرة ما، خاضع لسطوة مؤثر ما».

كان ذلك، فى ظاهره، خروجا محيرا عما اعتاد، إذ بدا العجوز منزعجا مما أفشاه واعترف به. وغرغر لحظة كالديك الرومى. ثم استمر فى صوت ضارع خالٍ من كبريائه المعتادة، «إننى لا أدرى ما الذى يتسلط علىّ». ولم أفهمَ، بالضبط، ماذا يعنى كل هذا، فسألته: «هل تعنى أنك تسير وأنت نائم، أم ماذا هناك؟ هل تنقلب إلى ذئب يا سكوبي؟». وهز رأسه مبتلعا ريقه كطفل على شفا البكاء، «إننى أرتدى ملابس النساء و«الدولى فاردن». قال ذلك فاتحا عينيه على اتساعهما، محملقا فىّ بصورة تبعث على الشفقة.

قلت: «أنت ماذا؟».

وأصابتنى دهشة شديدة إذ رأيته ينهض ويسير متيبسا إلى صوان ويفتحه. كانت معلقة فى داخله حلة نسائية قديمة الطراز يعلوها التراب، وقد أكلتها العتة، وإلى جوارها، فوق مسمار، قبعة قديمة شحمية تشبه الخوذة، لا بد وأن تكون تلك التى تدعى «دولى فاردن». وقد اكتملت هذه الكسوة المذهلة بزوج من أحذية البلاط الملكى تعود إلى عصر ما قبل الطوفان، ذات كعبين عاليين للغاية، وبوز طويل مدبب. وحار كيف يستجيب للضحكة التى كنت، الآن، مضطراً لإطلاقها. فصدرت عنه قرقرة واهنة. وقال: «إنه لأمر سخيف. أليس كذلك؟» كان لا يزال يحوم على حافة البكاء، رغم وجهه المبتسم. وكانت نبرة صوته تستدر الشفقة على سوء طالعه: «إننى لا أدرى ماذا حل بى. ومع ذلك، فالأمر كما تعرف. إنها دوما تلك الرجفة المنتشية القديمة..».

فجأة، وبعد تلك الكلمات، تغير مزاجه الذى يميزه: حل به شعور جديد من الخفة والمرح محل ما انتابه من تشتت وإحباط. وغدت

نظراته ماكرة، بلا ندم. اجتاز الحجرة إلى المرآة، وأنا أنظر إليه فى دهشة. وضع القبعة على رأسه الصلعاء. واستبدل، فى لحظة، صورته بصورة امرأة عجوز خليعة ضامرة، ذات عينين كالأزرار، وأنف كحد الموسى، عاهرة من زمن جسر ووترلو، تمثال حقيقى لمومس رخيصة، أجرها بنسان. وتجمعت الدهشة والضحك كحزمة فى أعماقى، دون أن تجد مخرجا. فقلت له أخيرا: «إنك لا تتجول، بحق السماء، هكذا يا سكوبى. هل تفعلها وتتجول بالفعل؟».

وجلس سكوبى، عاجزا، فوق السرير مرة أخرى، وقال وقد عاوده الكدر والاكتئاب، فأشاع فى وجهه الصغير الذى يثير الضحك، تعبيرا هزليا (كان لا يزال يرتدى تلك القبعة الدولى فاردن): «إننى أفعلها فقط، عندما يتسلط علىّ ذلك المؤثر. عندما أفقد سيطرتى على نفسى، فلا أكون مسئولا، أيها العجوز، عما أفعل».

كان يجلس وقد تحطم وانسحق. وأطلقت، من دهشتى، صفيراً خافتا، فقلده الببغاء فى الحال. كان الأمر جد خطير. وأدركت، الآن، لماذا كانت المشاكل التى يمعن التفكير فيها، والتى أنهكته وأرهقته طوال الصباح، تحتاج إلى هذا البحث العميق. إذ إنه من الواضح لو تجول امرؤ بمثل هذا اللباس فى الحى العربى.. ويبدو أنه كان يتابع حبل أفكارى. إذ قال: «إننى لا أفعل ذلك إلا أحيانا، عندما يصل الأسطول إلى الميناء». واستمر وقد انتابته لمسة من شعور بالرضاء عن الذات، «بالطبع، إن حدثت أية مصاعب أو متاعب فإننى سأقول بأنى كنت متنكرا. ألست واحدا من رجال الشرطة، إن تدبرت الأمر وفكرت فيه. ورغم كل شىء، فإن لورانس العرب كان يرتدى قميص النوم. ألم يكن يفعل ذلك؟». وهززت رأسى وأنا أقول: «لكنه لم يكن

يرتدى قبعة الدولى فاردن، يجب أن تعترف يا سكوبى بأن لباسك هو الأكثر أصالة وإبداعًا. . » وهنا أمسك الضحك بتلابيبى.

كان سكوبى يراقبنى وأنا أضحك، وهو ما زال جالسا فوق السرير وعلى رأسه ذلك الغطاء الخيالى. وقلت له ضارعا: «اخلعه». وبدا، الآن، جادا منشغل البال، إلا أنه جلس بلا حراك، ثم قال: «لقد عرفت الآن كل شىء عنى. أفضل ما فى الربان العجوز وأسوأ ما فيه. لقد كنت، الآن، على وشك. . ».

فى تلك اللحظة قرع أحدهم الباب الخارجى. وقفز سكوبى فى خفة ونشاط، وببديهية حاضرة مذهلة، إلى الصوان، حيث دس نفسه داخله وأغلقه بجلبة واضحة. وتوجهت أنا إلى الباب أفتحه، حيث كان يقف على بسطة السلم خادم يحمل إبريقا فخاريا مليئا بسائل قال إنه قد أحضره من أجل الأفندى سكوب. فتناولته وتخلصت من الخادم، قبل أن أعود إلى الحجرة وأنا أنادى الرجل العجوز الذى برز من الصوان مرة أخرى - وقد عاد الآن تماما إلى ما كان عليه - عارى الرأس مرتديا سترته.

تنفس فى ارتياح وقال: «لقد خلصنا فى آخر لحظة. من كان هناك؟». وأشرت إلى الإبريق «أوه، ذلك - إنه من أجل الويسكى المصنع - إنه يضاف إليه كل ساعات ثلاث».

قلت: أخيرا، وأنا لا أزال أغالب هذه المفاجآت المزاجية الجديدة، والتى يصعب استيعابها، «حسنا، يجب أن أذهب». كنت لا أزال أحوم بعنف، ما بين الدهشة والضحك، من فكرة تلك الحياة الأخرى التى يعيشها سكوبى عندما يكتمل القمر - وكيف استطاع تفادى الفضيحة كل تلك السنين؟ عندما قال: «لحظة واحدة أيها العجوز. لقد

قلت لك كل ما قلت لأنى أود أن تصنع بى معروفا». وأخذت عينه الزائغة تدور، الآن، بجدية تحت وطأة ما يدور بخلده من أفكار. وتراخى، مرة أخرى، وقال: «إن شيئا كهذا يمكن أن يضرنى أبلغ الضرر. أبلغ الضرر أيها العجوز».

«أعتقد أنه كذلك».

قال سكوبى: «إننى أود منك، أيها العجوز، أن تصادر كل تلك الأشياء التى تشبه قنبلة لم تنفجر بعد. إنها الطريقة الوحيدة للتحكم فى المؤثر الذى ينتابنى».

تساءلت: «أصادر تلك الأشياء؟».

«خذها بعيدا. ضعها فى مكان وأغلق عليها. ذاك ما سوف ينقذنى أيها العجوز: إننى أعرف هذا. إن النزوة أقوى من طاقتى، إن انتابتنى».

قلت: «حسنا».

«فليباركك الرب يا بنى».

ولففنا معا كل ملابس ضوء القمر المكتمل الملوكية، فى بعض أوراق الصحف، وربطناها بدوبارة فى حزمة. كان إحساسه بالراحة يشوبه شعور بالشك، فقال فى قلق: لن «تضيعها؟».

قلت فى حزم: «اعطها لى». فناولنى الحزمة مستسلما. هبطت السلم وهو يصيح خلفى معبرا عن ارتياحه وعرفانه بالجميل.. «سوف أصلى من أجلك صلاة قصيرة، يا بنى». عدت أسير فى بطء وأنا أعبر منطقة الميناء، والحزمة تحت إبطى، وأنا أتساءل إن كنت سأجد يوما،

من يكون محل ثقتى، وأجرؤ على أن يشاركنى معرفة هذه القصة الرائعة.

استدارت السفن الحربية تسبح فى صورها الذاكنة المنعكسة فى الماء - وغابة الصوارى بأشرعتها تتهادى فى الميناء التجارى بتؤدة بين صور الماء البادى كمرآة. ومذياع، فى مكان ما، يشدو بأغنية، آخر جاز، مرحة وصلت الإسكندرية:

ترسياس العجوز

ليس هنالك من هو فرح مرح

من هو حر وبسيط مثل

ترسياس العجوز

* * *

(٣)

كانت المشكلة، مرة أخرى، وعلى نحو ما، هى كيفية خلق تآلف وتوحد بين هذه المادة الجديدة، والمثيرة للقلق، ونسيج المادة القديمة دون تغيير أو تدمير، لا يمكن تصحيحه، لحدود موضوعاتى أو الحلول التى أراها تتحرك فى إطارها. كانت الأسماك الذهبية تسبح، تدور فى فتور، داخل وعائها الكبير المضىء، وهى لا تكاد تعى أن عالمها، ومجال مسيراتها، إنما هو خط منحنى.

الشمس الغاربة أفرغت طرق الميناء من كل الأشياء إلا الظلال السوداء للسفن الحربية الأجنبية. وهى رغم كل ذلك، قد خلفت وراءها ذلك القبس الرمادى الرجراج، وتلاعب الأضواء دون لون أو طنين فوق سطح البحر الذى لا يزال مرقطا بالأشرعة. والقوارب الصغيرة تتسابق إلى مراسيها. تتحرك فوق قاع الميناء الداخلى تفر، داخلة خارجة، فيما بين السفن كفئران بين أحذية قرويين بدائيين. وتحرك صف المدافع ا لبازغة فوق سطح السفينة الحربية «جان بارت» فى بطء، ثم مالت وعادت تستقر فى هذا الصمت الذى خيم على المكان، وقد صوبت فوهاتها إلى قلب المدينة الوردى، والذى كانت مآذنه العالية لا تزال تبرق بلون الذهب فى آخر شعاعات الغروب.

وأسراب حمام الربيع تتلألأ كالنثار وهى تستدير بأجنحتها نحو الضوء. (كتابة جميلة!).

ألواح النوافذ الزجاجية الكبيرة، ذات الأطر النحاسية، فى نادى اليخوت، تضوى بالألوان كالماس. وتلقى بضوء متألق فوق الموائد الثلجية البياض، وما عليها من طعام، فتشعل الكئوس والمجوهرات والعيون بلهيب جامح مضطرب أخير، قبل أن تسدل الستائر الثقيلة، وتكتسب الوجوه، التى اجتمعت لتحيى ماونت أوليف، شحوب ضوء الشموع الدافئ.

إن انتصارات المجتمع المنظم، والقدرة على حسن التصرف والحصافة، والدفء والصبر، والخلاعة والرقة والعاطفية، وقتل الحب بتناول الأمور فى استهانة، وتناسى المرارات والخيبات، هى كلها الإسكندرية، المدينة الأم التى لا تعى شاعريتها والتى مثلتها الأسماء والوجوه التى صنعت تاريخها. لتستمع فى انتباه:

تونى أومبادا، بالداسارو تريفيزانى، كلود أماريل، بول كابوديستريا، ديمترى رانديدى، أونوفريوس باباس، كونت بانوبيولا، جاك دى جيرى، أثينا تراشا، جمبلاط بك، دلفين دى فرانكويل، جنرال سرفونى، أحمد حسن باشا، بوزو دى بورجو، بيير بالبز، جاستون فييس، حداد فهمى أمين، محمد آدم، ويلموت بيرفو، توتو دى برونيل، كولونيل نجيب، دانتى بوروميو، بينيد يكت دانجو، بياداى تولومى، جيلدا أميرون.. الشعر وتاريخ التجارة والنسق الإيقاعية لبلدان الشرق الأدنى التى ابتلعت فينيسيا وجنوا (كلها أسماء يمكن للعابر يوما ما أن يقرأها فوق شواهد جبانة الموتى).

وارتفع النقاش كسحابة بخار.. تغلف ماونت أوليف، بينما كان

واقفا يتحدث إلى نسيم، مضيفه، وقد كسا وجهه تعبير رقيق، يفصح كالعدسة، عن حياء أصيل ينم عن حسن منبته. كان الرجلان شديدى التماثل، إلا أن سمرة نسيم كانت ناعمة ملساء وعينيه ويديه مفعمتان بالقلق. كانا، رغم فارق السن صنوين، حتى فيما يشتركان فيه من أذواق، لم تؤثر فيها الأيام بالنقصان، رغم أنهما بالكاد كانا يتراسلان، مباشرة، طوال الوقت الذى قضاه ماونت أوليف خارج مصر. كان دائب الكتابة لليلى وليس لأبنائها. ومع ذلك، فإنه ما إن عاد حتى كانا كثيرى اللقاء، كما وجدا، أيضًا، الكثير الذى يناقشانه. كما كان فى الإمكان سماع الضربات القوية لمضربى التنس اللذين يلعبان بهما فيما بعد الظهر الربيعى فى ساحة المفوضية، ساعة ينام الناس عادة. كانا يمتطيان صهوة الجياد معا عبر الصحراء، أو يجلسان الساعات جنبا إلى جنب، يتدارسان النجوم خلال التلسكوب الذى أقامته جوستين فى القصر الصيفى. كانا يصطادان ويرسمان معًا، ولا يفترقان منذ عودة ماونت أوليف. وها هما الليلة، يلامسهما الضوء الناعم بقدر يخفى الشعيرات البيضاء فى فودى ماونت أوليف، والتجاعيد التى حول عينيه المتأملتين الحكيمتين. كان الرجلان يبدوان، فى ضوء الشموع، متماثلين فى العمر تماما، إن لم يكونا من نفس العائلة.

ألف وجه تنعكس عليها تعبيرات لا أفهمها. («إننا جميعًا نتسابق تحت ثقل عوائق محكمة». هذا ما تقوله إحدى شخصيات كتاب بورسواردن). ومن بين كل تلك الوجوه، كان هنالك وجه واحد، فقط، أتحرق شوقا لرؤياه، وجه جوستين الأسمر العابس. يجب أن أتعلم رؤية كل شىء، حتى نفسى، فى ضوء جديد، بعد قراءة كلمات بلتازار الباردة القاسية. كيف يبدو الإنسان عندما «يقع فى الحب». (يجب أن تنطق الكلمات بالإنجليزية فى نغمة خافتة كالثغاء). ذلك

إقرار منى بالخطأ! بالغباء. ووقفت هنالك فى بذتى الوحيدة اللائقة، والتى غدت بفعل الزمن متهدلة، لامعة عند الركبتين، أرنو حولى، فى ولع، بعينين كليلتين، لعلى ألمح المرأة التى . . ولكن ما أهمية ذلك؟ فأنا لست فى حاجة إلى «كيتس» كى يصورنى. ولا أفترض أننى أقبح من أى شخص آخر أو أقل أناقة، كما أن زهوى بنفسى، بالقطع، من النوع الشائع تماما، وإلا فكيف بى لم أتوقف أبدًا، ولو للحظة، أتساءل، لماذا انتحت جوستين بى جانبا لتضفى علىّ فضلها وحظوتها؟

ماذا كان فى وسعى أن أمنحها من أمور تعجز عن الحصول عليها فى مكان آخر؟ هل كانت تبغى حديثى الكتبى البعيد عن التجربة وممارستى الجنسية كالهواة، وهى التى كانت فى يدها شروة كل ذكور الإسكندرية؟ (إنها عملية وضع الطعم فى الشرك لاستدراج الغير!). لقد وجدت ذلك أمرا جارحا للغاية حتى أفهمه أو أبلعه أو أتقبله، وإن كان له حجة وقوة الحقيقة الجافة المقتضبة. كما أنه، بالإضافة إلى ذلك، يفسر كثيرا من الأشياء التى ظلت بالنسبة لى، حتى الآن، دون تفسير، مثال الميراث الذى أوصى به بورسواردن لى. كان ذلك شعورا منه بالذنب، كما أعتقد، بسبب ما عرفه عما كانت تفعله جوستين، بميليسا، «بحبها» لى. بينما كانت جوستين، من ناحيتها، تعمل، فى بساطة، على حمايته من نفوذ نسيم المحتمل (كم يبدو رقيقا ووديعا فى ضوء الشموع). لقد قال، ذات مرة، وهو يتنهد فى صوت واهن: «ليس هنالك، فى مدينتنا، أيسر من تدبير ميتة امرئ أو اختفائه».

آلاف الأحاديث تبحث عن بعضها البعض كما تبحث جذور الأشجار عن الرطوبة والبلل ـ المعانى الخافية للحياة والمتخفية، وراء الابتسامات المتألقة، فى الأيدى التى تعصر العيون، فى الحقد والكيد،

فى الحمى والرضا. (إن جوستين تتناول الآن إفطارها فى هدوء محاطة بخدم من رجال طوال سود البشرة، كما تتناول عشاءها تحت ضوء الشموع فى صحبة متألقة. لقد بدأت من لا شىء - من قارعة الطريق - لتغدو الآن زوجة أكثر رجال بنوك المدينة وسامة. كيف حدث هذا كله؟ ليس فى مقدورك البتة أن تتوصل إلى ذلك وأنت تراقب هذه السمراء الرشيقة بنظراتها غير المستأنسة، وابتسامتها التى تكشف عن أسنانها البيضاء الرائعة..). ومع ذلك فإن حديثا، واحدا، عابرا يمكن أن يحتوى بذرة حياة بكاملها. إن بلتازار، مثلا، يقول وقد التقى بكليا قرب ستارة من ديباج أحمر، وقد أمسك بكأس من البرنو: «كليا، إن لدى ما أود قوله لك». وأحس، وهو يتكلم، بدفء شعرها الذهبى، وجلدها المصبوغ بلون الشهد والذى يكاد يكون كالسكر المحروق نتيجة استحمامها فى البحر فى شمس الربيع الدافئة. «ماذا؟». كانت عيناها الصافيتان الزرقاوان بلون زهرة الخشخاش، تحتلان مكانهما فى رأسها كقطعتين ثمينتين قد قدتا من بهاء وجمال، صنعة عمر صائغ. «تكلم يا عزيزى». قال بلتازار، وقد أحاط شعره الأسود برأسه (كان يصبغه)، وصوته الخفيض بنقيقه الساخر المعتاد: «لقد جاء والدك لرؤيتى. إنه قلق بشأن علاقة محرمة قيل إنك قد أقمتها مع امرأة أخرى. انتظرى، لا تتكلمى. ولا تبدى كمن أوقع بها الأذى». وبدت كليا، الآن، وكأنه يضغط على كدمة فى جسدها. وكسا فمها الوقور الحزين تعبير طفولى، يبتهل ألا يتدخل أبعد من ذلك. «إنه يقول إنك بريئة، ساذجة، وإن الإسكندرية لا تسمح للأبرياء بأن..».

«أرجوك يا بلتازار».

«ما كنت لأتكلم لولا تأثرى بصدق ألمه الشديد، ليس بسبب

الفضيحة، فمن يهتم هنا بالقيل والقال؟ إنه قلق خشية أن يصيبك الأذى».

وقالت كليا فى صوت خافت مضغوط، كحزمة أفكار هصرتها آلة إلى واحد فى المائة من حجمها:

«إننى لم أنفرد بجوستين منذ شهور مضت. هل تفهم ما أعنيه؟ لقد انتهت تلك العلاقة بانتهاء اللوحة. وإن شئت أن نكون صديقين، فلا تشر، أبدا، إلى هذا الموضوع، مرة أخرى». وابتسمت ابتسامة مرتعشة، فقد أقبلت جوستين، فى ذات اللحظة، نحوهما تنساب وعلى فمها ابتسامة دافئة نضرة. (من الممكن، تماما، أن تحب هؤلاء الذين تضيرهم أكثر من غيرهم). ومرت تتهادى فى ضوء شموع الحجرة كطائر بحرى كبير. وأخيراً جاءت إلى حيث كنت واقفا لتهمس قائلة: «لن أستطيع الحضور الليلة، فنسيم يريد منى أن أظل بالمنزل». إننى مازلت أحس بثقل خيبتى لسماع كلماتها التى لم أستطع استيعابها، وهمهمت قائلا: «يجب أن تحضرى». كيف لى أن أعرف أنها، قبل أقل من عشر دقائق، قد قالت لنسيم، وهى تعرف كراهيته للعبة البريدج: «هل فى وسعى، يا حبيبى، أن أذهب لألعب البريدج مع آل سيرفونى، هل تحتاج السيارة؟». إنها بالقطع، واحدة من تلك الأمسيات النادرة التى قَبل فيها بورسواردن أن يلقاها فى الصحراء لقاءات كانت تذهَب إليها دون تردد ـ كالسائر فى نومه. لماذا يا ترى؟ لماذا؟

كان بلتازار يقول فى تلك اللحظة: «لقد قال والدك: «إننى لا أحتمل الفرجة على ما يجرى دون أن أدرى ماذا أفعل. إن الأمر يبدو كمن يراقب طفلا يقفز، فى خفة، قرب جزء من آلة شديدة التأثير، لا

يحوطها ما يقى من حولها». ولمعت الدموع فى عينيها ثم اختفت فى بطء، مرة أخرى، بينما كانت ترتشف شرابها، وقالت: «لقد انتهى هذا الأمر». وأولت ظهرها لبلتازار، والموضوع، بحركة واحدة. وتحولت الآن، بفمها الممتعض، إلى مناقشة أمور لا معنى لها مع الكونت بانوبيولا، والذى كان ينحنى ويتأرجح، ملاطفا، كما يفعل ببغاء سكوبى الأخضر عندما يحط فوق المكان الذى يجثم عليه. كانت سعيدة أن ترى ما لجمالها عليه من تأثير مباشر واضح متميز، كفيض من سهام ذهبية. وعادت جوستين تمر مرة أخرى، وأمسكت كليا من معصمها، فقالت كليا كمن يستفسر عن طفل مريض: «كيف الحال؟». وكست جوستين وجهها بظلام جهامة عابسة، وهمست بطريقة تمثيلية: «أوه كليا. الحال سيىء للغاية. يا له من خطأ فادح. إن نسيم رجل رائع، وما كان لى أن أفعل ما فعلت، فأنا متبوعة حيث ذهبت». ورنت كل منهما إلى الأخرى، فى تعاطف، للحظة طالت. كان ذلك هو لقاؤهما الأول منذ زمن مضى (فى مساء ذلك اليوم، كتب بورسواردن: «تلك كلمات قليلة متعجلة، ليست كلها نابية، أكتبها وأنا على فراش المرض فى ذاك المساء». لم يكن فى الفراش. كان يجلس فى مقهى يواجه البحر مبتسما، بينما كان يكتب). رسائل منطوقة وأخرى مكنونة، تتقاطع، تتداخل، تحمل تيارات حياتنا، مخاوفنا، نفاقنا وأحزاننا. إن جوستين تتحدث الآن عن زواجها الذى كان يبدو، للعالم الخارجى، واضح الشكل والمحتوى. ذلك القالب من جص الكمال، والذى أحسست، أنا نفسى، بالحسد نحوه عندما التقيت بهما معًا أول مرة. «إنه زواج العقول الحقيقية الصادقة»، هذا ما فكرت فيه. ولكن، أين يمكن وجود ذلك ا لحيوان الرائع ذى الرأسين؟ وعندما وعت جوستين، لأول مرة، غيرة نسيم المفرطة، غيرة رجل

عنين الروح، أحست الجزع والفزع. لقد وقعت خطأ فى المصيدة. (كانت كليا تراقب كل ذلك، كما يراقب المرء اللوحة البيانية لمريض أصابته الحمى، يراقبه بنظرة صداقة خالصة، دون أى رغبة فى تجديد الحب الذى شعرت به نحو هذه اليهودية المشتتة التى لا تفهم ذاتها).

كانت جوستين تنظر إلى الأمر على نحو آخر، نحو أكثر بدائية. كانت تفكر بأنها قد حكمت، دوما، على رجالها من رائحتهم. لقد كانت تلك هى المرة الأولى التى أهملت فيها استشارة حاستها. لقد كان لنيسم نقاء هواء الصحراء عديم الرائحة، الصحراء فى الصيف جافة بلا أسرار. كان نقيا، وكم كرهت هى النقاء! ثم ماذا فيما بعد؟ نعم، كان الصليب الذهبى الصغير الذى يعشش فى شعر صدره يثير اشمئزازها. كان قبطيا ـ مسيحيا. تلك هى الطريقة التى تعمل بها عقول النساء أثناء خلوتهن. ومع ذلك فإنها، لخجلها من أفكارها، ضاعفت من شغفها واعتنائها بزوجها، رغم أنها، فيما بين القبلات، كانت لا تتوق فى أعماقها إلا لمشاعر الترمل وما فيه من راحة وهدوء بال! أترانى أتخيل كل هذا؟ لا أعتقد ذلك.

كيف حدث كل الذى حدث؟ إن فهم ذلك يقتضى عودة إلى الوراء، عبر ما نسجه بلتازار من تعليقات جمة، فيما بين سطور مخطوطى، حتى النقطة التى قوطع فيها رسم كليا للوحة بقبلة. إنه لمن الغريب أن أتفحص اللوحة، الآن، وهى تنتصب، هنالك، غير مكتملة، فوق رف المدفأة، عتيق الطراز، فى البيت الذى كان فى الجزيرة. لقد طرأت على بالها، وهى ترسم، فكرة لم تكن قد بلغت شفتيها بعد. ثم هبطت شفتاها، فى رقة، حيث كان يجب أن تهبط فرشاة الرسام الندية. قبلات ولمسات الفرشاة، كان الواجب يملى علىّ أن أكتب عن ميليسا المسكينة.

كم كان كل هذا الموضوع بغيضا ـ لقد أسماه بورسواردن «قبلة الرفقاء التى لا نكهة لها» ـ والتى هى بريئة للغاية! إن القفازين الأسودين اللذين كانا ترتديهما فى اللوحة، قد ترك كل منهما ـ وقد تزرر ـ حيزا صغيرا مفتوحا، متخذا شكل القلب. وكانت تلك القبلة البريئة المضحكة، تعبر، فقط، عن الإعجاب والشفقة التى أثارتها الأشياء التى كانت ترويها جوستين لها عن فقدها طفلتها، الطفلة التى سرقت منها، بينما كانت تلهو قرب ضفة النهر. «لقد كان رسغاها صغيرين. لو رأيتها، لرأيت كم كانت جميلة ووديعة، كسنجاب». كانت هنالك بحة فى صوتها، وحزن فى عينيها، وقد برز فمها إلى أسفل، وظهرت غمازة فى كل خد. ومدت يدها، وقد ضمت الإبهام إلى واحد من أصابعها، لتصور محيط رسغيها الصغيرين. وأمسكت كليا بيدها لتقبل الفتحة، كالقلب، فى قفازها الأسود. كانت فى الحقيقة تقبل الطفلة لا الأم. وبرزت، من هذا التعاطف الرهيب، براءتها على هذا النحو المهلك لحب عقيم. كيف يتسنى لى صياغة مشاهد شاملة، أراها، أنا نفسى، بهذا القدر من الصعوبة، إن هاتين المرأتين، الشقراء والبرونزية، فى المرسم وقد بدأ يغشاه الظلام فى سان سابا، بين الخرق وأوانى الألوان ولوحات الوجوه المعروضة الدافئة التى تكسو الجدران. كبلتازار وداكابو، بل وحتى نسيم ذاته أعز أصدقاء كليا؟ إنه لمن العسير أن أصيغهم فى لون واحد متوازن حتى لا تغدو الخطوط الخارجية غامضة ضبابية.

كانت جوستين، حينذاك، آتية من لا مكان. وقد مثلت حيلة اعتبرها أهل الإسكندرية خدعة ذكية. كانت قد تزوجت من أجنبى يدعى أرناؤوطى، إلا أنها لم تنل، من وراء ذلك، غير ازدراء المجتمع. إذ جعلته، فى النهاية، يطلقها ويهجرها. أما عن الطفلة فإن

قلة من الناس قد عرفت بها وحفلت بمصيرها. لم تكن جزءًا من سيدات المجتمع، كما يقول المثل. واضطرها الفقر، فترة من الزمان، إلى العمل، بعض الوقت، كنموذج لطلاب الفن فى المرسم، مقابل عدة قروش للساعة الواحدة. ومرت كليا، التى كانت تعرفها سماعا، عبر رواق المرسم الطويل، ذات يوم، بينما كانت جوستين فى وضع النموذج، فترك جمال وجهها السكندرى فيها أثرا عميقا، فاستأجرتها لترسم لها لوحة. وهكذا جاءت تلك الأحاديث الطويلة والرسامة صامتة. حيث كانت كليا تحب ممن ترسمه أن يتحدث بحرية، شريطة أن يظل ساكنا بلا حراك. كان ذلك يمنح تقاطيعهم حياة من داخلهم، ويملأ نظراتهم بترجمات لا واعية لأفكارهم، ذلك هو الجمال الحقيقى، وإلا كان موات اللحم البشرى.

كانت براءة كليا الفياضة وهى ما كانت تحتاجه حتى ترى الفراغ الذى تعيشه جوستين مع أحزانها الخاصة - إنما هى مجرد تعبير تصويرى واقعى عن العقل عندما يكون متناقضا مع ذاته: إذ إننا نخلق بأيدينا تعاساتنا التى تحمل بصمات أصابعنا - كانت الإيماءة ذاتها مجرد محاولة فجة لامتلاك التجربة الحقة، المعاناة الحقيقية - كما يأمل المتوسل المبتهل انتقال النعمة التى يفتقدها عندما يلمس واحدًا من أولياء الله، لم تكن القبلة تتوقع، بأى حال من الأحوال، أن يرد عليها بقبلة أخرى، أن تكرر نفسها كانعكاس فراشة فى مرآة. إذ لو كانت مدبرة، هكذا عمدا، لكانت إيماءة باهظة الثمن. وهذا ما برهنت عليه كليا، إذ إن جسدها ذاته قد ناضل ليخلص من قماطات براءته كما يناضل الطفل أو التمثال للخروج إلى الحياة من تحت أصابع الفنان أو مبضع الجراح. كان إفلاسها نتيجة شبابها الطاغى، أما إفلاس جوستين فقد كان إفلاسا لا يتحدد بعمرها. كانت براءتها عزلاء كالذاكرة. وقد وجدت، وهى

تتأمل فى إعجاب هدوء جوستين فى حزنها، وجدت نفسها وقد تركت مع كل المرارة الشديدة لحب لم تسع إليه.

لقد كانت «بيضاء القلب»، كما تقول الجملة العربية المعبرة. وأحست فجأة، وهى ترسم حلكة رأس جوستين وكتفيها، وكأن لمسات الفرشاة، نفسها، قد بدأت تحاكى مناغاة لم تفكر فيها من قبل، أو حتى تسمح لنفسها بالتفكير فيها أبدا. كانت تستمع إلى ذلك الصوت العميق، وهو يعدد تلك الأحزان المحببة التى تنتمى إلى عالم التجربة الحية الفاعلة، وقد أمسكت بأنفاسها، بين أسنانها، محاولة أن تفكر، الآن فقط، فى الدلائل العفوية، لحسن تربية موضوعها الذى ترسمه: اليدان ساكنتان فى الحجر، الصوت الخفيض والتحفظ الذى يحدد معالم قوة حقيقية. ومع ذلك فإنها، بسبب عدم خبرتها، لم تكن تملك إلا القليل، إلا الشعور بالشفقة نحو جوستين وهى تقول أشياء مثل: «إننى لا أقدم الكثير من الخير، كما تعلمين. لقد اعتاد أرناؤوطى أن يقول، إننى لا أوقع بالغير غير الأحزان. . لقد أعادنى إلى رشدى وعلمنى أن لا شىء يهم غير اللذة، واللذة نقيض السعادة، إنها جانبها المأساوى كما أعتقد». وتأثرت كليا مما قالت، فقد وضح لها أن جوستين لم تذق البتة طعم اللذة، إن اللذة الحقيقية تكمن، دون شك، فى العطاء.

«إن أرناؤوطى كاد يدفعنى إلى الجنون بتحقيقاته الفضولية. وما خسرته كزوجة ربحته كمريضة. لقد كان اهتمامه بما أسماه «حالتى»، يتجاوز أى حب، ربما، كان يشعر به نحوى. وجاء فقدى لطفلتى فجعلنى أمقته بينما كنت، فيما مضى، لا أرى فيه غير رجل عطوف شديد الحساسية. لعلك قرأت كتابه «عادات»(*). إن الكثير مما فيه قد

(*) بالفرنسية فى الأصل.

اخترعه، حتى يرضى غروره الذاتى، ويلقى بأثقاله فوقى. إنه يرفض أن «أشفى»، كما كان يقول، لأنى جرحت كبرياءه. إنك لا تستطيعين أن تبثى روحا فى شظايا. فإن أنت قلت لرجل فرنسى. «إننى لا أستطيع مضاجعتك ما لم أتخيل شجرة تمر» فإنه سيخرج ويقطع أقرب شجرة تمر يلقاها ليأتيك بها».

كانت كليا أنبل من أن تحب إلا حبا عاطفيا حارا. كما كانت، فى ذات الوقت، قادرة على أن تحب إنسانا ما، لم تتحدث إليه غير مرة واحدة عبر عام. كان نهر قلبها العميق الساجى يختزن صورة، يعكسها فى أى وقت أثناء جريانه، يجعلها تغوص فى الذاكرة إلى أعمق مما فى وسع الكثرة منا أن تفعل. إن البراءة الحقيقية لا تستطيع فعل ما هو تافه، وهى عندما تقترن بكرم القلب وسماحته فإن مثل هذا التآلف هو أكثر الطبائع، تحت السماء، عرضه للجرح والإيذاء.

كان يمكن مقارنة هذه التجربة الفجائية المرهقة للذات، بما فيها من توتر وحرارة ملتهبة، بتلك العواطف المضحكة التى تكنها، كثيراً، فتيات المدارس لمدرساتهن. ومع ذلك فقد كان بها لمسة من طبيعة جوستين الناضجة العتيقة (خطوط رسوم شيطانية لحب خبيرة متمرسة، ذلك ما كانت تفعل جوستين إزاء الذين يواجهونها)، كانت تحس حقا ألم الشيخوخة المتنامية: كانت روحها وجسدها يذوبان أمام المطالب التى تعلم أنها عاجزة عن تحقيقها، والتى سوف تمزقها إربا. وأحست، فى أعماقها، بخلجات إحساس جديد عليها: إحساس بأن شيئا فى داخلها ينفصل عنها انفصال المح عن البيضة. تلك هى السبل الغريبة التى يبلغ بها الناس رشدهم.

كان على العزيزة المسكينة أن تمر عبر نفس الالتواءات السخيفة التى

عبرناها جميعا، الإحساس بجسدها كحشية من جير حى، أطفئ ليحرق جثة الجانى التى يخفيها. عالم اللقاءات السرية، والنبضات والنزوات التى تُوسم المرء، بما يميزه، كما يُوسم الحديد المحمى وعالم الشكوك - لقد هبطت عليها كل تلك الأحاسيس فجأة. كان تشوش عقلها هائلا، حتى إنها كانت تجلس، تحملق فى جوستين الأخرى، وقد تغيرت، تحاول أن تتذكر كيف بدت حقا على الجانب الآخر من غشاء التحول. الغشاوة التى تختم بها إفروديت عيون المحبين العليلة. نوع من العمى الكثيف المعتم المقدس.

كانت تنتابها الحمى طوال اليوم حتى تحين اللحظة المحددة التى تلقى فيها نموذجها. كانت تقف فى الرابعة أمام باب المرسم المغلق، حيث تستطيع أن ترى بوضوح ذلك الركن الذى تجلس فيه جوستين، عندما تجىء، تقلب صفحات مجلة «فوج» وتدخن، بينما تنتظر، واضعة ساقا على ساق. وطافت بخاطرها فكرة، «إننى أبتهل، إلى الله، ألا تكون قد جاءت. أن تكون مريضة أو أن تكون قد انصرفت - إننى أتمنى، فى لهفة، ألا أكون مبالية». وأحست بالدهشة، أيضا، فمشاعر الاشمئزاز تلك كانت تصدر بالدقة من ذات النبع الذى تصدر عنه الرغبة فى أن تسمع صوتها النبيل الأبح، مرة أخرى، أن ترى محبوبتها مرة أخرى! . وكان استقطاب المشاعر، هذا، بفجائيته، يصيبها بالخوف والحيرة.

كانت تنتابها الرغبة، أحيانا، فى أن تذهب بعيدا حتى تكون أشد انتماء، إلى قرينتها! يا للمسكينة الحمقاء. إنها لم تترك واحدة من مقومات الحب العديدة إلا وخدعت نفسها بها. وحاولت أن ترتد إلى ملذات أُخر، لتكتشف أن تلك الملذات لم يعد لها وجود. كانت تدرك

أن القلب تسئمه الرتابة، وأن العادة واليأس يشاركان الحب فراشه. فلاذت بالصبر منتظرة، كما تفعل امرأة عجوز للغاية، حتى يتخلص الجسد من نوازعه، وتنجو بنفسها من رباط، تعرف هى الآن أنه ما كان مسعاها. وانتظرت دون طائل. كانت تغوص، كل يوم، إلى الأعمق. ومع ذلك، فإن كل هذا، قد قدم لها خدمة قيِّمة واحدة، أثبت لها أن مثل تلك العلاقة لا تستجيب إلى حاجاتها التى تتسق مع طبيعتها، تماما مثل الرجل الذى يعرف، فى أعماقه، منذ الساعة الأولى، أنه قد تزوج امرأة لا تناسبه، لكن لا حيلة له إزاء ما وقع. لقد أدركت أخيرا أنها امرأة، وأن علاقاتها تنتمى إلى عالم الرجال - ومنح هذا تعاستها شعورا بالارتياح العابر.

إلا أن تشوه الحقيقة كان يثير بعمق اهتمام واحدة كانت تدرك أن بعض ما يصيب الإحساس من تشوش أمر له قيمته للفنانة التى فى أعماقها. «وأحست فجأة، وهى تسير متجهة إلى المرسم، أنها كالوهم اللاهث، كأنها صورة مرسوعة فوق قماش لوحة. وغدا تنفسها ألما ثم استبد بها، بعد لحظة، إحساس غامر بالهناءة والسعادة إلى حد غدت فيه وكأنها بلا وزن، كأنما ثقل حذائها، فقط، هو الذى يمسك بها إلى الأرض. بدت وكأنها يمكن، فى أية لحظة، أن ترفرف بعيدا عن سطح الثرى، مخترقة غشاء الجاذبية، عاجزة عن التوقف. كان هذا الشعور حادا حتى إنها توقفت تستند إلى أقرب حائط ثم تسير إلى جواره، وقد أنثنت منحنية، مثل شخص فوق ظهر سفينة تواجه إعصارا. كان هذا الإحساس يخلف لديها مشاعر سيئة أخرى، كتلك التى تخلفها حلقة محماة مشدودة حول جمجمتها، تضغطها. وصوت خفق أجنحة يدوى فى أذنيها. كانت ترقد فوق السرير، نصف يقظى، نصف

نائمة، فرأت، كما ترى الحالمة، «قرونا تنغرس فجأة فى مخها، تخترق عقلها. ورأت عينا الإله منزا، إله النور عند الفرس، ملتهبتين تتوهجان كنحاس أحمر. كانت ليلة رطبة تنيرها أضواء الغاز الخابية فى الحى العربى. كان الشخوص المسخرة ينتشرون بجدائلهم الطويلة المدهونة بالزيت وملابسهم المزوقة المبهرجة، ووجوه ملائكة سود، والرجال والنساء القادمون من الضواحى». (إننى أنقل تلك الكلمات عن تاريخ حالة أنثى، مريضة عقليا، كانت تحت رعايا بلتازار - أصيبت بانهيار عصبى بسبب «الحب» - حب متبادل أو حب من طرف واحد. من ذا الذى يستطيع تحديد ذلك؟ وما أهميته؟ إن أسباب الحب والجنون متطابقة، فيما عدا درجة هذا التطابق. كما أن هذا المسلك لا ينطبق على كليا وحدها، إذ إنه فى الحقيقة ينطبق علينا جميعا).

لم تكن جوستين تتحدث عن الماضى وحده، بل وعن الحاضر أيضا، والذى كان يثقل عليها بقرارات يجب أن تتخذ. كان كل ما تحسه كليا، فى ذلك الوقت، وعلى نحو ما، لا معنى له بالنسبة لجوستين. فكما أن العاهرة قد تكون غافلة عن أن زبونها إنما هو شاعر سوف يخلدها فى قصيدة لن تقرأها أبدا، كذلك كانت جوستين وهى تلاحق تلك اللذات الجنسية العميقة، غير واعية بأنها قد تؤثر فى كليا، فتضعف من قدرتها على منح حب متكامل، حب تمنحه شبابها كما ترى - الأمر الذى كان يتسق وطبيعتها أكثر من أى شىء آخر. إلا أن المخلوقة البائسة لم تكن تقصد أذى. كانت، فى بساطة، ضحية تلك الرغبة الشرقية فى أن تمتع الآخرين، أن تمنح صديقتها، ذهبية الشعر، كل ثمين لديها، جمعته بخبرتها، وإن كان فى جملته لا يعنى شيئا لديها، لقد منحتها كل شىء، دون أن تدرى أى شىء. كانت، بحق، كروح حديثة عهد بالنعم، تستجيب للحب (أيا كان مصدره)، ولكن،

فقط، فى إطار ما يثيره من بهجة صداقة مضنية. لم يكن جسدها يعنى أى شىء بالنسبة لها. كانت غريرة، جمة التواضع. وكان هذا النوع من العطاء يثير الجزع بحق. كان بسيطا كالعربى. فجا، فظا كعادة شرب الماء عند الفلاحين. إنه عطاء ولد منذ زمن طويل، قبل أن تتشكل فكرة الحب فى نفس الأوربى الممزقة - والتى جعلته، معرفته بها (أو اختراعه لها)، أشد الكائنات عرضة للجراح، ولأنواع من الجوع لا تخمدها إلا التخمة، لكنها لا تشبع أبدا. لقد غذت تلك الفكرة أدب التصنع والتكلف، والتى كان يمكن لمادتها أن تنتمى إلى الدين - مجال عملها الحقيقى. كيف يمكن للإنسان أن يقول مثل تلك الأشياء؟

هل هنالك أى قيمة، إن نظر إلى الأمر بمعيار آخر، لإقدام امرأة، لا تدرى أين وجهتها بسبب شطحات مشاعرها، وعذاباتها المبرحة، وغرقها فى فيض من مخاوفها بسبب عدم إدراكها لذواتها، إقدام كإقدام جندى يخشى الموت، فتلقى بنفسها فى قلب المعمعة لتصيب بالجراح كل الذين أحبتهم، أكثر من غيرهم، وأعجبت بهم، أكثر من غيرهم - كليا وأنا وأخيرا نسيم. إن بعض الناس قد ولدوا ليجلبوا الخير والشر بقدر أكبر مما تفعله البقية منا - إنهم حملة أمراض، دون وعى منهم، ودون قدرة على الشفاء. أعتقد أنه ربما كان علينا أن نتدارس حالهم، فهنالك احتمال أن يكونوا مصدر خلق وإبداع، بنفس القدر الذى ينشرون به ما هو ظاهر من فساد وإرباك. إننى لا أجرؤ، حتى الآن، على القول بأنها كانت حمقاء أو بلا أحاسيس. إننى أستطيع القول، فقط، إنها لم تكن تدرى بما تمور به أعماقها. (غموض ما يصوره العقل). لم تستطع أن تضع إطارا محددا حول الصورة المخيفة لما تعانية من ضياع، فى عالم يقوم على الأفعال العادية الشائعة. كانت الهاوية التى تحيط بها ذات خاصية منفردة - قصور فى القيم، قصور فى

الإمساك بمعنى الأشياء، مما يقتل الفرصة ـ خاصية هى ذاتها الفضيلة الوحيدة لدخيلة نفسها التى اكتشفت الطريق الخاص بها لإسعادها، والذى لا تحس فيه بالخجل لعريها. إنه من السهل علىّ الآن أن أنتقد، إذ غدا فى وسعى أن أرى، بصورة أعمق، حقيقة حيرتها وحيرتى. إننى أعرف، أنها لا بد قد أحست بخجل مرير للخدعة التى مارستها معى والخطر الذى عرضتنى له. كنا نجلس ذات يوم فى مقهى الباب، نشرب العرقى ونتحدث، عندما انفجرت دموعها وقبلت يدىّ قائلة. «إنك رجل طيب، طيب بحق، وإننى لجد آسفة». آسفة لماذا؟ لدموعها؟ كنت أتحدث عن جوته. يا لى من أحمق غبى! لقد اعتقدت أننى ربما أكون قد أثرتها عندما كنت أعبر عن نفسى بطريقة تثير المشاعر. لقد كنت أقدم لها الهدايا، وكذلك كليا، وهو ما تفعله الآن أيضا: إلا أن الشىء الغريب فقدان كليا، لأول مرة، لذوقها فى اختيار التحف الفنية القديمة، ذلك الذوق الذى تتميز به موهبة الرسامين وحساسيته. كانت تهديها أقراط ومشابك زينة من تلك الشائعة الاستعمال السكندرية الصميمة. إننى أحار فى فهم تلك الظاهرة، إلا إن كان الحب يعنى سلب عقل المحب وإرادته.. ربما نعم.

لم أدرك ذلك فى حينه، مما يذكرنى بتعليق بلتازار الهامشى الجاف، على هذا الأمر، حيث كتب يقول. «من دأب المرء أن يتحدث بنغمة أخلاقية عالية عن هذه الأشياء ـ ولكن من ذا الذى ينتقد نفسه، فى الحقيقة، إن مد يده يقطف تفاحة ناضجة ترقد فوق جدار دفأته الشمس؟ إن غالبية النساء اللاتى لهن مزاج جوستين وخلفيتها لا يمتلكن شجاعة تقليدها حتى وإن كن يمتلكن حرية فعل ما تفعل. أليس ثقيلا على النفس، بصورة ما، أن تعانى من الأحلام أو الآلام العابرة، حتى يجد الطبيب، دوما، جبينا مرتفع الحرارة وجوا محيطا يتحمل

وزر الإثم؟ لست أدرى. إذ إنه من الصعب عزل صفة أخلاقية عن ممارسة فعل إرادى. ثم هنالك، مرة أخرى، تلك النشوة العذبة التى تبعثها مضاجعة من هم دون المرء علما والتى تنبع من ممارسة الإفساد عن قصد وعمد، وجر هؤلاء إلى الوحل الذى ينبعث منه الشبق والهوى وقصائد الشعر والنظريات حول الله. أعتقد أنه من الحكمة ألا يصدر الإنسان حكمًا».

إلا أنه خارج إطار كل هذا، فى مجال الحياة اليومية، كانت هنالك مشكلات تحتاج جوستين فيها إلى من يطمئنها. «إننى إلى حد ما، أحس الدهشة والرعب. لقد عرض نسيم، الذى أعرفه بالكاد، الزواج منى. هل لى أن أضحك، أيتها الغالية كليا، أم أخجل، أم كلاهما معًا». وابتهجت كليا، لبراءتها، بهذه الأنباء. فقد كان نسيم أعز أصدقائها. وبدت لها، فجأة، فكرة إقدامه، بما له من رقة ومكانة، على حمل ما فى حياة جوستين من شقاء حقيقى فكرة مبهرة - وحلا لكل المشاكل. إن المرء عندما يحتاج إلى من ينقذه من ورطة خلقها بنفسه لنفسه، فهل هنالك ما هو أروع من أن يمر به فارس يمتطى صهوة جواد؟ ووضعت جوستين يديها فوق عينيها وقالت فى صعوبة، «للوهلة الأولى قفز قلبى وأنا أكاد أصيح. «نعم، أوافق». آه، يا عزيزتى كليا، لا بد سوف تخمنين لماذا؟ لأننى أحتاج إلى ثرائه للبحث عن الطفلة - حقا، إنها لا بد موجودة، فى مكان ما، فى طول مصر وعرضها، وحيدة، تعانى بشدة وربما، أيضا، تعامل معاملة سيئة». وأخذت فى البكاء، ثم توقفت فجأة وقالت فى غضب، «لقد قلت لنسيم، حماية لكلينا مما قد يكون فاجعة فادحة، «ليس فى وسعى، أبدا، أن أحب رجلا مثلك. ولن يكون فى مقدورى، أبدا، أن أمنحك لحظة من السعادة. شكرا لك ووداعا».

«أواثقة أنت مما تقولين؟» .

«لن أستخدم رجلا من أجل ثروته، تلك والله لن أفعلها أبدًا» .

«جوستين، ماذا تريدين؟» .

«الطفلة أولا . ثم الفرار من عيون هذا العالم إلى ركن هادئ حيث يكون فى وسعى امتلاك زمام نفسى . هنالك فى شخصيتى أجزاء كاملة لا أدرك كنهها . إننى أحتاج وقتا لذلك . لقد كتب نسيم لى اليوم مرة أخرى . ماذا يريد منى؟ إنه يعرف كل شىء عنى» .

وخطرت بعقل كليا فكرة، «أن أخطر ما فى الكون، حب يقوم على الشفقة» . إلا أنها طردت الفكرة، وسمحت لنفسها أن ترى، مرة أخرى، صورة هذا الرجل المهذب، الحكيم، غير المخادع أو المرائى، وهو يتصدى لوابل بلايا جوستين يدرؤها عنها . هل أكون ظالما إن عزوت موقفها هذا إلى رغبة أخرى يمكن أن يحققها هذا الحل؟ (إنها، على التحديد، الرغبة فى التخلص من جوستين والتحرر من مطالب أثقلت قلبها وعقلها . وكانت كليا قد توقفت عن الرسم تماما) . إن لطف نسيم ورقته وشخصيته السمراء طويلة القامة والتى تتحرك فى ترو فى دهاليز المجتمع، كانت فى حاجة إلى مثل تلك المهمة . إذ كيف لفارس أن يحس بأنه قد أدى ما عليه، إن لم تكن هناك قلاع، وصبايا قانطات يائسات فى حبائلها؟ كان ما يشغل بالهما متماثلا، متطابقا، إلا فيما يختص بالحاجة إلى الحب .

قالت كليا، «لكن المال ليس مما يعتد به» . كانت تتحدث عما عرفته، بالدقة، عن حقيقة نسيم . كان هو، شخصيا، لا يبالى، حقيقة، بثروته الهائلة . إلا أنه يجب أن يضاف هنا أنه كان قد أقدم،

بالفعل، على حركة نحو جوستين، مست شغاف قلبها، واستحوذت على مشاعرها. لقد التقيا، أكثر من مرة، بطريقة رسمية، كالشركاء من رجال الأعمال، فى بهو فندق سيسيل، ليناقشا موضوع هذا الزواج، بنفس التجرد الذى يخطط به السماسرة السكندريين كيفية الغوص فى عمليات الأقطان. ذلك هو الأسلوب الذى تتبعه المدينة فى تعاملاتها. إننا شعب عقلانى، دنيوى، أقام، دوما، حدا فاصلا بين الحياة العاطفية والحياة العائلية. إن هذه الفروق والفواصل إنما هى جزء من كل فى الحياة المتشابكة للبحر المتوسط، والتى تتميز بابتذالها المثير.

قال نسيم وهو يخفض رأسه، وقد اصطبغ وجهه بحمرة الخجل، «إننى أقترح عليك، حتى لا يكون التفاوت فى الثروة عاملا مؤثرا على قرارك، أن أقدم إليك هدية عيد ميلادك، بحيث تمكنك فى التفكير فى نفسك، كشخصية مستقلة تمام الاستقلال - أى، فى بساطة، كامرأة يا جوستين. دعينا نتحرر من ذلك النسيج الكريه الذى يزحف على أفكار كل من فى هذه المدينة، يسمم كل شىء، قبل أن نقرر أى شىء». . ووضع على المائدة صكا ماليا نحيلا أخضر اللون كتب عليه، «ثلاثة آلاف جنيه». وحملقت فيه جوستين، مندهشة، ردحا من الزمن، إلا أنها لم تمسسه. وأخيرا قال نسيم فى عجلة، وهو يتلعثم قلقا، «أرجو ألا يكون ذلك قد أثار استياءك». وقالت جوستين، «كلا، إنه مثل كل ما تفعل. ولكن ما حيلتى فى انعدام حبى لك».

«يجب، بالطبع، ألا تحاولى ذلك أبدًا».

«إذن، أى نوع من الحياة يمكن أن نحيا؟».

ونظر إليها نسيم بعينين خجلتين حارتين، ثم هبط بنظرته إلى المنضدة، كأنما يعانى تأنيبا قاسيا. وقالت جوستين بعد برهة صمت،

«أرجوك أن تخبرنى، أخبرنى يا نسيم، فأنا لا أستطيع الانتقاع بمالك وجاهك دون أن أقدم لك، فى المقابل، شيئًا».

فقال فى رقة، «إن كنت تهتمين بالمحاولة، فإن ما نحتاجه هو ألا يخدع الواحد منا الآخر. فالحياة ليست طويلة للغاية - والمرء مدين لنفسه بمحاولة أن يجد للسعادة سبلا».

وتساءلت جوستين، فجأة، وقد انتابها التقزز، رغم أن لهجته قد أثرت فيها تأثيرا عميقا، «هل كل ما تبغى هو مضاجعتى؟ إن ذلك فى مقدورك. نعم، فى مقدورك أن تفعله. أوه، يا نسيم، إننى سأفعل، من أجلك، أى شىء، أى شىء».

إلا أنه أجفل وقال، «إننى أتحدث عن التفاهم الذى تحتل فيه الصداقة والمعرفة مكان الحب، حتى يأتى هذا الحب كما آمل، ربما خلال عام، من يدرى؟ فكل الزيجات السكندرية، فى نهاية الأمر، مخاطرات تجارية. يا إلهى، أية حمقاء أنت يا جوستين ألا ترين أننا قد يحتاج الواحد منا للآخر دون أن نعى تلك الحاجة تمام الوعى؟ إنها مسألة تستحق المحاولة. ربما وقف كل شىء عقبة فى طريقنا. إلا أننى لا أستطيع التغلب على فكرة أنك المرأة التى أحتاجها، دون نساء هذه المدينة كلها، أكثر الاحتياج. هنالك عديد من نساء قد يريدهن الرجل، إلا أن ما يراد من النساء غير ما يحتاج الرجل إليه. قد أريد أخريات، لكننى أحتاج إليك أنت! أنت التى لا أجرؤ أن أقول عنها نفس الشىء. ما أقسى الحياة وما أسخفها». لم يكن أحد، من قبل، قد قال لها مثلما قال نسيم - لقد قدم لها مشاركة صممت فى هدوء بارد، نابعة عن نية نقية تمام النقاء. ولذا فإنها كان لا بد وأن تثير إعجابها من زاوية هذه الرؤية فقالت فى بطء، «إنك لست من ذاك النوع، من الرجال، الذى

يراهن بكل شيء في رمية واحدة حمراء سوداء(*). إن لدينا رجال بنوك لامعين تماما فيما يتعلق بالأمور المالية، وقد اشتهر عنهم، في ذات الوقت، قبح ضعفهم إن كان الأمر يخص النساء». ثم وضعت يدها على رسغه.

«يجب يا عزيزي أن تعرض نفسك على طبيب ليفحصك، فأي تهور ذلك الذي تقدم عليه بأخذك امرأة قالت لك إنها لن تستطيع أن تحبك أبدا؟ آه، كلا».

ولم يقل، على الإطلاق، أي شيء. كان مدركا أنها لم تكن تتوجه، حقيقة، بكلماتها إليه: كانت جزءاً من جدل داخلي طويل تجريه هي مع ذاتها. كم بدت تقاطيع وجهها النافرة جميلة - كأنما خدرتها بساطتها: إنها لم تكن تؤمن أن هنالك من يقدرها لذاتها، إن كان لها ذات. كان حقا، كما يعتقد، مقامراً وضع كل شيء في دورة عجلة القمار. كانت تقف، الآن، بالضبط، على حافة اتخاذ قرار، كالسائر في نومة فوق جرف صخري: أتستيقظ قبل أن تقفز، أم تدع الحلم يدوم إلى نهايته؟ كانت ما تزال تحس، لكونها امرأة، ضرورة أن تضع شروطا، أتسحب نفسها بعيدا إلى مزيد من الكتمان، وقد تجاوزها هذا الرجل برقته الخادعة. فقالت، «استيقظ يا نسيم». ثم هزته بلطف.

وقال في هدوء، «إنني مستيقظ».

كان المطر، في الخارج، في الميدان بنخيله التي قرضتها رياح البحر، يتساقط رذاذا. كان اليوم هو العاشر من ذي الحجة، أول أيام عيد

(*) بالفرنسية في الأصل.

الأضحى، وجماعات متناثرة من الموكب الكبير تتجمع فى أرديتها الملونة، تحمل البيارق الحريرية الكبيرة ومجامر البخور، شعائر الدين الذى يتشرفون بالانتساب إليه، وينشدون مقاطع من الذكر والأدعية: ذكر وأدعية النوبيين المنسية، والتى تعيد كل عام بعثها الكبير فى جامع النبى دانيال. كان الحشد متألقا، أرقط. بألوان بدائية. وهدهدت الدفوف الهواء، بينما جاءت، من هنا ومن هناك، عبر فترات الصمت التى كانت ترين فوق الشدو والصرخات، الثرثرة المفاجئة للطبول الطويلة، وجلودها تشد فى بطء فوق فحيح الجمرات. وأنَّت الخيول وانتفخت الأعلام بشعاراتها كالأشرعة فى أمسية ترصعها الأمطار. ومرت عربة محملة ببغايا الحى العربى وهن فى أردية ملونة (وقد تعالى زعيقهن وصراخهن حادا مجلجلا)، وشباب صبغوا أنفسهم بالألوان يغنون على صرير الصنج وخربشات الآلات الوترية. كان المنظر كله بديعا زاهى الألوان كحيوان استوائى.

وقالت جوستين فى حماقة، «نسيم، عندى شرط واحد ـ أن ننام الليلة، بتمامها، معًا». وتقلصت سحنته عند الجمجمة، وصر بأسنانه وهو يقول غاضبًا، «كان يلزم أن تكونى على قدر من الذكاء يعوضك ما افتقديه من تربية ـ أين هذا الذكاء؟».

وقالت وقد رأت عمق ما سببته له، فجأة، من ضيق، «إننى آسفة. لقد أحسست بحاجتى للسكينة والطمأنينة». وشحب وجهها شحوبا شديدا.

قال وهو يعيد الصك المالى إلى حافظته، «لقد اقترحت عليك شيئا مختلفا تمام الاختلاف. إننى ذاهل من افتقادك القدرة على الفهم والإدراك. يمكننا، بالقطع، أن ننام معـا إن كنت تبغين وضع ذلك

شرطا. لنأخذ حجرة فى فندق، هنا، الآن، فى تلك الدقيقة». كان يبدو رائعا بحق عندما تجرح أحاسيسه على هذا النحو. وفجأة اهتزت أعماقها وقد أدركت أن ما يبدو عليه من هدوء ليس ضعفا، وأن هناك حساسية ما غير عادية تكمن وراء تلك الأفكار المشوشة والكلمات المتزنة المنزوية، والتى ربما لم يكن أيًا منها خيرا فى جملته. واستمر فى حديثه برقة أكثر، «ماذا فى وسع كل منا أن يثبت للآخر بهذا النوم معا أو بعكسه: أى بعدم المضاجعة على وجه الإطلاق؟». ورأت، الآن، كيف كانت كلماتها باعثة على اليأس، بعيدة عن السياق، فقالت، «إننى، حقا، خجلة، خجلا مريرا، من طريقتى الخشنة الفظة». قالت هذا دون أن تعنى، معانى الكلمات. كان ذلك إقرارا منها وتنازلا لعالمه ولذاته، أيضا، بنفس القدر ـ عالم يتعامل مع آداب وأخلاق دمثه، ما تزال هى عاجزة عن تذوقه لما جبلت عليه من فظاظة. عالم فى وسعه أن يهذب مظاهر العواطف بالتذوق. عالم لا يمكن الانقطاع عنه، إلا إن كنت لصيقا به، وهكذا الحديث عنه أيضا! كلا، ما كانت جوستين تعنى ما قالت من كلمات، إذ رغم الفظاظة التى رددت الفكرة أصداءها، إلا أنها كانت تعرف صواب ما قالت، طبقا لبنود حدسها وفراستها، فقد كان ما اقترحته، هو فى الحقيقة، محك حيوى للنساء لمعرفة ماهية الرجل، طعم شخصيته ونكهته، لا لمعرفة صفاته التى يمكن تحليلها أو استنتاجها. لا شىء ينبئنا عن حقيقة كل منا غير ممارسة الحب الجسدى. أسفت أسفا مريرا لعدم فطنته بإنكاره عليها فرصة حقيقية كان يمكن من خلالها أن تتعرف بنفسها عما يكمن وراء وسامته وقدرته على استمالة الآخرين. ولكن كيف للمرء أن يلح فى أمر كهذا؟

قال، «حسنا، بالنسبة لزواجنا فإنه سوف يظل أمرا يتسم بالرقة، بالآداب والسلوكيات فى الأساس، حتى . . »

قالت، «إننى آسفة، فأنا لم أعرف، فى الحقيقة كيف أتعامل بشرف معك، وكيف أجنبك الشعور بالخيبة» . وقبلها، فى فمها، قبلة خفيفة وهو ينهض واقفا . «يجب أن أذهب، أولا، إلى والدتى لأحظى بموافقتها، ثم أخبر أخى - إننى سعيد للغاية، رغم أنى قد استشطت، الآن، منك غضبا» .

وخرجا معا متوجهين إلى السيارة . وأحست جوستين، فجأة، بالوهن الشديد كأنما قد حملت بعيدًا عن أعماقها، وتركت هنالك مهجورة فى قلب المحيط . «إننى لا أعرف ماذا علىّ أن أقول أكثر من ذلك» .

قال، وقد بدأت السيارة فى الابتعاد، «لا شىء . عليك أن تبدئى الحياة!» ؛ فأحست وكأنها قد صفعت على فمها، فتوجهت إلى أقرب مقهى حيث طلبت كوبا من الشيكولاته الساخنة التى شربتها بيدين مرتعشتين، ثم مشطت شعرها وزينت وجهها . كانت تعرف أن جمالها إنما هو مجرد إعلان، فاحتفظت به نضرا مترفعا . كلا، إنها، فى مكان ما فى أعماقها، امرأة حقيقية .

واتخذ نسيم المصعد إلى مكتبه، حيث جلس يكتب الكلمات التالية فوق إحدى البطاقات، «كليا العزيزة . لقد وافقت جوستين على الزواج منى . ما كنت أقدم على ذلك لو جال بخاطرى أن ذلك سوف يؤثر، بأى صورة من الصور، على حبها وحبى لك . . » .

إلا أنه فزع من فكرة، أنه مهما كان ما يكتبه لكليا فهو شىء تافه

ومقزز. فمزق البطاقة وطوى ذراعيه. ثم تناول الهاتف المصقول، بعد فترة طويلة من التأمل والتفكير، أدار القرص طالبا رقم كابود يستريا، وقال فى هدوء، «داكابو، هل تتذكر خططى للزواج من جوستين. إن كل شىء على ما يرام». ووضع السماعة فى بطء وكأنها ثقلا يزن طنا. ثم جلس يحملق فى صورته المنعكسة فى مكتبه اللامع المصقول.

* * *

(٤)

أنجز نسيم المهمة الكبرى بإقناع جوستين، وهنا أحس بثقته فى نفسه تهجره، تتركه وجها لوجه أمام إحساس جديد تمام الجدة عليه، ألا وهو الخجل الشديد والإحجام الشديد عن مواجهة أمه مباشرة ومجابهتها بما انتوى. وأصابه هذا الإحساس بالحيرة، فقد كانا، دوما، قريبين من بعضهما البعض، تربطهما مودة عميقة لا تحتاج إلى الكلمات للتعبير عنها. وهو إن انتابه الخجل أو الحرج يوما، فلم يكن ذلك أبدا فى مواجهتها، لكنه كان فى مواجهة أخيه الفظ الغليظ. ما الدافع لهذا الإحساس، الآن، وهو لا يخاف أن تستنكر أمه نيته - فقد كان يعلم أنه ما إن يفصح عن رغبته حتى توافق عليها؟ ما الذى كان يثبط عزيمته؟ لم يكن يدرى. وهو، رغم ذلك، يحس حمرة الخجل، عندما يفكر فيها الآن. وأمضى كل ذاك الصباح فى أفعال آلية مضطربة، إذ تناول رواية ثم ألقى بها جانبا، مزج شرابا ولم يشربه. بدأ يرسم إلا أنه ألقى بالفحم وخرج يسير فى حديقة المنزل الكبير، قلقا منزعج الخاطر. كان قد اتصل هاتفيا بمكتبه يخبرهم أنه منحرف الصحة، إلا أنه بدأ، بالفعل، يعانى عسر الهضم، كما يحدث له، دوما، إن قال كذبا.

سأل عن رقم المنزل الريفى القديم حيث تعيش ليلى وناروز إلا أنه

غير نيته، وسأل عامل الهاتف أن يوصله بجاراجه، حيث أخبروه أن سيارته سوف تعود عند الظهيرة وقد شحمت وتم تنظيفها. فاستلقى وقد غطى عينيه بيديه. ثم دق الجرس، يستدعى سليم سكرتيره الخاص.. ليطلب منه أن يتصل هاتفيا بأخيه يخبره أنه قادم إلى كرم أبو جيرج لتمضية عطلة نهاية الأسبوع هناك. يا للسماوات! ما الذى يمكن أن يكون سلوكا طبيعيا أكثر من هذا؟ «سوف تكون كوصيفة تمت خطبتها»، هذا ما قاله لنفسه جادا، ثم عاد يفكر للحظة، فى أن يصطحب معه من يخفف عنه وطأة هذا اللقاء - أتكون جوستين؟ كان ذلك من المحال. تناول رواية لبورسواردن وأخذ يقلبها حتى بلغ فقرة تقول: «إن الحب أشبه بحرب الخنادق - إنك لا تستطيع أن ترى العدو، لكنك تعرف أنه قابع هناك، وأنه من الحكمة أن تبقى رأسك خفيضة».

دق جرس الباب. كان سليم وقد أحضر له بعض الخطابات لتوقيعها ثم صعد إلى الطابق الثانى ليحزم حقيبته وحافظة أوراقه. كانت هنالك أوراق يلزم أخذها إلى ناروز ليراها - أوراق تتعلق بماكينة الرفع اللازمة لتجفيف الصحراء التى تتاخم مزارعهم واستصلاحها. كانت الأمور المتعلقة بالعمل هى دواءه الشافى.

كانت ثروات الحوسنانى تتوزع فى اتجاهين ينفصلان إلى مجالين من المسئولية، حيث يقع كل مجال ومسئولية على عاتق واحد من الأخوين. كان نسيم يدير المصرف الرئيسى وفروعه الثانوية على امتداد البحر المتوسط، بينما كان ناروز يعيش حياة كبار الملاك الأقباط، لا يتزحزح البتة عن كرم أبو جيرج، حيث تحد أطراف الصحراء أراضى الحوسنانى، التى راحت تأكلها بالتدريج، تنتزع منها، عاما بعد عام، أجزاء تنتشر فيها زراعات الخروب والبطيخ والغلال، وتضخ منها

الأملاح التى تفسدها وتسممها.

قال السكرتير، وقد عاد بوجهه الذى يماثل وجه الصقر، «جاءت السيارة. هل أقوم بقيادتها يا سيدى؟». هز نسيم رأسه وصرفه فى هدوء، ثم قطع الحديقة مرة أخرى، واضعا يده على ذقنه، حيث توقف إلى جوار بركة الزنابق، يتأمل الأسماك ـ لعبة الأباطرة اليابانيين غالية الثمن، وقد تواصلت منذ القدم، منذ زمن الترف والرفاهية، وهو قد استوردها بمثل هذا الثمن لتموت بالتدريج من مرض غامض مجهول ـ ربما كان الشوق والحنين إلى الوطن؟ كان بورسواردن يمضى الساعات يرقبها ـ كانت تعاونه، كما قال، على التفكير فى الفن!

ووقفت السيارة الكبيرة الفضية أمام الباب، ومفتاح الإشعال فى موضعه. دخلها وهو يفكر فى إمعان، ثم ساق فى بطء عبر المدينة، يتفحص حدائقها، ميادينها ومبانيها بعين آمنه وادعة، متباطئا عن عمد، مترددا، يحاول، بوعى منه، أن يبعد عن ذهنه فكرة وجهته ومقصده كلما حومت حوله. وما إن بلغ البحر حتى استدار عبر الكورنيش، اللامع فى ضوء الشمس، ليرقب، للحظة، البحر الناعم والسماء الخالية من الغيوم، وقد كادت السيارة أن تتوقف. فجأة غيَّر سرعة السيارة وبدأ ينطلق، بخطى أكثر تصميما، فى حزاء البحر. لقد كان يتجه إلى منزله.

ما لبث أن استدار إلى الداخل تاركا المدينة بنخيلها يطقطق فى رياح الربيع، متجها نحو شبكة الفوالق القاحلة وطبقات البرك والبحيرات التى جففت، حيث انتهى الطريق الحجرى وحلت محله تربة بنية تمتد بحزاء حواجز مستنقعات سود، تتاخمها نباتات الغاب والبوص كثيرة الأشواك، وزراعات الأذرة الصفراء البازغة فى صفوف متقاطعة. وثار

الغبار، فيما بين العجلات، ملأ هواء صالون السيارة، مغطيا كل شيء ببذرات رقيقة أشبه بحبات اللقاح. كذا تكاثف بالتدريج فوق زجاج السيارة الأمامى كطبقة من جليد، فأدار المساحتين حتى يظل الزجاج صافيا.

اتبع دروبا صغيرة متعرجة، كان يعرفها عن ظهر قلب، حتى بلغ، بعد ما يزيد عن الساعة، طرف لسان تحيط به مياه تميل إلى الزرقة، حيث ترك السيارة فى ظل بيت متداع، ربما كان بقايا مبنى جمرك قديم، أقيم زمن أن كان يجرى النقل البحرى فيما بين دمياط والخليج، وقد أخذ الآن ينضب، يوما بعد يوم، يتآكل، يتشقق تحت السماء المصرية اللافحة، وقد نسيه المسئولون عن الحفاظ عليه.

أغلق السيارة بعناية، ثم سار فى ممر ضيق عبر صفوف نبتات فول هزيلة وبطيخ غطته الأتربة، تتاخمها زراعات الأذرة الهندية بأوراقها المشرشرة الصاخبة، ليصل إلى مرسى سفن حيث كان فى انتظاره رجل المعدية بقارب متهالك. رأى الخيول تنتظره على الجانب الآخر وقد وقف ناروز، بقامته التى تبدو قصيرة، إلى جوارها. وما إن رأى نسيم حتى لوح بذراعه مرحبا مرتبكا مبتهجا. خطا نسيم إلى القارب وقد تعالت نبضات قلبه.

«ناروز». وتعانق الأخوان اللذان كانا جد مختلفين فى المظهر والبنية الجسدية، وشعور ميز نسيم تمثل فى ألم ممض صامت صادر عن إحساس بالخجل جديد عليه.

كان الأخ الأصغر أقصر، لكنه أمتن بنيانا من نسيم، يرتدى قميصا ريفيا فرنسيا أزرق اللون مفتوحا عند الرقبة، وقد ثنى أكمامه كاشفا عن ساعدين ويدين قويتين للغاية، وقد غطاهما الشعر الأسمر المجعد.

كان يتمنطق بحزام جراب خرطوش، أو طلقات، قديم إيطالى الصنع يتدلى على ردفية. سرواله تركى منتفخ بخطوط أربعة عتيقة الطراز، وقد حشيت أطرافه فى حذاء بال ناعم الجلد يصل إلى ما فوق الركبة. واندفع متحمسا مرتبكا إلى ذراعى أخيه، ثم ارتد ثانية كملاكم يتفادى قبضة. إلا أنه ما إن رفع رأسه لينظر إلى نسيم حتى أصبح فى إمكانك أن ترى، فى الحال، ذلك الشيء الذى حكم حياة ناروز كنجمة داكنة. كانت شفته العليا مشقوقة من بدايتها حتى الأنف ـ وكأنها قد تلقت لطمه مرعبة: كان أشرم الشفة، لم يتداركها أحد ويخيطها فى حينه. كانت تكشف عن سن بيضاء وتنتهى بشفرتين صغيرتين، مبتلتين على الدوام، من لحم وردى فى وسط شفته العليا. وكان شعره مجعدا داكنا، يتدلى على جبينه، كما يتدلى شعر عجلة البقر. كانت عيناه رائعتين: زرقاوين، طاهرتين، بريئتين مما جعلهما قريبتى الشبه بعين كليا: كان كل قبحه يستمد بهاءه وروعته، حقا، منهما، كان قد أطلق شاربا أشعث غير متناسق فوق شفته العليا، فبدا كمن استنبت لبلابا فوق حائط قبيح ـ إلا أن الندبة كانت تبين حيثما كان الشعر خفيفا: أما لحيته القصيرة المجدبة، فقد كانت تبدو، أيضًا، كلحية تنكرية رديئة: بدت وكأنه قد تركها، دون حلاقة، منذ أسبوع واحد. لم يكن لها شكلها الخاص، كانت تتداخل مع خطوط رقبته الشبيهة برقبة الثور وعظام وجنتيه الناتئتين. كانت له ضحكته الغريبة الخجولة التى تبدو كالفحيح، مما جعله يتجه بها دوما نحو الأرض. كانت كل حركاته مضطربة ـ فذراعاه وساقاه مقوسة، بعض الشيء، وقد كساها الشعر كالعنكبوت ـ إلا أنها تعطى انطباعا بقوة طاغية خاضعة لسيطرة قاسية. كان صوته عميقا مثيرا به شيء ما من سحر المرأة خفيضة الصوت.

كانا يحاولان كلما التقيا، أن يكون معهما، ما دام ذلك فى

وسعهما، بعض الخدم أو الأصدقاء، حتى يخفف وجودهم من خجلهما. لهذا أحضر ناروز معه وكيله «على» ليلقاه، مع الخيل، عند المعدية وأنحى الخادم العجوز مقطوع الأذنين ليأخذ قبضة تراب من الأرض، أمام قدمى نسيم، وليضغطها إلى جبينه قبل أن يمد ذراعه يصافحه. ثم شارك، على استحياء، فى العناق الذى أقدم عليه نسيم ـ باعتباره إنسانا أحبه منذ طفولته حتى الآن. وأعجبت ناروز لفتة أخيه التى اتسمت بمشاعر البساطة والرفاهية ـ فضحك فى سعادة وقد أحنى رأسه إلى الأرض.

قال نسيم: فى صوت خفيض، وهو يمر بأصابعه فوق فوديه، «وماذا عن ليلى؟». قال ناروز فى نغمة كتلك التى تنطلق من قوس مشدود لتوه، «إنها، خلال هذين الشهرين الأخيرين، فى حالة طيبة، والحمد لله».

كانت، أمهما، تمر، أحيانا، بفترات من عدم الاستقرار العقلى، تمتد أسابيع، ثم تعود، دوما، إلى الشفاء مرة أخرى. كان ذلك إقرارا بحقيقة لم تعد تثير دهشة أحد، حتى هى نفسها تعرف الآن تلك النوبة عند إقبالها، فتستعد لها. وهى، فى مثل تلك الأوقات، تقضى اليوم بطوله فى الكوخ الصغير الواقع عند نهاية حديقة الزهور، تقرأ وتكتب الخطابات المطولة لماونت أوليف الذى يقرأها بحنان بالغ حيثما كان فى اليابان أوفنلندا أو بيرو. كانت تظل وحدها ومعها حية الكوبرا، فقط، فى صحبتها حتى ينصرف تأثير العفريت أو الروح التى تحل بها. لقد دامت هذه العادة، حتى الآن، أعواما عديدة، منذ وفاة والدهما ومرضها، ولم يعد أى من الابنين يبالى بتلك التحولات عن مجرى الحياة الطبيعية فى الدار الكبيرة. قال ناروز، مرة أخرى، فى ذلك الصوت المثير، «إن ليلى فى حالة عقلية طيبة. إنها، أيضًا، سعيدة

للغاية، فماونت أوليف يرد على رسائلها. إنها تبدو أصغر عمراً».

«لقــد فهمــت».

امتطى الأخـوان جـواديهـمـا وبدآ السـير فى بطء على امتـداد شبكة الجسور والممرات التى تقودهما فوق بركة بما يحيط بها من مسطحات مزروعة. كان نسيم يحب، دوما، هذا الطريق الذى يبعث فيه طفولته الحقيقية - والتى كان تنوعها أكثر ثراء بكثير من تلك السنوات القليلة التى قضاها فى البيت فى أبى قير، والذى انتقلت إليه ليلى، مدة من الزمان، بعد وفاة والدهما. صاح نسيم، «كل مضخاتك الرافعة سوف تكون هنا فى الشهر القادم». وضحك ناروز فى سعادة. إلا أن جزءاً آخر من عقل نسيم كان ينساب إلى الوراء مباشرة، إلى الكنوز التى تعيها ذاكرة طفولته، فى هذا المكان، والتى أيقظتها تلك السدود الترابية الناعمة السوداء التى تفصل مربعات الأرض الزراعية. كانت تلك هى مصر الحقيقية - مصر القبط - بينما كانت المدينة البيضاء، كطيف عفره الغبار، ملأى بصور مزعجة لأراض غريبة عنها - لصيقة باليونان وسوريا وتونس.

كان النهار بديعا، وقوارب النقل تنساب بين حقول الفول نحو روافد النهر، بصواريها الطويلة المعقوفة كالأشواك، وقلوعها المثلثة المحنية كالأقواس الدافقة - ونوتى فى مكان ما، يغنى تصاحبه نقرات طبل، يمتزج صوته بزفرات السواقى، وطرقات صناع العربات والنجارين، فى القرية البعيدة، وهم يصنعون عجلات، كالأقراص، للعربات أو المحاريث قصيرة النصال والتى تستخدم فى حرث ضفة النهر الغرينية.

والطيور صائدة الأسماك تلمع متألقة فوق المياه الضحلة كالصواعق

بأجنحة خفيفة سريعة، بينما تطير البوم بنية اللون، هنا وهناك، بين ضفتى النهر، وقد نسيت عادات أجناسها الليلية، أو تقبع أزواجا صامتة فى عشوشها بين الأشجار. وانبسطت الحقول، على جانبى الموكب، خضراء تفوح بعطر زراعات البرسيم والفول. والطريق يتتابع راسخا على امتداد ضفة النهر، حتى إن انعكاسات صورهما كانت ترافقهما أثناء السير. وكفور، هنا وهناك، بيوتها من طوب لبنى تغطيها أسقف مسطحة لامعة من أعواد الذرة الهندية فأضفت عليها صفار لونها. كانا يمران، من حين لآخر، بصف من الجمال الهابطة، نحو المعدية، أو بقطيع من الجاموس الضخم الأسود اللون وقد دفع بمناخرة اللامعة فى المياه الناشعة الراكدة القذرة، يذب الذباب من فوق جلده بذيول ثقيلة، وقرونه الضخمة المعقوفة تبدو وكأنها تنتمى إلى لوحات، حوائط، منسية.

وأحس نسيم بدهشة وسعادة، وهو يتجه نحو أملاك الحوسنانى، فالحياة هنا تسير فى بطء شديد ـ نساء يمخضن جلود الماعز المعلقة فوق حوامل ثلاثية من عيدان الخيرزان، أو يسرن فى سرب إلى النهر يحملن جرارهن. ورجال فى أردية قطنية زرقاء يغنون عند السواقى، ونسوة تجاوزن سن الشباب وقد التفعن من قمة الرأس إلى أخمص القدم فى ملابس خفيفة سوداء متربة، كما تقتضى التقاليد والأعراف، وعليها خرزات زرقاء درءاً لعين الشر ومنعا للحسد. وهنالك كل تلك المجاملات البدائية المتبادلة بين المارة على الطريق، والتى كان يرد عليها ناروز فى صوت معبر رنان، ينتمى إلى اللغة بقدر ما ينتمى إلى المكان: كان يصيح مبتهجا «نهارك سعيد» أو «سعيدة مبارك»(*)، بينما المارة

(*) كتبت فى الأصل عربية بحروف لاتينية.

يبتسمون ويحيونهما. وعبرت بخاطر نسيم ترجمة تلك المعانى، وهو يومئ برأسه مبتسما، وقد غمرته روعة تلك التحايا العتيقة والتى لا يسمعها الإنسان أبدا إلا فى الحى العربى فى المدينة: «فليبارك الرب يومك» أو «فليبارك الرب اليوم كما بارك الأمس».

استدار وهو يقول «ناروز». فسار أخوه إلى جواره فى رقة وهو يقول: «هل رأيت سوطى». ثم ضحك، مرة أخرى، خافضا رأسه وقد بانت سنته خلال شق شفته. كان يحمل سوطا فاخرا مصنوعا من جلد فرس النهر، ملفوفا لفا غير محكم على مقدم سرج حصانه: «لقد وجدت السوط الأمثل ـ بعد سنين ثلاث. لقد أرسله لى الشيخ بدوى من أسوان. هل تعرفه؟». رفع عينيه اللامعتين الزرقاوين إلى أعلى للحظة متفرسا بفرحة طاغية فى عينى أخيه الداكنتين. ثم قال كطفل هزه الانفعال والطرب، «إنه على أى حال، أفضل من مسدس عيار ٩٩. لقد كنت أتدرب عليه تدريبا شاقا ـ أتود أن ترى؟».

أحنى رأسه دون انتظار رد على ما قال، ثم سار بجواده خببا إلى الأمام، إلى حيث كانت بعض الدجاجات تخدش الأرض العارية قرب كوخ أحد الرعاة، وجرى أحد الديكة وقد أصابه الفزع، أكثر من غيره، فانفرد به بين سنابك حصانه. توقف نسيم يرقب ما يجرى. وانطلق ذراع ناروز إلى أعلى وانفرط السوط الطويل بطيئا فى الهواء، ثم هوى فى ضربة فجائية قاسية كئيبة الصوت، كلطمة غاضبة، ثم ترجل ضاحكا يلتقط المخلوق الممزق الذى كان ما يزال يرتجف دافئا، يكاد جناحاه أن ينفصلا عن جسده، وقد تهشمت رأسه. عاد به، إلى نسيم، ظافرا، يمسح يده، دون اكتراث فى سرواله، وقال: «ما رأيك فيما فعلت؟». أمسك نسيم بالسوط الطويل فى قبضته معجبا، بينما

ألقى أخوه بالصيد الميت إلى وكيله وهو ما يزال يضحك، ثم عاد يمتطى جواده فى بطء. وسارا جنبا إلى جنب، وكأن التعويذة التى تفصل اتصالهما قد تحطمت. وأخذ نسيم يتحدث عن الماكينة الجديدة التى أمر بشرائها. واستمع إلى معركة ناروز مع الجدب والجفاف وزحف الرمال السافية. كانا ينسيان نفسيهما ويتصرفان على سجيتهما عند الحديث فى مثل تلك الموضوعات التى لا يختلفان حولها. كانت مثل تلك الموضوعات تقربهما أشد القرب. كانا كأعميين يتبادلان الحب، ولا وسيلة للتعبير عن نفسيهما إلا اللمس: أداة أيديهما.

بدت الأراضى حولهما أكثر ثراء وقد زرعت بنبات الأثل والخروب، رغم أنهما كانا يعبران هنا وهناك، بأملاك هجرها أصحابها، إما لفقرهم الشديد أو لكسلهم الشديد فى أن يجاهدوا الصحارى التى أحاطت بالشريط الخصب من جهات ثلاث. كانت المنازل المتداعية خربة مهجورة، تغطيها النباتات، تحملق فى الماء بنوافذ خلت من أطرها وأبواب تحطمت وتكسرت. كانت بوابات مداخلها تكاد تخنقها نباتات الجهنمية، صدئة تفتح على حدائق ذات جمال برى أشعث، حيث النافورات الرخامية والتماثيل النخرة ما زالت شاهدة على مجد كان عندما بارحها أهلها. كان فى وسع المرء أن يرى الأراضى على جانبى الطريق، بأشجارها الباسقة من النخيل والسنط والجميز، التى تقوم على حماية الحياة، المحفوفة بالمخاطر، والتى ستفنى إن لم يتوفر لها الظل والماء، فتعود إلى الصحراء، التى يحس بها المرء حقا وإن لم يكن فى مقدوره رؤيتها - صحراء بلا مذاق كرقائق هشة.

هنا جزيرة قديمة بها قصر غدا أنقاضا، وممرات وقنوات مائية

متعرجة حيث تعمل بها مراكب نهرية، نحيلة، أشبه بالطيور، تنقل حمولات «التبن»(*). إنهما يقتربان الآن من القرية. وجسر ينهض عاليا، فوق الضفاف الطينية، تتوجه أيكة من نخيل، وفى القرب منه صف من قوارب ملونة فى انتظار رفع السلسلة. هنا، من هذا الارتفاع، يمكن أن يلمح المرء للحظة أفق الصحراء الأزرق الغائم الساحر يرقد خلف هذا الشريط الذى يختزن قدرًا كبيرًا من الماء والنبت الأخضر.

كان فى انتظارهما، عند أحد المنعطفات، جمع من القرويين، هللوا صائحين، «شرفتم القرية» و«حلت البركات». وساروا إلى جانبهما، وهما يبتسمان. وتقدم البعض من الأعيان يمسكون باليد يقبلونها، بل وحتى لثم البعض ركاب سرج نسيم. وهكذا عبرا القرية التى تطل على بقع من مياه زمردية، تشرف عليها مآذن رشيقة أشبه بثمرة التين، القباب المبهرة العنقودية الأشبه بخلايا النحل التى تتميز بها كنائس الأجداد القبطية. واستدار الطريق من هنا، مرة أخرى، ليمر عبر الحقول إلى الدار الكبيرة التى خضب الطقس جدرانها الخارجية، فتداعت وتحطمت أجزاء كثيرة منها بفعل الرطوبة، وغطت أجزاء أخرى نقوش رسمها المتطيرون رقية تبعد «العفاريت»(*) - تمائم سوداء خطية أو عبارة «بسم الله ما شاء الله»(*). لقد أقام سكان الدار، إرضاء للقرويين الأتقياء، طواحين هواء خشبية صغيرة، عند أركان الجدار، على هيئة رجال بأذرع دوارة، حتى تفزع «العفاريت»(*)، وتدفعها بعيدًا. كان هذا هو منزلهما فى ضيعة أبو جيرج.

كان أمين، ناظر العزبة فى انتظارهما عند البوابة الخارجية،

(*) فى الأصل عربية بحروف لاتينية.

يستقبلهما فى صوت عميق بتلك التحايا إلى تتطلبها التقاليد والعادات، وقد أحاطت به مجموعة من الصبية الخجولين ليمسكوا بالجوادين ويعاونوا راكبيهما على الترجل.

كانت البوابة الكبيرة لباحة الدار، بمساميرها المكبوسة وألواحها المنقوشة، مفتوحة المصاريع، حتى يستطيعوا الدخول مباشرة إلى الفناء حيث بنى المنزل ذاته من طابقين ـ الطابق الأول هو المضيفة التى تطل من الجانبين على أقواس ذات قباب، وباحة بها صوامع الغلال، وغرف الاستقبال، والمخازن والإسطبلات. لم يتخط نسيم العتبة قبل أن ينظر بإمعان، مرة أخرى إلى النقوش الشاحبة، والتى ما تزال مرئية تزين الجانب الأيمن من الداخل ـ تصور، فى تسلسل، أقرب للكتابات الهيروغليفية، رحلته المقدسة إلى نهر الأردن للاستحمام فيه: حصان وسيارة وسفينة وطائرة، كلها رسمت بطريقة فظة فجة. وتمتم بعض المقاطع الدالة على الورع والتقوى، فتبسمت مجموعة الخدم الصغيرة فى رضا، وقد أدركوا، من هذا التصرف، أن إقامته الطويلة فى المدينة لم تنسه طرائق الحياة فى القرية. لم يكن ينسى فعل ذلك البتة. كان أشبه بامرئ يبرز جواز سفره. وأحس ناروز، أيضًا، بالامتنان لما تعبر عنه هذه اللفتة من لياقة وكياسة ـ فهى لم تحبب أخيه لخدم المنزل فقط، بل عززت، أيضًا، مكانته كالسيد الآمر الناهى.

وكانت هنالك على الجانب الآخر من المدخل مجموعة أخرى من الرسوم تبين أن الأخ الأصغر قد قام، أيضًا، بنفس الحج المقدس والذى هو واجب محتم على كل قبطى متمسك بأهداب الدين ومبادئه.

وانتصب على كل جانب من جانبى البوابة الرئيسية برج حمام أشبه بعمود قبيح المنظر مبنى من قوارير فخارية ألصقت بالطين، ببعضها

البعض، كيفما اتفق. وتميز تلك الأبراج بيوت القرى المصرية، حيث تمد مائدة كبير ملاك الناحية بأفضل أطباق الطعام وأشهاها. وكانت سحابة من حمام ترفرف وتهدل طوال اليوم فوق صحن الدار بأقبيته التى تشبه البراميل. النشاط هنا متصل لا يتوقف: الحارس الليلى الزنجى، «الخفراء»(*)، الوكلاء والخولية وقد توالوا واحدا بعد الآخر، يحيون الأخ الوارث الأكبر. وقدمت له طاسة نبيذ وباقة ورد بينما وقف ناروز مبتسما فى فخار.

سارا معا بخطى أشبه بالمراسم عبر الإيوان بنوافذه الزجاجية عديدة الألوان وقد انعكست عليهما، فأظهرتهما للحظة كمهرجين. وخرجا من الإيوان إلى حديقة الزهور بتعريشتها الشعثاء وممراتها المتعرجة التى تقود إلى المنزل الصيفى الصغير، حيث جلست ليلى تقرأ سافرة دون حجاب. ونادى ناروز باسمها ينبهها، وقد اقتربا، ثم أضاف قائلا: «خمنى، من جاء معى؟»، وللحال أسرعت المرأة تعيد وضع خمارها ملتفتة، بعينيها الداكنتين الحكيمتين، نحو الباب الذى أضاءته أشعة الشمس، وهى تقول: «إن الصبى لم يحضر اللبن، مرة أخرى. إننى أود أن تخبره بذلك يا ناروز. إنه لا عقل له. إن الحية يجب أن تطعم باستمرار وإلا انحرف مزاجها». ثم تعثر صوتها وهبط، كطائر حاد عن مساره فى قلب الهواء، وانخفض إلى نغمة ثرية بالعذوبة، أقرب إلى شهقة النحيب، وهى تنطق اسم «نسيم». وكررت الاسم مرتين وهما يتعانقان برقة مرتعشة أثارت ضحك ناروز، وهو يبتلع ريقه متذوقا فرحة أخيه بحب ليلى، ومرارته هو لإدراكه أن نسيم هو ابنها الأثير لديها - ابنها الجميل. لم يحس الغيرة نحو نسيم، أحس بالاكتئاب،

(*) كتبت فى الأصل عربية بحروف لاتينية.

فقط، لتلك النغمة العذبة فى صوت أمه ـ نغمة لم تستعملها قط وهى تتحدث إليه ـ لقد كانت دوما هكذا.

قال: «سوف أتحدث مع الصبى»، وتلفت حوله باحثا عن آثار الحية. إن المصريين يعتبرون الحية ضيفا يحمل اليمن إلى المنزل الذى تقبل عليه فلا يقتلونها حتى لا يحل بهم سوء الطالع. وما كانت تكتمل مناجاة ليلى الطويلة لنفسها، فى المنزل الصيفى الصغير، دون هذه الكوبرا الكسول والتى تعلمت كيف تشرب اللبن من طبق كما تفعل القطط.

جلسا معا، وما زالت أيديهما متشابكة، وبدأ نسيم الحديث فى أمور سياسية، بينما تلك العينان الذكيتان الشابتان تنظران بثبات فى عينيه. كانت ليلى تومئ برأسها بشدة وتصميم، ما بين الحين والحين، بينما الابن الأصغر يرقب كليهما فى نهم وإعجاب بالطريقة الموجزة التى يلخص بها نسيم أفكاره ويعبر عنها ـ نتيجة ممارسته الطويلة للحياة العامة. وأحس ناروز بهذه الاستخلاصات تقع على أذنه ثقيلة الفهم، مشحونة بمعان ليس فى وسعه أن يخمن أكثر من نصفها. ورغم إدراكه أنها تعنيه بقدر ما تعنى أى أمرئ، فإنها بدت له وكأنها تنتمى إلى عالم ما نادر الوجود، يقطنه السفسطائيون وعلماء الرياضيات ـ كائنات يمكن أن تصيغ وتعرب على أشواقه المبهمة، ورغباته المشوشة، التى يحسها تتشكل فى أعماقه كلما ذكرت مصر أو أملاك الأسرة. وجلس إلى جوارهما يستمع، يمص مفصل سبابته، ينظر إلى أمه ثم يعاود النظر إلى نسيم.

وأنهى نسيم حديثه قائلاً: «إن ما ونت أوليف فى طريقه، الآن، إلى العودة. ولسوف يكون ما نحاول فعله، مفهوما لأول مرة. سيساعدنا، بالقطع، إن كان ذلك ممكنا. إنه يدرك ما نفعل».

كـان لذكـر اسـم مـاونت أوليف وقع مـزدوج. فـقـد أرخت المرأة عينيها، ناظرة في يديها البيضاوين الراقدتين أمامها فوق خطاب لم ينته غير نصفه ـ كانت عيناها مكحلتين ببراعة فائقة حتى إنه كان من العسير أن يتبين المرء فيهما دموعا. ومع ذلك لم تكن هنالك أية دموع. كانتا تتلألآن بالمودة. أكانت تفكر في تلك الخطابات الطويلة التي كتبتها بكل الوفاء والإخلاص خلال فترة انفصالهما على امتدادها؟ وأحس ناروز، فجأة بالغيرة، تثير كوامن نفسه، عند ذكر الاسم، الذي كان أشبه بحجر مقبرة دفنت تحته ذكريات مرحلة مختلفة، فأخفاها ـ مرحلة سكرتير المفوضية الشاب الذي. . أمه (لم يتقبل، ذهنيا البتة، أن يستخدم كلمة «أحبته». كان يترك في أفكاره، في مكانها، فراغا حيث كان يتوجب أن تكون)، وكذا ذكريات عن الزوج المريض في كرسيه المتحرك، يراقب ما يجري دون شكاية. كانت روح ناروز تنتفض، مع مشاعر أبيه، كلما ذكر اسم ماونت أوليف، كلحن موسيقي. كان، الآن، يزدرد ريقه، يتحرك قلقا، وهو يراقب أمه تطوي، مرتجفة، رسالة تم وضعها في غلافها. وسألت الأم نسيم. «هل في وسعنا أن نثق به؟» ـ كان لا بد وأن تلطمه على فمه إن أجاب بـ «لا». كان كل ما تبتغيه أن تسمعه ينطق الاسم مرة أخرى. كان سؤالها مجرد استنفار له، لا أكثر ولا أقل. فقبل يدها، وناروز يبدي اللهفة والإعجاب بالجو الذي يشيع من ابتسامته التي تشبه ابتسامة رجال البلاط وهو يجيب «إن لم يكن هو موضع ثقتنا، فمن يكون إذن؟».

كانت ليلي، وهي صبية، جميلة وغنية أيضًا. كانت ابنة سيدة ذات اهتمامات أدبية، ثقافية، تربت في دير للراهبات، مغرقة في علاقاتها بالمجتمع. كانت من أوائل القبطيات اللائي هجرن الحجاب، وبدأت في دراسة الطب على غير إرادة والديها. إلا أن الزيجة المبكرة من رجل

أسن منها بكثير، وضعت حدا لكل تلك السباحات فى عالم الآفاق الواسعة، حيث كان يمكن لقدراتها أن تمنحها موطئ قدم. كان مزاج الحياة المصرية، أيضًا، معاديا لحرية النساء، فتنازلتِ عن مستقبل تسلكه لحساب زوج أعجبت به أشد الإعجاب، ولحياة القرية التى تسير على وتيرة واحدة. إلا أنه، على نحو ما، كانت تكمن تحت كل ذلك نار مشتعلة. لقد حافظت على اهتماماتها وعلاقاتها بأصدقائها، وزارت أوروبا كل بضع سنوات، واشتركت فى دوريات تصدر بلغات أربع. كان عقلها قد تشكل على الانفراد والوحدة وأثرى بكتب ما كان فى مقدورها أن تناقش محتواها إلا فى خطابات لأصدقاء يقطنون أماكن نائية، كتب ما كان فى وسعها أن تقرأها إلا فى خلوة الحريم. ثم جاء مقدم ماونت أوليف ووفاة زوجها. ووقفت تتنفس فى حرية على شفا عالم جديد، وليس هنالك من حمل على عاتقها غير ولديها النامين. وظلت لعام مترددة ما بين اتخاذ لندن أو باريس مستقرا أساسيًا لها. إلا أنها خلال تلك الفترة، فقدت كل شىء، إذ فجأة عاث الجدرى فى جمالها، الذى لم يكن له حتى ذلك الحين اعتبار خاص لديها، شأنها فى ذلك شأن كل الجميلات، فأذاب تلك الملامح المحببة، وترك لها، فقط، عينيها الرائعتين، كعينى كاهنة مصرية، وغدا الخمار الأسود البشع، الذى طالما نظرت إليه كرمز للرق والعبودية، ملاذها الذى يمكن أن تخفى وراءه أطلال جمال اعتبر خارقا فى صباها. ولم تعد لديها الشجاعة على ارتياد عواصم أوروبا تعرض هذا الوجه الجديد الذى ذابت ملامحه، أو أن تواجه مواساة الأصدقاء الذين يتذكرونها كما كانت يوما ما. وقررت، فى إيجاز، وقد استدارت على عقبيها، أن تبقى فى أملاك العائلة، وتنهى حياتها فى عزلة بالقدر الذى يمكن أن يسمح به لها. ولم يعد أمامها، الآن، من مخرج غير كتابة الخطابات

والقراءة ـ ولم يعد هنالك من تعتنى به غير ولديها. وكان على القلق الذى ينتاب عواطفها أن يجرى عبر هذا المجال الضيق المحدود. كان عليها أن تتحكم فى عالم كامل من العلاقات، واتخذت قرارها كما يفعل الرجال. وواجهت سوء الصحة والوحدة والضجر والملل، وتغلبت عليها واحدا بعد الآخر ـ وأصبحت تعيش هنا معتزلة كإمبراطورة خلعت عن عرشها، تطعم حيتها، وتكتب خطابات، بلا نهاية، عامرة بالبهجة وتوهج حياة تقبع الآن خلف قناع الحجاب، والتى يمكن أن تطل، فقط، عبر تلك العينين اللتين ما زالتا داكنتين تشعان شبابا.

لم تعد تُرى، الآن البتة فى المجتمع. غدت شيئا أسطوريا بين هؤلاء الذين يتذكرونها فى ماضيها، هؤلاء الذين لقبوها، ذات مرة بـ «عصفور الجنة الأسمر». إنها تجلس، الآن، طوال اليوم، إلى منضدة من خشب الصنوبر، تكتب تلك المخطوطات الطويلة التى تتسم بإمعان الفكر، وهى تغمس ريشتها فى دواة ذهبية، فقد غدت خطاباتها هى حياتها ذاتها، كانت قد بدأت تعانى من ذلك الشعور الغريب بتشوه الحقيقة، والذى ينتاب الكتاب عندما يتناولون شخصيات حقيقية. كان عليها، مثلا، خلال السنوات التى كانت تخاطب فيها ماونت أوليف كتابة، أن تعيد اكتشافه، حتى غدت الشخصية التى يعيشها الآن، بالنسبة إليها، لا تتماثل كثيراً والإنسان الحقيقى. إنها، فقط، شخصية بزغت من خيالها هى. إنها حتى كادت أن تنسى الهيئة التى كان عليها، وماذا تتوقع من تأثير وجوده المادى عليها. وعندما وصلت برقيته التى تقول بتوقعه الحضور إلى مصر، مرة أخرى، فى غضون أشهر قليلة، لم تحس، فى البداية، بأى شىء. أحست فقط بالحنق لما سيسببه إقحام نفسه جسديًا على الصورة التى صاغها خيالها، وتمتمت بغضب، فى

البداية، «لن أراه»، ثم أخذت تنتفض مغطية وجهها الذى عاث فيه المرض.

أخيراً قال نسيم، وقد انتقل حبل الحديث إليه: «إن ماونت أوليف سوف يرغب فى رؤيتك - متى يمكننى إحضاره؟ إن المفوضية سوف تنتقل قريبا إلى المساكن الصيفية، وبذا فإنه سيتواجد طوال الوقت بالإسكندرية».

قالت وهى تحس بالغضب يتململ، مرة أخرى، فى جوانحها لاقتحام هذا المحبوب الذى ابتدعه خيالها، «يجب أن ينتظر حتى أكون على استعداد للقائه بعد كل تلك السنين». ثم سألت بلهفة قوية تثير الشفقة، «هل تقدم به العمر؟ هل خط المشيب شعره؟ هل ساقه على ما يرام؟ أيستطيع السير؟ تلك الوقعة بسبب الانزلاق على الجليد فى النمسا..».

واستمع ناروز إلى كل ذلك برأس منتصبه وقلب مثقل بالهم، فقد كان فى وسعه أن يتابع مشاعرها، عبر صوتها، كما يتابع المرء خطا موسيقيا.

قال نسيم: «إنه أصبى من أى وقت مضى، فالعمر لم يتقدم به يوما واحداً». ولدهشته أمسكت بيده ووضعتها على وجنتها وهى تقول فى صوت منكسر، «أوه - إنك فظيع، كلاكما كذلك، اذهبا. اتركانى الآن وحدى، فلدى خطابات يجب أن أكتبها».

لم تعد تسمح بوجود مرايا فى الحريم، منذ مرضها الذى حرمها من إجلالها لذاتها، إلا أنها احتفظت بمرآة جيب ذات خلفية ذهبية كانت تستخدمها سرا فى تزجيج عينيها، كنزها المتبقى لها، وتجرى مختلف

أنواع التجميل عليها، وتجريب مختلف النظرات التى تناسب مختلف التعبيرات، محاولة أن تعطى لما تبقى من نظراتها مفردات لها مغزاها وشمولها شمول عقلها المتوثب. إنها أشبه برجل أصابه العمى فجأة، فأخذ يتعلم الكتابة باستخدام العضو الوحيد الذى تبقى له ألا وهو يديه.

وسار الرجلان عائدين إلى البيت القديم بحجراته الرطبة المتربة وقد علقت على جدرانها سجاجيد عتيقة وحصر مزركشة، كما ازدحمت بأثاث عملاق، كجثث الذبائح، قديم الطراز ـ نوع من ذلك الطراز العثمانى الذى يراه المرء فى البيوت المصرية العتيقة. وأحس نسيم، أن خيوط قلبه تشدها ذكرى قبح ذلك الأثاث، وطرازه القديم الذى ينتمى إلى الإمبراطورية الثانية، والأسلوب الرتيب الدؤوب لصيانته والحفاظ عليه. كان المشرف على المنزل قد أوقف كل الساعات، طبقا للعرف السائد، والذى عبر عنه ناروز بقوله: «إن إقامتك معنا قصيرة للغاية. علينا ألا ندع شيئًا يذكرنا بفرار الساعات. لقد خلق الله الأبدية. دعنا نفلت كلية من طغيان الزمن واستبداده». وملأت تلك الدماثة العريقة الموروثة نسيم بالعواطف. وبدت له المرافق الصحية ـ حيث لم يكن هنالك حمامات ـ متسقة، على نحو ما مع كنه الأشياء، رغم أنه كان يحب الماء الساخن. كان ناروز ينام عاريا صيفا وشتاء. كان يغتسل فى الباحة حيث يلقى أحد الخدم بالماء فوقه من إبريق فخارى. وكان عادة ما يرتدى، وهو داخل المنزل، عباءة زرقاء قديمة وخفا تركيًا. ويدخن من نرجيلة طويلة كماسورة بندقية عتيقة الطراز.

وجلس ناروز، بينما أخوه الأكبر، يفرغ ملابسه على حافة السرير، يدرس الأوراق التى ملأت حقيبة، مستغرقا يقرأ فى صمت. كانت

الأوراق خاصة بالماكينة التى ستمكنه، كما اقترح هو، أن يحافظ على الأرض بل ويمد حربه فى مواجهة الرمال الميتة. كان فى وسعه أن يرى، بعين خياله، جيشا من الأشجار والشجيرات تسير قدما إلى الأمام فى هذا الخلاء - الخروب والزيتون، العنب والعناب، الفستق، المشمش والخوخ، وقد انتشرت حولها ألوان الخضرة فى سرعة، فى تلك المناطق الترابية الخالية، والتى تغص بملح البحر. كان يتمعن صور المعدات فى الكراسات اللامعة التى أحضرها له نسيم، بما يقارب الشبق، وأخذ يتحسسها بأصبعه فى ود ومحبة. كان يسمع بخياله صوت امتصاص المياه الحلوة وكبسها فى المضخات وهى تزيل، بالتدريج، تلك الأملاح الميتة من الأرض، وتعجل تغذية جذور أشجاره الظامئة إلى رشفة ماء، جبل مريوط وأبو صير - وحلق خياله، كعصفور الجنة، إلى صحراء النطرون ذاتها - ليدحرها جميعا فى عقله.

قال ناروز: «هلا ركبت معى غدا، بمناسبة ذكر الصحراء، إلى خيام أبو قار؟ لقد وعدونى بحصان عربى، أود أن أروضه بنفسى. ستكون نزهة ممتعة». وأسعدت الفكرة نسيم فقال فى الحال «نعم». وقال ناروز: «علينا أن نبدأ مبكرا. يمكننا أن نمر عبر زراعات الزيتون لترى بنفسك أى تقدم قد أحرزنا. هل سنفعل؟ أرجو أن تفعل». ثم ضغط على ذراعه، «إننا منذ بدأنا استخدام الشملالى التونسية، ولم تقع لدينا إصابة واحدة. أوه يا نسيم! إننى أود أن تبقى هنا معنا، فمكانك هنا».

كان نسيم، كالعادة، يتمنى نفس الأمنية. تناولا، فى تلك الليلة، عشاءهما على الطريقة القديمة - والتى تختلف تمام الاختلاف عن الرفاهية السفيهة التى تتسم بها الحياة المظهرية فى الإسكندرية - لقد تناول كل منهما فوطة من فوق منضدة وتوجه إلى الفناء حيث مراسم

الاغتسال التى تسبق وجبة الطعام فى القرية. صب خادمان لهما الماء، بينما وقفا كلاهما إلى جوار بعضهما البعض. غسلا أصابعهما بصابون أصفر اللون ثم شطفاها بماء زهر البرتقال. وتوجها إلى المائدة حيث لم تكن هنالك من أدواتها غير ملعقة خشبية لكل واحد منهما ليتناول بها الحساء - وأخذ كلا منهما فى تقطيع رغيف القرية، الرقيق المفلطح، ليغمس أجزاءه فى أطباق اللحم المطهى. كانت ليلى تتناول، دوما، عشاءها بمفردها فى جناح النساء. وقد أوت إلى فراشها مبكرة، فتناول الأخوان طعامهما بمفردهما. كانا يأكلان على مهل مع وقفات طويلة بين ألوان الطعام. ولعب ناروز دور المضيف، واضعا أفضل القطع أمام نسيم فى طبقه، مفسخا الدجاجة والديك الرومى بأصابعه القوية كمضيف مضياف لضيفه. وأخيراً، بعد أن قدمت الحلوى والفاكهة، عادا، من جديد، إلى حيث كان الخادمان واقفين، وغسلا أيديهما مرة أخرى.

أخليت المائدة، فى تلك الأثناء، من الأطباق، وأعيدت إلى موضعها لتفسح مكانا للأرائك عتيقة الطراز وهى تنقل من الحجرة إلى الشرفة. رصت عدة التدخين، نرجيلتان طويلتا الأنبوب وتبغ ناروز المفضل وطبق حلوى فضى. جلسا، هنا معا، مدة من الزمن، يرشفان القهوة صامتين. كان نسيم قد خلع خفه، وثنى ساقيه أسفله: جلس واضعًا ذقنه فى يده، يفكر كيف يفضى بأخباره، بالزواج الناتئ، كحلمة ثدى، فوق ذبابة عقله، وعما إذا كان ضروريًا أن يكون صريحا فى عرض دوافعه لاختيار زوجة هى امرأة على غير دينه. كان الليل حارا ساكنا، وشذى زهور المغنوليا تحمله، إلى الشرفة، دفعات وجرعات قليلة من هواء كان يجعل شعلات الشموع تخفق وتتراقص. كان التردد فى اتخاذ قرار ينهش أعماقه.

كان كل وعد باللهو والتسلية، فى ظل مزاج كهذا، يقدم إليه الراحة والسلوى، فأسعده أن يقترح ناروز استدعاء مغنى القرية ليعزف لهما، وهى عادة كثيراً ما استمتعا بها فى شبابهما. لم يكن هنالك شىء أكثر مناسبة لهذا الصمت الثقيل، لأمسية مصرية، من كمان تشدو بأنغام تباريح وديعة. وصفق ناروز بيديه، مرسلا يستعجل المغنى، فجاء الرجل العجوز من جناح الخدم، حيث كان يتعشى كل مساء من فضل هذا البيت، يسير فى خطى وئيدة مستكينة تفرضها الشيخوخة المتقدمة والعمى الوشيك. كانت آلته الموسيقية ربابة: مكونها الصوتى نصف جوزة هندية. وقفز ناروز وأجلسه فوق وسادة عند نهاية الشرفة. سمع وقع أقدام فى الباحة، وصوت مألوف هو صوت المدرس العجوز، محمد شباب، الذى صعد الدرج مبتسما بوجهه المتغضن، ليقبض على يد ناروز مسلما. كان له وجه قرد مشعر مشرق، يرتدى، كالمعتاد، بذة غامقة شديدة النظافة، وقد وضع وردة فى عروة سترته. كان أنيق الملبس، يحب الانغماس فى اللذات، وكانت تلك الزيارات إلى المنزل الكبير هى تسليته الوحيدة. كان يعيش الجزء الأكبر من العام مدفونا فى أعماق الدلتا، وكان قد أحضر معه فم نارجيلته العتيق الثمين والذى كان يمتلكه منذ حوالى ربع قرن من الزمان. ابتهج لسماعه شيئًا من الموسيقى، وأصغى منفعلا، إلى القصائد الفطرية التى كان يغنيها الرجل العجوز - أغان عن حياة العرب، تفيض بشجن الصحراء الموحشة. كان الصوت العجوز يتساقط هنا وهناك، يرتفع ثم يهبط فوق الليل، يسير على نمط الأغانى العذبة المرتعشة، كأنما يتابع المسالك العتيقة لأفكار وأحاسيس كادت تمحوها الأيام. كانت الربابة الصغيرة تبث شكاواها، تعود بالأيام إلى الطفولة. وانطلق المغنى، فجأة، يشدو بأغنية الحج العاطفية، والتى تعبر عن شوق المسلم الرائع لمكة وهيامه

حبا بالنبى - ورفرف اللحن العذب خفاقا فى قلب الأخوين، كطائر حبيس يضرب بجناحيه. وأخذ ناروز، رغم كونه قبطيا، يكرر فى نشوة «الله، الله»(*).

وأخيراً صاح نسيم: «كفى، يكفى هذا. إذ لو كان علينا أن نستيقظ مبكرا، فعلينا أن ننام مبكراً. ألا ترى ذلك؟».

قفز ناروز، أيضًا، وهو ما يزال يمثل دور المضيف. ونادى يأمر بالماء وإشعال الضوء، وسار أمامه إلى غرفة الضيوف. وانتظر، هناك، حتى اغتسل نسيم وخلع ملابسه وتسلق السرير قديم الطراز وهو يئز تحته، ثم حياه تحية المساء. وقال نسيم: مندفعا، وقد وقف ناروز عند مدخل الغرفة، «ناروز، لدى ما أود قوله لك». إلا أنه أضاف وقد غلبه حياؤه، «لكنه يمكن أن ينتظر حتى الصباح - سنكون وحدنا. أليس كذلك؟». وأومأ ناروز برأسه مبتسما، «إن الصحراء عذاب للخدم، لهذا أعيدهم دوما عندما نبلغ حافتها».

قال نسيم، «حسنا». كان يعرف، جيداً، إيمان المصريين بأن الصحراء خلاء تقطنه أرواح العفاريت وضيوف إبليس - شيطان المسلمين - غريبو الأشكال.

نام نسيم واستيقظ ليجد أخاه فى كامل ردائه واقفا إلى جوار السرير يحمل له القهوة والسجائر قال: «لقد حان الوقت - أعتقد أنك تنام فى الإسكندرية حتى ساعة متأخرة..».

قال نسيم: «كلا. إننى عادة، وتلك مسألة غريبة حقا، ما أكون فى مكتبى فى الثامنة».

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

فقال ناروز معابثا : «الثامنة! أوه يا أخى المسكين». وأخذ يعاونه على ارتداء ملابسه.

كان الجوادان فى الانتظار فامتطياهما وسارا فى فجر يغلفه ضباب كثيف مائل إلى الزرقة يتصاعد من البحيرة. كان الهواء منعشا وإن كان يميل إلى البرودة القارصة، إلا أن الشمس كانت قد بدأت تغمس فى الهواء العلوى أشعتها فتجفف الندى من مئذنة الجامع.

تقدم ناروز عبر الدروب الملتوية على امتداد طرق الخيل والمشاة المتعرجة، وعبر السدود الترابية، دون أن يخطئ أو ينحرف، حيث كانت الأرض كلها مرسومة فى عقله كخريطة دقيقة التفاصيل صنعة أستاذ فى رسم الخرائط. كان يحملها، دوما، فى رأسه كخطة حربية، عارفا عمر كل شجرة، وطاقة كل بئر ماء وكل جرف رملى بوصة بوصة. تلك الأمور تمتلك تفكيره وتسيطر عليه.

دارا فى بطء حول الأراضى الزراعية الشاسعة، وهما يقيّمان ما أُحرز من تقدم، ويناقشان خطط هجمتهما التالية بعد تركيب الماكينة الجديدة. قال ناروز، عندما بلغا بقعة منعزلة قرب النهر يحجبها الغاب والبوص من كل ناحية، «انتظر ثانية» ثم ترجل وهو يخلع جراب الصيد الجلدى القديم عن كتفيه، قال، وهو يبتسم فى حياء: «لدى هنا ما أخفيه». راقبه نسيم، فى تكاسل، وهو يقلب جراب الصيد ليلقى بمحتوياته فى مياه النهر الباردة، إلا أنه لم يكن مهيأ لرؤية رأس آدمى ضامر متقلص، أحول العينين إلى الداخل، وقد انفرجت شفتاه عن أسنان صفراء، يتدحرج من الجراب ليغطس فى بطء، يغيب عن الأنظار فى المياه الخضراء العميقة، أسفلهما. وتساءل نسيم: «ما هذا بحق الشيطان؟» وأجاب ناروز وهو يضحك ضحكته المكتومة القصيرة

كالفحيح ناظرا إلى الأرض، «إنه عبد القادر. وتلك رأسه»، ثم ركع يغسل الجراب، يدفعه بعنف إلى الأمام وإلى الخلف، يقلب داخله إلى خارجه، كما يقلب المرء كم ردائه، ثم عاد إلى الحصان. كان نسيم يفكر فى عمق عندما قال: «إذن فقد كان عليك أن تفعلها فى النهاية، لقد كنت أخشى ذلك».

واستدار ناروز إلى أخيه بعينيه اللامعتين لحظة، ثم قال جادا: «إن مزيدا من المتاعب مع العمال البدو سوف تكلفنا ألف شجرة فى العام القادم. كان القبول بذلك مخاطرة كبرى، ثم إنه بالاضافة، كان ينتوى تسميمى».

ولم يقل المزيد. سارا حتى بلغا أطراف الزراعة وقد خفت وتضاءلت - حيث خط المواجهة الأمامى وحيث كانت المعركة قد بدأت بالفعل - خط حدود مشرشر غير مستو أشبه بفتحة الجراح. وقد ظهر على طول امتداده رشح الأرض الزراعية على جانب والمجارى الصحراوية الجافة على الجانب الآخر، وقد حُمل كلاهما بالأملاح العطنة التى سممت الأرض وصيرتها بلقعا، صورة ناطقة للخراب.

هنا كان ينمو، فقط نبات الغاب والبوص والحلفاء العملاق فى دغلات شوكية متناثرة لم يكن فى إمكان الأسماك أن تعيش فى تلك المياه الضاربة إلى الملوحة، أما الطيور فقد أعرضت عنها. كانت ترقد مستوحشة فى النطاق الراكد لهوائها الكريه الرائحة، تحيق بها الأرواح الشريرة، صامتة صمتا مطبقا - النقطة التى تلتقى فيها الصحراء بالأرض المزروعة فى عناق الموت. وسارا فيما بين نبات الحلفاء الباسق الطول بسيقانه المائلة إلى البياض وقد غطتها قشرة من الملح تلمع فى ضوء الشمس. كان الجوادان يشهقان ويخبان فى المياه الميتة التى كانت تتناثر

عليهما، متبلورة، حيثما تسقط، فى بقع ملحية. كانت برك الوحل اللزج مغطاة بقشرة من ملح تتكسر تحت سنابك الجوادين وهى تغوص فيها، مطلقة روائح بشعة من هذا الطين الأسود أسفلهما، وأسراب فجائية من ذباب صغير وبعوض لاذع قارص. إلا أن ناروز بدا مهتما. كانت عيناه تبرقان. كان قد استزرع، بالفعل، فى خياله تلك الأرض البور بالخروب والشجيرات الخضراء - كان قد تخيل هزيمتها وانتصاره عليها. وأمسك كلاهما أنفاسه، دون حديث، وهما يجتازان الحاجز الأخير الوبيل وقد أخلى مكانه لبقع من التربة الطويلة الامتداد أشبه بمومياء تجعد جلدها. وبلغا فى النهاية، طرف الصحراء، فتوقفا فى الظل بينما راح ناروز يبحث فى جيوب ملابسه عن أصبع الطباشير الصغير الأزرق الذى يستخدم فى علامات لعبة البلياردو. ثم حكا قليلا من الطباشير أسفل جفنيهما واضعين أصابعهما فى مواجهة وهج الشمس، كما كان يفعلان، دوما، وهما طفلان. وعقد كل منهما قطعة قماش حول رأسه على الطريقة البدوية.

بدأت أولى هبات نسيم صحراوى نقى، والمكان على اتساعه، صاف كنظرية رياضية، ممتد بعيداً حتى السماء، والصحراء غارقة فى صمتها وجلالها، خالية إلا مما اخترعه خيال الإنسان، ليعمر هذه المساحات البرية التى لا تتسق وأهواءه ويثير نقاؤها عقله.

أطلق ناروز صرخة، فتنبه الجوادان فجأة، وأخذا، وقد ملأهما إحساس بالحرية مرة أخرى وبالفضاء حولهما، يسرعان عدوا، بطريقتهما المتميزة، عبر الكثبان الرملية، يطوحان عرفيهما وشراشيبهما المزركشة. وسرجاهما يزيقان. تسابقا هكذا دقائق عدة ونسيم يقهقه فرحة وحماسا. كان قد مضى زمن طويل منذ امتطى الخيل فى عدو برى كهذا العدو.

أوقفا انطلاقهما مكملين السير فى بطء مائلين نحو الشرق عبر أرض تغطيها النباتات وقد تفتحت الزهور البرية وترنحت الفراشات طائرة بين الكثبان المقفرة وأنواع من النباتات متماسكة كابية الألوان. قرقعت حوافر الجوادين فوق أرض تغطيها الحصباء عبر وديان حجرية وكتل حادة كبيرة من الحجر الرملى وسلاسل الطين الصفائحى، وردى اللون، تملأ الآفاق. انشغل نسيم بذكريات المخيمات الليلية، هنا، فى شبابه، تحت سماء ترصعها النجوم، فى خيمة تهدر فيها الرياح، تتقاذفها تحت نجم النسر الواقع (ورباطها من حبال أصابها صقيع يتألق كالماس). والصحراء تترامى حولهما كحجرة خاوية. كيف يمكن للمرء أن ينسى أعظم خبراته وتجاربه؟ إنها كلها، تقبع هناك، كبيانو يمكن للمرء أن يعزف عليه، إلا أنه، لسبب ما نسى أن يلمسه سنوات. وشعشعت ذكرياته ومكامن أعماقه فتبع ناروز كالأعمى. كان يرى نفسه وناروز، فى ذلك الاتساع غير المحدود، كبقعتين، كحمامتين يحلقان فى سماء خالية.

توقفا، لاستراحة قصيرة، فى ظل صخرة كبيرة ـ أشبه بواحة أرجوانية فى العتمة ـ يلهثان فى سعادة. قال ناروز: «إن حدث والتقينا بذئب صحراوى فسأطارده حتى أقتله بسوطى». وأخذ يدلل سوطه الكبير فى محبة، يربت عليه وهو يمرره بين أصابعه.

اتخذ ناروز، عندما استأنفا السير فى بطء، مرة أخرى، ممرا مطروقا، متبعا درب القوافل القديمة. إنه «المسرب» الذى سوف يقودهما إلى قصر العطش، حيث يجب أن يلقاهما رجال الشيخ هنالك، قبل الظهيرة. كان نسيم أيضا، يعرف ذات يوم تلك الطرق عن ظهر قلب ـ إنها طرق المهربين التى كانت تستخدمها القوافل لقرون

خلت، ما بين الجزائر - «الطرق الميمونة» والتى قادت أقدار الرجال عبر قفر الصحراء، يحملون التوابل والأقمشة من مكان إلى آخر فى أفريقيا، أو التى كانت تقدم للورعين الأتقياء السبيل الوحيد لبلوغ المدينة المقدسة. وأحس نسيم فجأة بالغيرة من دربة أخيه بالصحراء، والتى كان يمتلكها، بذات القدر، يوما ما. فسار خلفه يحتذيه فى حرص بالغ.

أطلق ناروز صرخة خشنة، مشيرا بيده. بلغا المسراب بعد لحظة. إنه درب الجمال وقد غاص عميقا، فى بعض الأماكن، فى الصخر الصلب، إلا أنه يجرى فى تواليات متموجة، متماثلة، عبر مختلف الآماد. هنا قاد الأخ الأصغر الخطى، مرة أخرى، كان قميصه الأزرق قد اصطبغ باللون البنفسجى، تحت الإبطين، وصاح: «إنهم، على وجه التقريب، هناك». وسبحت فى بطء أمامهما كتل البازلت الحمراء كعنقود بزغ من أطراف السماء اللؤلؤية المرتعشة، كتل تبدو كأبى الهول، أبو الهول غائم المعالم يعذبه العطش (كوجه فى قلب نار). وهنالك فى ظل الصخرة المعتم، كانت تنتظر مجموعة صغيرة تبرطم وتتمتم لتقودهما إلى خيام الشيخ - كانوا رجالا أربعا طوالا نحافا، كأنما قدوا من ورق بنى اللون، تنكسر أصواتهم عطشا عند حروف الكلمات، ولهم ضحكات أشبه بالغضب الجامح. سارا إليهم، ليبدأ عناق أذرع أشبه بعصى جافة، وحديث له تكتكة شائكة عسيرة هى لغة عربية غير مألوفة، وناروز يقوم، نيابة عن كليهما، بكل الحديث والتوضيح.

انتظر نسيم، وقد انتابه، فجأة، إحساس الأوروبى، أو ابن المدينة أو الزائر: كانت تلك المجموعة الصغيرة محملة بكل المشاعر الفطرية

المتشددة لعالم العربان ـ بمجاملاته وضغائنه التقليدية ، وبدائيته . واندهش إذ وجد نفسه يبحث فى عقله ذكرى لوحة رسمها بونارد أو قصيدة كتبها بليك ـ كان يبحث كالظمآن الذى يتحسس نبع ماء فى الظلام . وتماثلت الحالة فى خياله مع رحالة فاجأته عشيرة جبلية فظة شرسة فيحس الإعجاب بأرجلهم الملتهبة المتورمة وسيقانهم الغليظة المليئة بالشعر ، إلا أنه يحس بالامتنان أيضا لمجمل الثقافة الأوروبية التى لم تجد لها تعبيرا فى مجافاة تلك الحياة ، وذلك الحب الممقوت للقوة .

هنا أحس ، فجأة ، بأنه قد فقد أخاه ، وأنه قد فارق صحبته ، حيث انغمس ناروز فى حياة هؤلاء الرعاة العربان ، بنفس الإفراط الذى انغمس به فى حياة أرضه وأشجاره . كانت عضلاته ، التى تشبه خيوطا غليظة ، فى جسد كثيف الشعر ، مشدودة تيها وزهوا ، فهو ، ابن الإسكندرية ، والنصرانى الذى يكاد يكون محتقرا ، فى وسعه أن يتفوق على أىّ منهم فى الرماية والحديث والعدو بالخيل . كانوا ينظرون إليه ، وهم العارفون بنخوته ومراسه ، على أنه من أرومتهم . أما نسيم الرقيق اللطيف والذى رأوه من قبل فى أزياء وأشكال عدة بيديه المعتنى بهما ، واللتين تفضحان كونه سيدا من سادة المدينة ، فإنهم كانوا ينظرون إليه ، رغم ذلك ، فى أدب وتهذيب .

كان الإلمام بالأشكال والأساليب ، لا الفراسة وعمق البصيرة ، هو فقط ما يشكل الآن ضرورة . فهؤلاء القوم الصحراويون ، الذين يبعثون البهجة ، كانوا كالآلات ذاتية الحركة . وابتسم نسيم فجأة ، وقد جال ماونت أوليف بخاطره ، وتساءل فى عجب ، أين وجد البريطانيون مادة أساطيرهم الخرافية عن عرب الصحراء . إن قسوة حياتهم المألوفة ، تتسم بالضنك والضبط والربط الشديدين . وهم إن أثاروا فى نفس

امرىء ما، شيئا ما، فهى إثارة تماثل ذلك التى تتركها زمامير القرب، إنها لا تعبر عن شىء يتجاوز مستواه البدائى. وراقب أخاه وهو يتعامل معهم، انطلاقا من معرفته بأساليبهم وسلوكياتهم، كما يتعامل رجل العرض فى السيرك مع البراغيث الراقصة. أيتها الأرواح البائسة! وأحس فى أعماقه بقوة مصدرها ومددها فطنة وذكاء أبناء المدينة.

سار الكل راكبين فى مجموعة متماسكة، يجتازون منحدرات الرمال الممتدة كالضلوع الطويلة، عبر مروج ومراع سرابية، صنعتها خيالات السحب الممطرة، حتى بلغوا دائرة الخيام الصغيرة، قباء من جلد يقضى فيها الإنسان كهولته، ابتدعها رجال عاشوا طفولة مليئة بذكريات مخيفة، فأرغموا على ابتداع أسقف أكثر ضيقا من السماء، حيث تزرع بذرة الجنس البشرى، وحيث فى هذا المخروط الصغير المصنوع من الجلد، ولد الطفل الأول، واكتشفت خلوة القبلة الأولى.. وود نسيم، وهو يحس المرارة، لو كان فى وسعه أن يجيد الرسم كما تجيده كليا. انتابته الأفكار السخيفة غير المعقولة والتى لا موقع لها فى هذا المكان.

كانت خيام الشيخ مديدة تغطى مساحة تقرب ألفى قدم مربع، وبها خيمة من قماش نسج من شعر الماعز، به غرز عريضة سوداء، خضراء، قرمزية، داكنة وبيضاء، وقد تدلت من ثنياته عند خطوط التقاء الحياكة، شراشيب طويلة تتطاير فى الهواء.

كان الشيخ وأبناؤه يقفون كأوراق الكوتشينة المعروضة فى معرض للطيور، ينتظرانهما بتلك التحايا المعتادة المتعارف عليها. كان ناروز، على الأقل، يعرف كيف يرد عليهم تحياتهم. قادهما الشيخ بنفسه، إلى

خيمة، وهو يقول: «هذا البيت بيتكما، خذا راحتكما، ونحن فى خدمتكما». وتزاحم وراءه حاملو المياه ليغسلوا لهما أيديهما وأرجلهما ووجهيهما ـ وكانت الأخيرة قد جفت، إلى حد ما، وغطتها الفقافيق بسبب تلك الرحلة. استلقيا للراحة مدة ساعة، على الأقل، فى هذه العتمة البنية، حيث كانت حرارة النهار فى أوجها. استلقى ناروز، فوق الوسائد، يشخر فاردا ذراعيه وساقيه، بينما أغفى نسيم إغفاءة متقطعة، يستيقظ من وقت لآخر يرقب أخاه، نائما ذلك النوم الذى يستسلم له البدن دوما بعد جهد العمل. نظر مهموما إلى قبح أخيه، وقد برزت مجموعة أسنانه البيضاء الرائعة من الشق الأحمر الوردى فى شفته العليا. توافد، أثناء استراحتهم، مشايخ القبيلة، من حين لآخر، حيث كانوا يخلعون أحذيتهم عند مدخل الخيمة، ويدخلون، فى هدوء، يقبلون يد نسيم، وكل منهم يتمتم، هامسا، كلمة واحدة «محبة»(*).

استيقظ ناروز فى ساعة متأخرة من بعد الظهر. نادى يطلب ماءً يستحم وطلب فى نفس الوقت ملابس، فأحضرها فى التو الابن الأكبر للشيخ. سار خارجا، فى خطى واسعة، إلى حيث حرارة الرمال الساخنة، وهو يقول: «هيا، الآن نرى المهر، قد يقتضى الأمر منا ساعتين. هل فى ذلك ما يقلقك؟ سنعود متأخرين بعض الوقت، إه». وضعت لهما الوسائد فى الظل. أحس نسيم بالسعادة وهو يجلس متكأ عليها يرقب أخاه يتحرك عبر الرمال التى تغشى الأبصار، متجها نحو مجموعة من المهور، كانت قد أحضرت خصيصا له لفحصها.

كانت المهور تعبث فى براءة ورشاقة وقد أخذت تطوح رؤوسها

(*) فى الأصل عربية بحروف لاتينية.

وأعرافها «كزبد البحر فى شهر يونيو»، كما يقول المثل. توقف ناروز وقد اقترب منها يتأملها بنظرة ثاقبة، ثم صاح يقول شيئا، فهرع أحد الرجال إليه يحمل لجاما وشكيمة، وصرخ فى صوت أجش: «المهر الأبيض». ورد عليه أبناء الشيخ صائحين أيضًا، إلا أن نسيم لم يستطع التقاط الكلمات. استدار ناروز مرة أخرى منسابا بين تلك المخلوقات الفتية فى خفة، غاطسا بينها على نحو غريب ليبلغ المهر الأبيض الذى اختار ويمتطى صهوته قبل أن يدرك المرء ما فعل، بعد أن كان قد لجمه بحركة تكاد، فى سرعتها، أن تكون غير مرئية.

وقف المخلوق الأسطورى ساكنا تمام السكون، وقد اتسعت عيناه وبرقت، كأنما يحاول استيعاب هذا القدر الهائل، الجديد عليه، من ذكاء من امتطى ظهره. ثم سرت فى جسده رعشة بطيئة متموجة، كتيار ذعر يظهر، دوما، مع مثل هذا التلاطم بين عالمى الإنسان والحيوان. ووقف الحصان وراكبه، غارقين فى أفكارهما، كأنما هنالك من ينحت لهما تمثالا.

أطلق الحيوان صرخة خوف كالصغير الخافت. ثم نفض نفسه قافزا قفزات عديدة غريبة كالأقواس، متخشبا كلعبة آلية، هابطا، كل مرة، فى وحشية على رجليه الأماميتين فى قوة اقتحامية. إلا أن كل ذلك لم يزح ناروز. مال، فقط، إلى الأمام ودمدم شيئا ما فى أذن المهر، فهاج وانطلق يلقى بنفسه فى خبب متعرج، يدور، يثب، يقمص ويغطس. دارا حول الخيام دورة بطيئة غير منتظمة وعادا، أخيرا، إلى حيث وقف جميع العربان أمام مدخل الخيمة الرئيسية، يراقبون فى صمت. أطلق المخلوق البائس زفرة أخرى كالصغير الخافت، كأنما يعى أن جزءًا كبيرًا من حياته الحقيقية ـ لعلها طفولته ـ قد انتهت إلى غير رجعة. ثم انطلق، فجأة، فى عدو طويل دؤوب سريع تتميز به سلالته. انطلق كشهاب

يخترق كبد السماء، كدوامة عبر الكثبان الرملية، وقد ثبت راكبه نفسه إليه آمنا، بساقية القويتين المتماسكتين كالمقص - كان ثابتا كصورة دقت إلى الحائط بمسمار متين. وتناقص حجمهما فى سرعة حتى اختفيا عن الأبصار. وارتفعت من الخيام صرخة استحسان هائلة. وتقبل نسيم، إلى جوار الجبن الطازج والقهوة، عبارات المديح والإطراء التى يستحقها أخوه.

عاد ناروز، بعد ساعتين، ومعه المهر، الذى كان يلمع العرق على جسده، حزينا لا يملك من إرادة القتال إلا أن ينفخ فى انكسار ويدق الأرض بحوافره، وقد حلت به الهزيمة. إلا أن ناروز ذاته كان مرهقا إلى حد الهذيان، دائخا كأنما كان يعدو راكبا عبر فرن مشتعل، بينما تشهد عيناه المحمرتان كالدم ووجه المختلج المتفض بعنف القتال. وخرجت كلمات التحبب والإعزاز، التى وجهها للمهر، من شفتين يابستين مشققتين. كان ناروز، رغم كل ذلك سعيدا، متهللا بحق، ينادى فى صوت كالنقيق يطلب ماء، راجيا أن يترك نصف ساعة للراحة، قبل أن تبدأ رحلة العودة إلى المنزل مرة أخرى. ما من شىء فى النهاية، كان قادرا على إرهاق هذا الجسد القوى - ولا حتى ذلك التهيج الجنسى الذى مر به فى معركته الطويلة الوحشية تلك. وأغلق عينيه وهو يحس بالماء يصب فوق رأسه، فرأى مرة أخرى الشمس الداكنة الدامية تتلألأ وراء جفنيه، تصور الإعياء فى خياله، وأحس بوهج الصحراء يلفح الماء ويفرقعه فوق جلده. اختلطت فى عقله الألوان والتوجسات حادة كالطعنات، وكأن جهازه الحسى كله قد ساح من الحر وذاب كما تذوب ألوان الدهان، فانفصلت وصلات الفكر والرغبة والإرادة. استخفه الفرح فأحس أنه قد غدا خفيفا كقوس قزح. ورغم كل ذلك، كان على استعداد لرحلة العودة قبل انقضاء نصف الساعة.

انطلقا، يشيعهما، فى هذه المرة، أناس غير الذين كانوا فى المرة السابقة. ساروا تغمرهم أشعة الشمس الغاربة وقد ألقت بظلالها الوردية، الأرجوانية، فى فجوات الكثبان الرملية وغذوا السير إلى قصر العطش. كان ناروز قد اتفق على الترتيبات اللازمة حتى يوصل أبناء الشيخ المهر له فى يوم آخر من أيام هذا الأسبوع. سار بجواده مسترخيا، يغنى ما بين الفينة والفينة، مقطعا أو اثنين، من إحدى الأغانى. حل الظلام وقد بلغوا قصر العطش، فودعا مضيفهما وانطلقا، مرة أخرى عبر الصحراء.

سارا على مهل وتؤدة، يراقبان القمر اللامع الشاحب، وهو يصعد فى سكون، لا تقطعه غير خبطات حوافر الجوادين فوق الحصباء، فتبدو كالتهتهة، وذلك العواء الآتى من بعيد لأبناء آوى. ووجد نسيم، فجأة، أن الحائط الذى كان قائمًا بينه وبين أخيه قد أزيح، فغدا فى وسعه أن يقول: «ناروز، لقد أزمعت الزواج، وأود منك أن تخبر ليلى نيابة عنى. إننى لا أدرى لماذا، فأنا أشعر بالحياء، إن حدثتها بالأمر».

أحس ناروز للحظة أنه قد تحول إلى قطعة من ثلج - كأنه تمثال فى معطف مدرع - بدا كأنه يتطوح فرحا فوق السرج، إلا أنه كان فرحًا مغتصبًا أجوف حتى إن صوته خرج يحمل الكلمات جافة خاطفة. «ستتزوج كليا، يا نسيم؟ أهى كليا؟». وأحس بالدماء تعود تندفع فى عروقة المنتفضة، مرة أخرى عندما هز نسيم رأسه نفيا وهو يتطلع إليه فى دهشة. وأجاب قائلا، وهو ينطق الكلمات بطريقة بارعة الدقة والإحكام، «كلا، لماذا كليا؟ إننى سأتزوج من مطلقة الأرناؤوطى».

سارا وسرجا الجوادين يزيقان. صاح ناروز، الذى كان يبتسم لنفسه

مكشرا عن أسنانه فى ارتياح، «نسيم، إننى سعيد للغاية. أخيراً سوف تسعد وترزق أطفالا».

إلا أن حياء نسيم البالغ تغلب عليه، مرة أخرى، وأخبر ناروز بكل ما عرفه عن جوستين وعن فقدانها لطفلتها، «إنها لا تحبنى الآن ولم تتظاهر بذلك، ولكن من يدرى؟ فكل شىء ممكن إن استطعت أن أعيد لها طفلتها، وأن أوفر لها بعضا من راحة البال والشعور بالأمان». ثم أضاف بعد لحظة «ألا تعتقد بذلك؟». لم يكن ذلك رغبة منه فى أن يقدم له ناروز رأيا حول الموضوع، ولكن فقط، لتجاوز الصمت الذى تدفق بينهما تدفق كثبان رملى متحرك. ثم استمر فى حديثه، «إن مشكلة الطفلة مشكلة عسيرة. لقد حققت الجهات المختصة، باذلة أقصى جهودها - هنالك أدلة محدودة يشير بعضها إلى المجذوب. كان هنالك مولد بالمدينة، فى ذلك المساء، وكان هو هناك. كان قد اتهم مرات عديدة بخطف الأطفال، إلا أن القضية كانت تحفظ دائمًا لعدم كفاية الأدلة». وأرهف ناروز أذنيه ثم انتفش كذئب وتساءل: «أتقصد ذلك الذى ينوم الناس، كالمنوم المغناطيسى؟»، فقال نسيم بعد تفكير: «لقد عرضت عليه مبلغا كبيراً من المال - مبلغًا كبيراً حقا - لقاء ما أريد معرفته منه. أترى ما فعلت من أجل ذلك؟». وهز ناروز رأسه متشككا، وهو يشد لحيته القصيرة قال: «إنه ذلك المجنون. لقد اعتاد أن يأتى كل عام إلى سانت هيلانة. إلا أن جنونه غريب. إنه يدعى زين العابدين، وهو رجل مبارك».

قال نسيم: «إنه الرجل الذى أعنيه». أوقف ناروز الجوادين متحكما فيهما، وكأنما قد طرأت بباله فكرة، ثم احتضن أخاه، وهو يقدم له التهانى التقليدية باسم العائلة. وابتسم نسيم وقال: «سوف تخبر ليلى؟ أرجوك يا أخى».

«بالطبــع» .

«بعد أن أرحل» .

«بالطبــع» .

أحس نسيم فجأة، وقد زال توتره وامتثل ناروز لما أراد على الفور، بأن عبئًا قد انزاح عن كاهله. أحس فجأة أيضًا، بأنه قد تعب للغاية وأنه على حافة النوم. انطلقا مسافرين فى خفة ولكن دون عجلة. بلغا، مرة أخرى، وقد أوشك الليل أن ينتصف، مكانا تبدو منه أطراف الصحراء على مرمى البصر. وهنا أفزع الجوادين أرنب برى، حاول ناروز أن يناله بسوطه، إلا أنه أخطأه فى عتمة الليل.

صاح وهو يعود إلى جانب نسيم: «هذا خبر طيب للغاية». بدا وكأن العدو عبر الكثبان الرملية التى يضيئها نور القمر قد منحه ما كان فى حاجة إليه من وقت وعزله ليفكر مليا: «هل تأتى بها، الأسبوع القادم إلينا ـ إلى ليلى؟ أعتقد أنى لا بد قد قابلتها. لكننى لا أستطيع أن أتذكر. أهى شديدة السمرة؟ هل هى كما تقول الأغنية: «لعينيها نور اليراعات فى الظلام؟». وضحك ضحكته وهو يخفى رأسه كما اعتاد.

تثاءب نسيم فى كسل: «أحس الألم! عظامى تؤلمنى. هذا ما نالنى من حياة الإسكندرية. ناروز، هنالك شىء آخر كنت أنتوى سؤالك عنه. إننى لم أر بورسواردن. فماذا عن الاجتماعات؟».

سحب ناروز نفسا كالفحيح واستدار بعينيه اللامعتين إلى أخيه وهو يقول: «حسنا، إنها تسير على ما يرام، الاجتماع القادم سوف ينعقد فى مولد سانت دميانة فى الصحراء». شد عضلات كتفيه الكبيرين، «هل تصدق أن العائلات العشر كلها سوف تحضر هذا الاجتماع؟».

قال أخوه: «كن حذرا. تأكد أن يجرى كل شىء سرا، وألا تكون هنالك أية ثغرات».

صاح: «بالتأكيد».

قال نسيم: «أعنى أنه يجب ألا تتخذ المراحل المبكرة صبغة سياسية. يجب أن تتطور فى بطء، مع تفهم الأمر وإدراكه. إه؟ إننى لا أعتقد، على سبيل المثال، ضرورة أن تكون أنت المتحدث إليهم بنفسك. والأصح أن تتناقش فقط. ليس هنالك مجال للمغامرة، فالأمر، كما ترى، ليس قاصراً على البريطانيين وحدهم».

طوح ناروز ساقه متبرما وهو يخلل أسنانه. كان يفكر فى ماونت أوليف، وتنهد. استمر نسيم: «هنالك الفرنسيون أيضًا - إن أهدافهم متعارضة. فإن كنا سنستفيد من كليهما..».

قال ناروز وقد نفد صبره: «إننى أعرف، إننى أعرف». نظر إليه نسيم نظرة ثاقبة، قائلا فى حدة: «انتبه لما أقول. فالكثير يتوقف على إدراكك للمدى الذى يمكن أن نمضى إليه فى هذه المرحلة».

انسحق قلب ناروز لتأنيب أخيه، فاحمر وجهه وشبك ذراعيه معًا ناظراً إلى أخيه، قائلا فى صوت أجش خفيض: «إننى مدرك لما تقول». أحس نسيم، للحال، بالخجل من نفسه، فأمسك بذراعه، واستمر فى لهجة خفيضة واثقة.

«هنالك، كما ترى، ثغرات غامضة تظهر ما بين الحين والحين. فالعجوز كوهين، مثلا، الذى مات الأسبوع الماضى، كان يعمل لحساب الفرنسيين فى سوريا. وعرف المصريون، عند عودته، كل ما له علاقة بمهمته. كيف حدث ذلك؟ لا أحد يدرى. هنالك بالتأكيد، فى الإسكندرية ذاتها، أعداء لنا من بين أصدقائنا، ألا ترى ذلك؟».

«إننى أرى».

حان وقت عودة نسيم، فى صباح اليوم التالى. سار الأخوان راكبين، عبر الحقول، بخطى متمهلة، إلى حيث المعدية. قال نسيم: «لماذا لا تأتى البتة إلى المدينة؟ تعالى معى اليوم. هنالك حفلة راقصة عند آل رانديدى سوف تستمتع بها على سبيل التغيير».

كسى وجه ناروز ذلك الإحساس الذليل الذى ينتابه، دائمًا، كلما اقترح أحدهم عليه أن يمضى إلى المدينة. قال فى بطء وهو ينظر إلى الأرض: «سوف آتى فى الكرنفال». ضحك أخوه وهو يمسك بذراعه، «كنت أعرف أنك سوف تقول ذلك. إنها دوما مرة واحدة فى العام، فى الكرنفال، ليت شعرى، لماذا؟».

إلا أنه كان يعلم أن حياء ناروز المفرط، بسبب شفته المشقوقة كشفة الأرنب، هو الذى دفعه إلى الانزواء، انزواء يكاد يكون متصلا كذلك الذى تعيشه أمه. كان لباس الدومينو الأسود الذى يرتديه فى حفلات الكرنفال هو الذى يمكنه من التنكر وإخفاء وجهه الذى يمقته أشد المقت، والذى لم يعد يحتمل رؤيته حتى فى مرآة الحلاقة. كان يحس بحريته فى حفلات الكرنفال. ومع ذلك. كان هنالك سبب آخر لا يتوقعه أحد على الإطلاق ـ كان ناروز يضمر الهوى لكليا منذ سنوات، كليا التى لم يتحدث معها أبدا، والتى لم يرها حقيقة إلا مرتين، عندما جاءت مع نسيم لتركب الخيل فى العزبة. كان ذلك سرا لا يمكن انتزاعه منه، حتى إن عُذب للبوح به. إلا أنه كان يذهب إلى المدينة، فى كل كرنفال راقص، يجرفه الزحام، آملا بطريقة مبهمة أن يلتقى مصادفة بتلك الشابة التى لم ينطق البتة اسمها أمام أحد بصوت مسموع، إلا فى ذلك اليوم. (لم يكن يعرف أن كليا تمقت موسم الكرنفال، وأنها تقضى الوقت فى هدوء تقرأ وترسم فى مرسمها).

افترقا بعد عناق حار. انطلقت سيارة نسيم تثير الغبار عبر هواء الحقول الدافئ، تتشوق بلوغ الطريق الساحلى مرة أخرى. كانت هنالك بارجة فى حوض الميناء تطلق واحدا وعشرين طلقة تحية لأحد الشخصيات المصرية الكبيرة، على ما يبدو. بدت القذائف وكأنها تبعث الرعدة فى السحب اللؤلؤية المعلقة، دوما، فوق الميناء، فى الربيع، فتتغير ألوانها. كان البحر، اليوم عاليا وقوارب صيد أربعة تتجه فى سرعة إلى مرفأ المدينة بحملها من الصيد. لم يوقف نسيم سيارته إلا مرة واحدة ليشترى قرنفلة، من بائع زهور متجول عند ناصية شارع سعد زغلول، ليضعها فى عروة سترته. ثم توجه إلى مكتبه متوقفا فى الطريق إليه ليلمع حذاءه. بدت له المدينة أكثر جمالا من أى وقت مضى. جلس إلى مكتبه يفكر فى ليلى ثم فى جوستين. ترى ماذا ستقول أمه عن قراره؟

توجه ناروز ذلك الصباح إلى المنزل الصيفى ليقوم بمهمته. كان قبل ذلك، قد انتقى كمية ورود حمراء وصفراء تكفى ملأ الفازتين الكبيرتين الموضوعتين على جانبى صورة والده. كانت أمه تنام إلى مكتبها، إلا أن الضجة التى أثارها وهو يرفع سقاطة الباب، أيقظتها على الفور.

فحت الحية فى صوت ناعس، ثم عادت فخفضت رأسها إلى الأرض مرة أخرى.

قالت عندما رأت الورود: «فليباركك الرب يا ناروز». ثم نهضت، للتو، لتفرغ فازاتها. ألقى ناروز، بينما يشذبان البراعم الجديدة وينسقانها، بأنباء زواج أخيه. توقفت أمه ساكنة مدة من الزمن طويلة. لم يبدُ عليها القلق، وإن بدت جادة كأنما تستشير أعمق أفكارها وأحاسيسها. أخيراً قالت تناجى نفسها، أكثر مما تتحدث إلى غيرها،

«ولم لا؟» . كررت العبارة مرة واثنين، كأنما تختبر وقعها . ثم أخذت تعض إبهامها، مستديرة إلى ابنها الأصغر قائلة : «إلا لو كانت مغامرة تسعى وراء ماله، فلن أقبلها . ولسوف اتخذ الخطوات لإبعادها . إنه، على أى حال يحتاج إلى موافقتى» .

وجد ناروز، أن هذا الذى تقول مضحك للغاية، فأطلق ضحكة توجس وإشفاق، فأمسكت بذراعه كثيفة الشعر بين أصابعها وقالت : «سوف أفعل ذلك» .

«أرجوك» .

«أقسم على ذلك» .

ضحك حتى بان سقف حلقه الوردى، إلا أنها ظلت شاردة الفكر تنصت إلى مونولوجها الداخلى . أخذت تربت على ذراعه ذاهلة، بينما استمر فى ضحكه، فهمست، «صه» . ثم قالت بعد فترة من الصمت طويلة وكأن أفكارها تثير دهشتها، «إن الأمر الغريب، هو أنى أعنى ما قلت بالفعل» .

قال، وهو ما يزال يضحك وإن كانت كلماته تحمل بذور الجدية : «لكنك لن تعتمدى علىّ، إه . لن تركنى إلىّ حارسا على شرف أخى» . كان لا يزال منتفخا، كالضفدع، من الضحك، رغم أن تعبيرات وجهه اتسمت الآن، بالجدية . فكرت ليلى . «يا إلهى، كم هو قبيح» . تحسست أصابعها خمارها الأسود تضغط الندوب فى صفحة وجهها، تلمسها فى عنف لعلها تنعم ملمسا .

قالت وهى تكاد تبكى : «يا ناروزى الطيب» . جرت بأصابعها خلال شعره، وأثارته الشاعرية الرائعة للغتها العربية، وطيبت خاطره :

«يا قرص شهدى، يا يمامتى، يا ناروزى الطيب، قل له نعم، مع حبى وعناقى، قل له نعم».

وقف ساكنا ينتفض كمهر، ينهل موسيقى صوتها وربتاتها النادرة بيدها الدافئة المقتدرة.

«لكن أخبره أنه من الضرورى أن يحضرها هنا إلينا».

«سأخبره بذلك».

«أخبره اليوم».

سار بخطاه الواسعة المتشنجة كالمنشار إلى حيث الهاتف فى المنزل القديم. جلست والدته إلى منضدتها المتربة، وهى تكرر لنفسها مرتين، فى نغمة خفيضة حائرة، «لماذا كان على نسيم أن يختار يهودية؟».

* * *

(٥)

أعدت بناء الكثير، طبقا لما جاء فى متاهة الحواشى التى تركها لى بلتازار. إنه يقول فى إحداها: «إنك عندما تتخيل، فإن ذلك لا يعنى بالضرورة أنك مخترع، كما لا يجرؤ امرؤ على الإدعاء بأنه العالم بكل شىء إن كان الأمر مرتبطا بتفسير وتأويل أعمال الآخرين. إن المرء ليزعم أن تلك الأفعال إنما نمت من أحاسيسهم كما تنمو الأوراق من فروع الشجر. ولكن، هل يمكن للمرء أن يعود إلى الوراء مستنبطا هذا من ذاك؟ ربما استطاع الكاتب الإقدام على ذلك إن امتلك ما يكفى من الشجاعة لتغطية تلك الفجوات الظاهرة فى أفعالنا بتأويلات من لدنه حتى تربط معًا. ماذا كان يجرى فى خاطر نسيم؟ هذا سؤال جاد موجه إليك لتضعه أمام نفسك.

«أو ماذا كان يجرى فى خاطر جوستين، أيضًا، حول هذا الأمر؟ إن المرء، حقا، لا يعرف الإجابة. إن كل ما أستطيع قوله، أن احترام الواحد منهما للآخر، كان يتنامى بقدر ما كان يتناقص تعلقهما ببعضهما البعض. لقد قبل كلاهما، راضيا، ألا يكون هنالك أى شكل من أشكال الحب فيما بينهما، كما سبق وأوضحت لك. ربما كان الأمر كذلك، إذ إننى لم أستطع أن أجد، خلال مناقشاتى الطويلة معهما،

كل على انفراد، مفتاح هذه العلاقة التى فشلت بشكل واضح - كان فى وسع المرء أن يراها تغوص يوما بعد يوم، كما تغوص الأرض، كما يغوص سطح بحيرة، دون أن يدرى لماذا. لقد طُلى مظهرهما الخارجى بطريقة بارعة متقنة للغاية ليخدع أغلب المراقبين، أمثالك مثلا. كما أننى لا أشارك ليلى رأيها - فإنها لم تحب جوستين أبدا. لقد جلست إلى جوارها ليلة الحفل الذى أقامه ناروز لتقديم جوستين، وقت المولد الكبير لأبى جيرج، والذى يحل مع عيد الفصح كل عام. كانت جوستين قد تخلت عن ديانتها اليهودية وغدت قبطية انصياعا لرغبة نسيم، الذى ما كان فى وسعه إلا أن يتزوجها سراً، حيث إنها كانت قد تزوجت بالفعل من قبل. واكتفى ناروز بحفل تقدم هى فيه إلى أهل المنزل الكبير وخدمه والذين كان يهتم، دوما بأن تكون حياتهم جزءاً من نسيج العائلة.

«أقيم مخيم هائل وسرادقات حول المنزل دامت أربعة أيام - كانت تزينها السجاجيد والثريات والزخارف البارعة. وجردت الإسكندرية من كل زهور الصوبات فغدت عارية منها، كما جردت بالمثل من شخصياتها الاجتماعية الكبيرة التى قامت بالرحلة الساخرة، على نحو ما، إلى أبى جيرج (إذ لم يكن هنالك ما يثير المتعة الساخرة فى المدينة قدر حفل زواج عصرى)، وذلك ليقدموا الاحترام والتهانى لليلى. تقاطر المدراء المحليون والمشايخ وعدد لا حصر له من الفلاحين والشخصيات البارزة، الدانى منها والقاصى، ليشاركوا فى اللهو والمأدبة - بينما قدم البدو الذين كانت تتاخم أراضيهم العزبة ألعابا رائعة من الفروسية والعدو، وكأن جوستين عروس فتية، كأنها عذراء. ولك أن تتصور كيف كانت ابتسامات أثينا تراشا وآل سرفونى! لقد جاء أبو قار، العجوز نفسه، ممتطيا جواده العربى الأبيض، صاعدا به

درجات سلم البيت إلى حيث حجرات الاستقبال حاملا باقة من الزهور.

«أما ليلى، فإنها لم ترفع البتة (ولو للحظة واحدة)» عينيها الذكيتين عن جوستين. كانت تتابعها بعناية كمن يفحص لوحة تاريخية. وتساءلت وأنا أتابع نظراتها، «أليست جميلة؟». واستدارت نحوى بنظرة سريعة، أقرب إلى نظرة الطائر، قبل أن تعود مرة أخرى تراقب جوستين، الموضوع الذى يستغرق التفاتها ودراستها، وقالت: «إننا أصدقاء قدماء، يا بلتازار، ولهذا ففى استطاعتى أن أتحدث إليك. لقد كنت أحادث نفسى، إنها أشبه، إلى حد ما، بما كنت أنا عليه ذات يوم. إنها مغامرة، أشبه بحية صغيرة داكنة، تلتف حول نفسها، تحتل مكان المركز فى حياة نسيم». واحتججت على ما تقول بطريقة شكلية، فحملقت فى عينى لوقت طويل، ثم ضحكت ضحكة خفيفة، بطيئة، مكتومة. وأثار دهشتى ما قالته بعد ذلك، «نعم، إنها تشبهنى تماما - تلاحق المتعة بلا هوادة، ومع ذلك فهى قاحلة مجدبة - لقد تحول كل ما فى أعماقها إلى رغبة فى السيطرة، ومع ذلك فهى أيضًا مثلى، ناعمة ورقيقة. هى المرأة الحقيقية التى يريدها الرجل. إننى أكرهها لأنها تشبهنى. هل تفهم ما أعنى؟ إنى أخافها لأنها تستطيع قراءة ما يجول بخاطرى». ثم بدأت تضحك منادية على جوستين: «تعالى هنا يا حبيبتى. اجلسى إلى جوارى». وقدمت إليها ذلك النوع من الحلوى الذى تكرهه أشد الكراهية - إنه حلوى البنفسج البلورى - وتقبلته جوستين على مضض - لأنها هى أيضًا كانت تكرهه. وهكذا جلست الاثنتان، واحدة كأبى الهول وعلى وجهه الخمار والأخرى أبو الهول سافرا، تأكلان البنفسج المحلى بالسكر، والذى لا تطيقه أيًا منهما. وشعرت بالبهجة أن أتيحت لى الفرصة لرؤية المرأتين، وهما فى أشد

حالاتهما بدائية . إننى لا أستطيع أن أقول لك الكثير عن مدى صحة هذه الأحكام ـ إننا نصدرها جميعا على بعضنا البعض .

«والغريب فى الأمر ، هو أنه رغم هذا التنافر بين المرأتين ـ والذى يمكن أن نطلق عليه تنافر التجاذب ـ فقد بزغ إلى جوار التنافر تعاطف غريب . إحساس بوحدة الشعور ، وتعرفت كل منهما على ما بداخل الأخرى . إذ عندما تجاسرت ليلى ، مثلا ، على لقاء ماونت أوليف ، أخيرًا تم هذا اللقاء سرًا . وكانت جوستين هى التى قامت بتدبيره . كانت جوستين هى التى جمعتهما معًا أثناء حفلة الرقص فى الكرنفال ، وقد ارتدى كل منهما قناعا ، أو هذا ما سمعت .

«أما عن نسيم ، ففى وسعى أن أقول عنه ، مع المخاطرة بالتبسيط الزائد عن الحد : إنه كان طاهر النفس إلى حد أنه لم يدرك أنه لا يمكنك الحياة مع امرأة دون أن تكون قد وقعت فى غرامها ، على نحو ما ـ وأن رغبة التملك تسعة أعشار الشعور بالغيرة . لقد فزع وأصابه الرعب من مدى غيرته على جوستين ، وحاول فى أمانة ، أن يمارس الشعور باللامبالاة ، وكانت شيئا جديدًا عليه . هل كان ذلك الشعور صادقًا أم زائفًا؟ لست أدرى .

«وإن أدرنا العملة على وجهها الآخر ، ففى وسعى أن أقول إن ما أضجر جوستين ، على غير المتوقع ، هو اكتشافها أن عقد الزواج الذى أعد بصورة عقلية منطقية ، وعلى مستوى الصفقة المالية كان على نحو ما ، أكثر إلزاما من خاتم الزواج . إن المرأة تفكر مرتين قبل الإقدام على خيانة زوجها (إن جعلها الهوى أو الشبق تستبيح ذلك) . إلا أن خيانة جوستين لنسيم كانت أشبه بسرقة مال من صندوق النقود . ما رأيك فى ذلك؟» .

إن شـعـورى الخـاص (مـهـلا بلتـازار، انظر إلى أين خطاك) أن جوستين قد أخذت تدرك بالتدريج أن هنالك شيئًا ما خفيا فى طباع هذا الرجل المنزوى الذى يعزها ويعانى الكثير. إنها الغيرة التى تزداد بشاعة وخطورة حيث لا تسمح لنفسها بأى منفذ أو مخرج، فى بعض الأحيان.. إلا أننى عرضة، هنا، لخطر الكشف عما ائتمنتنى عليه جوستين خلال فترة ما سمى بالعلاقة الغرامية، والتى جرحتنى بعمق، وأنا أعرف الآن أنها كانت تستخدمنى لمآرب أخرى. لقد تناولت تطور تلك العلاقة كلها فى موضع آخر، إلا أنه إن كان علىّ الآن أن أبوح بكل ما قالته لى عن نسيم، بنفس كلماتها، فإننى أتعرض للخطر، وذلك، أولاً: لأنى سوف أطرح أشياء ربما تمجها نفس القارئ، كما أنها حقيقة توقع الظلم بنسيم ذاته. ثانيًا: إننى لست واثقًا، بأى حال من الأحوال، بمدى صدقها النسبى، إذ ربما كانت جزءًا من ذلك التخطيط الكبير المدبر للخديعة. إن تلك المشاعر، أيضًا قد تلونت («دروس هامة مستفادة».. إلخ) بالشك الأساسى الذى أثارته، فى خاطرى، تعليقات بلتازار فيما بين السطور. «إن الحقيقة هى ما ناقضت نفسها أشد التناقض». أية مهزلة تضم كل ذلك الذى حدث!

إلا أن ما يقوله بلتازار عن غيرة نسيم فهو على أى حال، حقيقى. لقد عشت زمنا فى ظلاله، وليس هنالك من شك فيما تركه من أثر على جوستين. لقد وجدت من يتعقبها منذ البداية تقريبا. كانت موضوعة تحت المراقبة. وكان طبيعيا للغاية أن يبذر ذلك فيها الحيرة وفقدان الإحساس بالأمان، والذى غدا رهيبا، إذ إن نسيم لم يتحدث معها البتة، صراحة حول هذا الأمر. لقد استقر هذا الشعور كثقل من الشك غير مرئى يلاحق تعليقاتها وينفى عنها أية صبغة أو لون، حتى تلك التى كانت أكثرها براءة من نزهات ما بعد العشاء. كان يجلس بين

الشموع الطويلة يبتسم لها فى رقة، بينما يجلجل فى خاطره تحقيق كامل صامت يستقصى كل أفعالها. هذا ما كانت تقوله هى على الأقل.

إن أبسط الأفعال وأكثرها صدقا ـ كزيارة إلى مكتبة عامة أو قائمة مشتريات أو رسالة على بطاقة، قد غدت عائقا يثير الخيبة فى عين غيرة قامت على عاطفة عقيمة. لقد تمزق نسيم إربا بطلباتها، وتمزقت هى إربا بالشكوك التى كانت تراها فى عينيه ـ بتلك الرقة التى كان يضع بها دثارا فوق كتفيها. كانت تحس وكأنه يلف أنشوطه حول عنقها. وأصبحت هذه العلاقة، على نحو غريب، صدى لعلاقة التحليل النفسى التى وصفها زوجها الأول فى كتابه «عادات» ـ حيث غدت جوستين بالنسبة للجميع، حالة تقتضى العلاج أكثر منها إنسانا. حالة تطاردها، تكاد تخرجها عن جادة صوابها، أسئلة مرهقة يطرحها عليها هؤلاء الذين لا يعرفون متى يتركون المريض وشأنه. لقد وقعت بالفعل، فى مصيدة. كانت الفكرة تتردد فى ظاهرها كضحكة مجنونة. إننى ما أزال أسمعها تتردد حتى الآن.

وسارا، هكذا، جنبا إلى جنب، كمتسابقين متناظرين تمام التناظر. قدما للإسكندرية ما بدا النموذج المثالى لعلاقة يحسدهم كل الناس عليها، كما يعجزون، فى ذات الوقت، عن تحقيق مثيلها. نسيم الزوج المتسامح، شديد التعلق بزوجته، وجوستين الزوجة اللطيفة الراضية.

ويكتب بلتازار فى تعليقاته وحواشيه، «أعتقد أنه كان يبحث عن الحقيقة، فقط بطريقته الخاصة. ألا ترى أن هذه الملحوظة قد غدت سخيفة إلى حد ما؟ يجب أن نتفق جميعا على إسقاطها! إنها رغم كل شىء عمل شاذ، هل أعطيك مثلا آخر عن موضوع آخر؟ إن تفسيرك

لموت كابوديستريا فى البحيرة، كان هو التفسير الذى قبلنا به جميعا، بعقولنا بالطبع، فى ذلك الوقت باعتباره الحقيقة.

«إلا أن الشهادات التى حصلت الشرطة عليها قد أجمعت على ذكر شيء واحد على وجه الخصوص - ذلك أنه عندما رفعت جثته من البحيرة التى كان يطفو على مياهها وإلى جوارها العصابة القماشية السوداء، سقطت أسنانه الصناعية تقرقع فى قاع القارب، مما أثار فزع الجميع. والآن أصغ إلى ما سأقول: بعد ثلاثة شهور من هذه الواقعة، كنت أتناول طعام العشاء مع بيير بالبز طبيب الأسنان الذى كان يتردد عليه. وقد أكد لى أن أسنان داكابو كانت خالية من كل عيب، على وجه التقريب. ولم تكن بها، بالقطع، أسنان صناعية يمكن أن تسقط من فمه. من كان إذن ذلك الغريق؟ أنا لا أعرف. وإن كان دا كابو، فى بساطة قد اختفى بعد أن دبر استدراج أحدهم ليحل محله، فقد كان لديه كل الأسباب التى تدعوه إلى ذلك: فقد ترك عليه خلفه، ديونا تتجاوز المليونين من الجنيهات. أترى ما قصدت وما أعنى؟

«إن الحقيقة بطبعها عرضة للتقلب. فلقد قال ناروز ذات مرة إنه يحب الصحراء حيث «تمحو الرياح آثار أقدام الإنسان كما تطفئ لهيب الشموع». والحقيقة، كما تبدو لى، تفعل نفس الفعل. كيف يمكن إذن أن نبحث عما هو صادق؟».

* * *

كان بومبال يجمع ما بين اللباقة الدبلوماسية والخبث المتدنى لمدع عام من الأقاليم. كانت العواطف المتضاربة فى أعماقه ترتسم على وجهه السمين بينما جلس فى كرسيه الذى يجلس عليه كلما عاودته آلام النقرس، وقد شبك أصابعه ببعضها البعض. قال وهو يرمقنى بنظرة ثاقبة، «إنهم يقولون إنك تعمل، الآن فى المكتب الثانى

البريطانى، إه؟ لا تقل شيئًا، فأنا أعلم أنه ليس فى مقدورك أن تتكلم، وكذا الأمر معى إن سألتنى عن نفسى. أنت تعتقد أننى فى المكتب الثانى الفرنسى - إلا أننى أنكر الأمر كله تمام الإنكار. إننى أتساءل عما إذا كنت أدعك تسكن معى فى الشقة؟ إن الأمر يبدو. . كيف يمكن قولها؟ هل نماثل بوكس وكوكس؟ كلا. أعنى لماذا لا يبيع كل منا أفكاره للآخر. إه؟ إننى أعلم أنك لن تفعل، وأنا كذلك. إنها حاسة الشرف لدينا. . إننى أعنى، فقط، لو كان كلانا فى. . إحم. إلا أنك تنكر بالطبع، وأنا أنكر أيضًا، ولذا فإننا لسنا كذلك أنت لا ترحب بمشاركتى نسائى، إه وأشياء أخرى أيضًا. أتريد شرابا؟ إن زجاجة الجن هناك. إننى أخفيها من حميد. إننى أعرف، بالطبع أن هنالك ما يجرى، ولن أيأس من اكتشافه. شىء ما أود معرفته. . نسيم. . كابوديستريا. . حسنا».

قلت محاولات تغيير موضوع الحديث، «ماذا فعلت بوجهك؟» كان قد أطلق، منذ فترة قريبة، شاربه. وأمسك به مدافعا عنه، وكأن سؤالى كان تهديدا له بحلقه بالإكراه. «شاربى هذا. آه حسنا. لقد وجه اللوم والتقريع إلىّ، منذ فترة قريبة، بسبب عملى، وبأننى لا أوليه الاهتمام اللازم، فقمت بتحليل نفسى حتى «أعمق الأعماق»(*). هل تعلم عدد الساعات التى أفقدها كرجل بسبب النساء؟ لن تستطيع الحدس أبدًا. ولذا اعتقدت أن إطلاق شاربى (ألا تراه بشعا؟) سوف يبعدهن عنى قليلا، إلا أن ذلك لم يحدث. واستمر الأمر كما كان. إنها ضريبة يجب أن أدفعها، يا بنى العزيز لا لامتلاكى سحرا وجاذبية، ولكن لانخفاض المعايير هنا. يبدو أنهن يحببننى لأنه لا يوجد هنا

(*) بالفرنسية فى الأصل.

أفضل من هذا. إنهن يحببننى كدبلوماسى، كالطير الفاسد، «لماذا تضحك»(*)؟ إنك أيضًا تضيع العديد من الساعات مع النساء، إلا أن لديك الحكومة البريطانية تساندك ـ ومعها الجنيه الاسترلينى ـ إه؟ لقد جاءت تلك الفتاة هنا اليوم مرة أخرى. «يا إلهى»(*)، كم هى نحيلة، كما أنه ليس هنالك من يعتنى بها! لقد عرضت عليها أن تتناول طعام الغداء، إلا أنها لم ترغب فى البقاء، وتلك الفوضى والقذارة فى غرفتك. إنها تتعاطى الحشيش، كذلك؟ حسنا، عندما أذهب، فى إجازتى، إلى سوريا، يمكنك أن تستخدم الشقة كلها شريطة أن تعتنى بحاجز المدفأة. إنه قطعة فنية متقنة. أليس كذلك، إه؟».

كان لديه حاجز مدفأة زاه وضخم، صنع خصيصا للشقة ويحمل نقشا كالوخزات، «الخفة ـ البلاء ـ الأمومة».

واسترسل قائلا: «آه، حسنا يكفى هذا عن الفن فى الإسكندرية. أما عن جوستين، تلك البربرية التى تناسبك أكثر من غيرها، ألا ترى أنت ذلك؟ إننى أراهن على أنها. . إه؟ لا تقل شيئًا. لماذا لا تسعدك أكثر من غيرها؟ أنتم أيها الإنجليز مكتئبين على الدوام، ممتلئين بالسياسة، وليس هنالك ما يؤرق ضمائركم يا عزيزى(*) امرأتان فى مقطورة واحدة ـ من ذا الذى يريد أفضل من ذلك؟ كما أن إحداهن شولاء ـ كما يسمى دا كابو السحاقيات ـ أنت تعرف سمعة جوستين؟ حسنا، إننى من ناحيتى أنبذ كل. . ».

وهكذا انساب بومبال فى مرح ممتع طويل، سابحا فى بحر خبراته المضحكة، بينما أقف فى الشرفة أرقب السماء وهى تعتم فوق الميناء وأسمع نعيق السفن المتجهم والذى يؤكد وحدتنا هنا، وعزلتنا عن

(*) بالفرنسية فى الأصل.

مجرى الخليج الدافئ للمشاعر والأفكار الأوروبية. إن كل التيارات تنزلق من هنا نحو مكة أو الصحراء الغامضة. وليس هنالك من موطئ قدم على الجانب الآخر من البحر المتوسط غير تلك المدينة التى جئنا إليها، نستوطنها ونكرهها، ونلوثها باحتقارنا لذواتنا.

ثم رأيت ميليسا وهى تسير عبر الشارع، فانكمش قلبى إشفاقا عليها وفرحا بمقدمها وأنا أستدير لأفتح لها باب الشقة.

* * *

إن أيام الجزيرة الهادئة التى تصيب الإنسان بالدوار لهى أنسب تعبير عن أفكار ومشاعر امرئ يسير بمفرده على شواطئ مهجورة، أو يقوم بالواجبات المنزلية البسيطة فى دار تفتقد الأم. إننى أحمل فى يدى ما كتبه بلتازار من تعليقات وحواشى حيثما ذهبت، سواء كنت أقوم بأعمال الطبخ أو تعليم الطفلة السباحة أو قطع الخشب من أجل الموقد. إلا أن كل تلك القصص الخيالية تعيش كنتوء فى المدينة البيضاء المختالة وأسراب الحمام التى تتحول إلى غمائم فضية أو زرقاء فى لون الأماتست، ومياه الميناء، السوداء كالرخام الطبيعى، تعكس ظلال مقدمات السفن الأجنبية الحاملة لرجال الحرب وهى تستدير فى منحنيات بطيئة توحى باتجاه الريح السائدة، أو تبتلع انعكاساتها القاتمة كالأحبار، تتلامس، تتداخل كاللغات والشيع والطوائف والأجناس التى تضفى عليها حمايتها المشوبة بالقلق، فترمز بذلك إلى الوجدان الغربى، الذى تتمثل قوته فى الفولاذ ـ فى تلك المدافع المتجهمة المصوبة نحو البحيرة الصفراء المعدنية والمدينة التى تنتفخ عند الغروب كما تنتفخ الورود.

* * *


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجـزء الثانى

(٦)

ويكتب بلتازار، «أما عن بورسواردن، فإننى لن أقول لك إنك لم تنصفه. . فقط أقول إنه لم يبعث حيا، فى الورق، بنفس الصورة، التى كان عليها كما عرفته. يبدو أنه كان، بالنسبة إليك، نوعا من الأحاجى والألغاز. (لعله ليس بكاف أن يحترم المرء عبقرية إنسان ما - يجب أن يحبه قليلا. ألا توافق معى على ذلك؟). ربما كان الحسد، الذى تحدثت عنه، هو الذى أعماك عن رؤية خصاله. إلا أننى، على نحو ما، أشك فى هذا. إذ يبدو لى أنه من العسير، تماما، أن يحسد الإنسان امرأ كان، إلى حد كبير، حسن النية والطوية، يتمتع بمثل هذه الغفلة التى تجلت فى كثير من النواحى، (فقد كانت النقود، على سبيل المثال تثير فزعه ورعبه)، ليصنع منه، كل ذلك، إنسانا مبدعا إننى أعترف أننى كنت أعتبره رجلا عظيما، مبدعا حقيقيا. لقد عرفته معرفة جيدة، رغم أننى، وحتى يومنا هذا، لم أقرأ له البته، ولا كتابا واحدا من كتبه، ولا حتى ثلاثيته الأخيرة، التى أثارت ضجة عالمية، رغم تظاهرى بأننى قد قرأتها، إن كانت هنالك صحبة من الناس. كنت أقلب صفحاتها، دون حاجة إلى القراءة أكثر من ذلك.

«لهذا، كتبت هنا بعض الملاحظات عنه، لا لأتناقض معك، أيها الحكيم، ولكن لأجعلك، فى بساطة تقارن بين صورتين غير متماثلتين. وإن كنت أنت قد أخطأت، فيما يخصه، فإنك لست أقل خطأ من بومبال الذى كان يشهد له بمقدرته على «السخرية السوداء»(*)، والتى هى قريبة للغاية من قلوب الفرنسيين. إلا أن الرجل ما كان يضمر ضغينة لأحد. كما لم يكن سأمه الظاهر من الدنيا تظاهرا، بينما كانت قساوة لسانه ترجع إلى بساطته الشديدة، وإلى رغبة فى التخابث، وهى لم تكن، دوما مصدراً للبهجة أو المتعة. إن بومبال، كما أعتقد، لم يندمل جرحه أبدا من ذلك اللقب التهكمى الذى أطلق عليه، «أشعر القلفة»(*). وأنت، أيضًا، إن غفرت لى، لم تتجاوز ما أصابك من نقد بورسواردن لرواياتك. هل تتذكر؟. إن لهذه الكتب نزعة غريبة منفرة تقوم على القسوة وافتقاد المشاعر الإنسانية، مما حيرنى فى البداية. إلا أن تلك، فى بساطة هى الطريقة التى يلجأ إليها الإنسان العاطفى ليدارى ضعفه. إن القسوة هنا هى الوجه الآخر للرقة العاطفية المفرطة. إنه يجرح الآخرين خشية أن يهصر تمام الهصر! لقد كنت محقا فى قولك إنه كان يزدرى حبك لميليسا - ولا بد أن اللقب التهكمى، والذى يتفق والأحرف الأولى لاسمك، والذى أطلقه عليك، قد أصابك أيضًا بالجراح (تقاطيع وجه تعكس رغبة تحققت فارتاحت). «ها هو صاحب تقاطيع الوجه البالية، يمر فى معطفه القذر الواقى من المطر». إننى أدرك أنها مزحة منحطة، إلا أن كل ذلك لم يكن يعكس الحقيقة فى تمامها.

«إننى أقلب، اليوم محتويات درج ملىء بالمذكرات والتذكارات،

(*) بالفرنسية فى الأصل.

كى أفكر فيه قليلا، فوق الورق. اليوم عطلة والعيادة مغلقة. وأنا أعرف أن هذا العمل محفوف بالخطر، لكننى ربما أتوصل إلى إجابة على سؤال، لا بد أن تكون قد وجهته إلى نفسك، بعد أن قرأت الصفحات الافتتاحية من الحواشى والتعليقات: «كيف تمكن بورسواردن وجوستين. . ؟»ـ إننى أعرف الإجابة.

«لقد جاء بورسواردن إلى الإسكندرية مرتين قبل أن يلتقى بنا جميعا. كان قد أمضى الشتاء، ذات مرة، فى الأزاريطة، يعمل فى واحد من كتبه. إلا أنه عندما عاد، فى هذه المرة، ليقدم سلسلة محدودة من المحاضرات فى الأتيليه، كنت أنا ونسيم وكليا فى اللجنة، وبذا لم يستطع تجنب هذا الجانب من الحياة السكندرية، الذى أمتعه بقدر ما أحبطه.

«كان، على قدر ما أتذكر، من الناحية الجسدية، أشقر، ذا قامة جيدة متوسطة، متين البنيان، وإن لم يكن ضخم الجثة. بنى الشعر والشارب الذى كان صغيراً للغاية. شديد العناية بيديه. ابتسامته لطيفة، رغم أن وجهه، إن لم يكن مبتسما، يكتسى بتعبير ساخر يكاد أن يكون وقحا. كانت عيناه شهلاوين بلون خشب البندق. كانتا أجمل ما فى وجهه ـ تنظران فى عيون الآخرين وآرائهم بصراحة حقيقية وصفاء يكاد أن يكون مخيفا. كان غير مهندم فى ملبسه، إلى حد ما، إلا أنه كان، على الدوام نظيفا ناصعا، يمقت الأظافر والياقات القذرة. هذا حق، وإن كانت تلطخ ملابسه، فى بعض الأحيان، نقاط الحبر الأحمر الذى كان يكتب به.

«إننى أعتقد حقيقة أن حاسة المزاح لديه قد عزلته، عما يحيطه، إلى عالم خاص به. أو أنه قد اكتشف عدم جدوى أن تكون له آراؤه، ومن

هنا تكونت لديه عادة أن يقول دوما، بالمزاح والتنكيت، عكس ما يفكر فيه. كان تهكميا يستهزئ بالغير، ومن ثم فكثيراً ما بدا منتهكا لطيف المشاعر والأحاسيس. ومن ثم أيضًا كانت طريقته المبهمة المتسمة بالخفة والابتذال الواضح الذى كان يتناول به الموضوعات الكبرى. إن هذا النوع من البهلوانية الجادة، يترك بصماته الخاصة على أى حديث. إن أقواله المأثورة القليلة قد بقيت كآثار مخالب قطة طبطبت بلطف فوق سطح من زبد. أما الأحاديث الغبية فقد كان يجيب عليها بكلمة «كواتز»(*).

«كان يؤمن، كما أعتقد بأن النجاح لصيق بالعظمة. وكان افتقاده للنجاح المالى، كفيل بأن يثير شكوكه فى قواه وقدراته. (إذ إنه حقق، من أعماله عائدا ماليا محدودا للغاية، كان يرسله جميعه إلى زوجته وطفليه اللذين كانا يعيشان فى إنجلترا). ربما كان عليه أن يولد أمريكيا؟ لست أدرى.

«أتذكر ذهابى، ومعى كيتس لاهثا، إلى المرفأ لاستقبال سفينته. كان ينتوى عقد لقاء صحفى معه. وصلنا متأخرين، فلحقنا به بينما كان يملأ استمارة الهجرة. وكان قد كتب أمام كلمة «الدين» بروتستانتى، قاصدا من ذلك أن يقول، بصورة مطلقة، «أنا أحتج».

«دعوناه إلى شراب كى يتمكن من إجراء حواره معه على مهل. كان الفتى المسكين حائرا. مرتبكا إلى أقصى الحدود. كان لبورسواردن ابتسامة خاصة يتعامل بها مع الصحافة. إننى ما زلت أحتفظ بالصورة التى أخذها له كيتس ذاك الصباح. كانت ابتسامة أشبه بتلك الابتسامة المتيبسة التى تراها على وجه طفل ميت. لقد اعتدت ابتسامته تلك فيما

(*) Kwatz.

بعد، وتعلمت أنها تعنى، أنه موشك بطريقته الساخرة، على انتهاك كل ما هو مسلم به من مشاعر طيبة. كان يحاول أن يسلى نفسه فقط لا أن يسلى الآخرين. انتبه كيف يتعامل مع الآخرين. كان كيتس يلهث، يغالى فى مديحه، يبدو «مخلصًا»، يحاول سبر غوره، ولكن دون جدوى. ولقد طلبت منه فيما بعد نسخة طبق الأصل، من هذا اللقاء الذى كتبه على الآلة الكاتبة؛ فأعطاها إلىَّ وهو حائر، موضحًا أن الرجل لم يقدم له أى «جديد». كان بورسواردن قد قال أشياء من مثل: «إن من واجب كل وطنى أن يكره بلده بطريقة خلاقة»، «إن إنجلترا تستنجد ببيوت الدعارة». وقد صدمت هذه الجملة الأخيرة كيتس المسكين، على نحو ما، فسأله إن كان يرى أن «الرخصة المفتوحة بلا ضابط ولا رابط، تصلح للعمل بها فى إنجلترا، كذلك سأله إن كان يود تقويض الدين؟

«إن فى مقدورى وأنا أكتب أن أتبين الأسلوب الخبيث الذى أجاب به صديقى، فى نبرات جزعة مهزوزة «كلا، يا إلهى. إن كل ما أريده، فى بساطة، أن يوضع حد للقسوة التى يعامل بها الأطفال، والتى تشكل ملمحا يثير الهم والغم فى الحياة الإنجليزية، وكذا بالمثل ذلك الحب المتفانى الذليل للحيوانات المنزلية المدللة، والذى يقارب العهر والفحش». ولا بد أن كيتس قد تعثر عبر كل هذا الذى قيل. كان يكتب، باختزال، نقطا وفواصل خطية قصيرة، بينما بورسواردن يتأمل الأفق البعيد. إلا أن الصحفى الذى يجد فى مثل هذا النوع من الحديث المتبادل، غموضا وإبهاما، سوف تتضاعف حيرته من بعض الإجابات التى يتلقاها على أسئلته السياسية. إذ إن كيتس عندما سأل بورسواردن، مثلا، عما يراه بالنسبة لمؤتمر اللجنة العربية، والذى كان سيبدأ فى القاهرة، فى ذاك اليوم، فإنه أجاب، «عندما يحس الإنجليز

بأنهم مخطئون، فإن ملاذهم الوحيد، أن يقولوا ما لا يؤمنون به أو ينوون فعله»، «هل أفهم من ذلك أنك تنتقد السياسة البريطانية؟». «كلا بالتأكيد، فإن إدارة أمور الدولة لدينا رشيدة لا عيب فيها». وأخذ كيتس يروح، لنفسه بالمروحة ترويحا شديدا، مستبعدا، على الفور، كل الأسئلة السياسية من حديثهما. وقد أجاب بورسواردن عن السؤال «هل تنوى كتابة رواية أثناء وجودك هنا؟»، بقوله: «سوف أفعل ذلك، إن حرمت أنا نفسى من كل متعة تريحنى وترضينى».

«وقال كيتس المسكين، فيما بعد، وهو ما يزال يروح جبينه الملتهب بالمروحة، إنه ابن زنى، مزعج ومتعب، أليس كذلك؟». لكن الشىء الغريب، أنه لم يكن كذلك البتة. أين يمكن لمفكر حقيقى، أن يتخذ له ملاذا، فيما يسمى بالعالم الحقيقى، دون أن يحصن نفسه ضد الغباء، بالتدريب المستمر على الغموض والمغالطة؟ أخبرنى إن عرفت الإجابة. الشاعر، على وجه الخصوص، هو الذى يمكنه أن يفعل ذلك، بصورة علمية. ولقد قال بورسواردن ذات مرة، «الشعراء لا يأخذون الناس أو الآراء مأخذ الجد. إنهم ينظرون إليهم، كما ينظر الباشا إلى حريمه الزاخر بالنساء. إنهن حقا جميلات. إنهن للمضاجعة. إلا أنه لا مكان للتساؤل، إن كن مخلصات أو زائفات أو لهن مشاعر أو ضمائر. والشاعر، بهذه الطريقة، يحتفظ بطلاوة وجدة رؤيته. ويرى الإعجاز فى كل شىء. وهذا ما عناه نابليون عندما وصف الشعر بأنه «علم أجوف»(*). لقد كان محقا تماما من وجهة نظره».

«كان هذا العقل الضليع بعيدا عن أن يكون سوداويا، وإن كانت أحكامه نابية قاسية. لقد رأيته شديد التأثر وهو يصف عَمَى جويس

(*) بالفرنسية فى الأصل.

المؤلم ومرض د. هـ. لورنس، حتى إن يده ارتعشت وشحب لونه. لقد أطلعنى، ذات مرة على خطاب من لورنس إليه جاء فيه: «إننى أرى فى كلامك نوعا من الكفر - يكاد أن يكون كراهية للرقة التى تنمو سريعًا فى أعماق الأشياء، الآلهة الداكنة..». وضحك ضحكة خفيفة مكتومة. كان يحب لورنس بعمق. إلا أنه لم يتردد البتة، فى أن يرسل إليه، كتابة على بطاقة، «عزيزى د. هـ. ل. إن هذا الجانب يماثل عبادة الأصنام - إننى فى بساطة، لا أحاول تقليد نهجك فى بناء صرح، كتاج محل، حول أى شىء بسيط بساطة المضاجعة الجيدة».

«لقد قال لبومبال، ذات مرة: «أنت تمارس الحب، تصعيدًا للكبت وإحباطا للآخرين»(*). ثم أضاف «إننى شديد القلق على سباقى فى الجولف؟. وكان بومبال يحتاج على الدوام لبعض الوقت حتى يستنبط معانى هذه الأشياء غير المترابطة، فيتمتم من بين أسنانه، «أى خبيث ماكر، هذا الطراز من الناس»(*). وحينئذ، وحينئذ فقط، كان بورسواردن يسمح لنفسه بأن يقهقه ضاحكًا - وقد حقق انتصاره الشخصى. كانا زوجا رائعا، وقد اعتادا أن يشربا الكثير معًا.

«وتأثر بومبال لموته تأثرًا شديدا - قهره هذا الحدث، فألزمه الفراش أسبوعين. ما كان فى وسعه أن يتحدث عنه، إلا وتنساب الدموع من عينيه. وكان هذا يثير حنق بومبال نفسه فكان يقول: «إننى لم أدرك البتة كم أحببت هذا الرجل الذى يشبه اللغم». وكنت وأنا أستمع إلى بومبال، أسمع قهقهات بورسواردن الشريرة من كل ما يقول. كلا، إنك مخطئ فى تقديرك له. فقد كان نعته المفضل لك «أوفيش»(**)، أو هكذا قال لى.

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(**) UFFISH.

«كانت محاضراته العامة، كما تتذكر مخيبة للآمال. ولقد اكتشفت، فيما بعد لماذا هى كذلك. كان يتلوها من كتاب. كانت محاضرات شخص آخر. إلا أننى عندما اصطحبته، ذات مرة، إلى المدرسة اليهودية، وسألته أن يتحدث إلى أطفال الفريق الأدبى، كان ممتعا. لقد بدأ معهم بأن عرض عليهم بعض خدع أوراق اللعب. ثم هنأ الفائز بالجائزة الأدبية، طالبًا منه أن يقرأ الموضوع، الذى نال عنه الجائزة، بصوت مرتفع. ثم طلب من الأطفال «أن يدونوا فى كراساتهم، أشياء ثلاث يمكن أن تفيدهم، يوما ما إن لم ينسوها. وها هى تلك الأشياء الثلاث:

- إن كل من حواسنا الخمس يحوى فنا.

- يجب فى قضايا الفن، مراعاة قدر كبير من السرية.

- يجب أن يمسك الفنان بكل قبضة ريح.

«ثم أخرج من جيب معطفه الواقى من المطر، لفة حلوى هائلة، انهال الجميع عليها وهو معهم. وهكذا أكمل أنجح لقاء أدبى! انعقد فى هذه المدرسة.

«كان له بعض العادات الطفولية. كان ينقر أنفه، ويستمتع بخلع حذائه، أسفل مائدة المطعم، أثناء تناوله الطعام. إننى أتذكر مئات الاجتماعات التى كانت سلسة ومفيدة، بما اتسم به من المرح والتصرف على سجيته. إلا أنه ما كان يبقى على أحد، وبذا خلق الأعداء لنفسه. كتب ذات مرة إلى د. هـ ل.، وهو الأثير لديه، «أيها الأستاذ، أيها الأستاذ، راقب خطاك، إذ ليس فى استطاعة ثائر أن يستمر طويلا فى عصيانه، دون أن يتحول هو نفسه إلى مستبد طاغية».

«كان يقول: فى استحسان دافئ، عندما يرغب فى مناقشة عمل رديء من أعمال الفن، «إنه مؤثر للغاية». كان ذلك تظاهرا كاذبا. إذ إنه لم يكن مهتما بالفن إلى الحد الذى يجعله راغبا فى مجادلة الآخرين حوله، («كلاب تشمشم فى كلبة أصغر من أن يمتطيها أحد»)، ولذا فإنه كان يقول: «إنه مؤثر للغاية». وقد أضاف، ذات مرة، وكان ثملا، «إن ما هو مؤثر فى الفن، هو ذاك الذى يغتصب عواطف من يستمع إليك دون أن تغذى فيه ما لديه من قيم».

«هل ترى؟ هل ترى ما أعنى؟».

«كل ذلك شكل ثقلا ضاغطًا على جوستين، أشبه بطلقة وجهت إلى أوزة عراقية، فتناثرت أحاسيسها، وهو يقدم لها لأول مرة، شيئًا كانت قد فقدت الأمل فى أن تلقاه أبدا، ذلك هو الضحك. ولك أن تتصور، ماذا يمكن للمسة واحدة ساخرة أن تفعل بعاطفة سامية من عواطف الإنسان. قال لى بورسواردن، وكان ثملا، «أما عن جوستين، فإننى أنظر إليها كعجوز تثير الغيظ. إنها أشبه بباب للجنس دوار، يلزم على الأرجح أن نمر به جميعًا - إنها على نحو ما فينوس سكندرية ماكرة. بالله عليك، أى امرأة كان يمكن أن تكون، إن تصرفت بطريقة طبيعية حقا، دون أن تحس بالذنب. إن سلوكها يؤهلها للبنثيون - هيكل كل الآلهة. إلا أن المرء لا يمكنه إرسالها إلى هناك بتوصية من مجلس الحاخامات - وكأنها حزمة من هذيان «العهد القديم». ماذا يمكن أن يقول زيوس العجوز؟». ولمح فى عينىّ نظرة تأنيب وتوبيخ لهذه القساوة، فقال، فى شىء من الخجل والارتباك، «إننى آسف يا بلتازار. إننى، فى بساطة، لم أجرؤ على أن تكون علاقتى بها علاقة جدية. سوف أخبرك بالسبب يوما ما».

«أما جوستين، نفسها فقد رغبت رغبة حقيقية فى أن تكون علاقتها به علاقة جدية. إلا أنه رفض بصورة مطلقة أن يستحوذ على تعاطفها أو أن تشاركه توحده وانعزاله الذى كان يستمد منه الكثير من هدوء باله وتماسكه.

«وجوستين، نفسها كما تعلم، لم تكن تطيق الوحدة».

«كان عليه، كما أتذكر أن يحاضر فى القاهرة فى عدة جمعيات تنتسب إلى جمعيتنا الفنية. وطلب نسيم، الذى كان مشغولا، من جوستين أن تصطحبه بالسيارة إلى هناك. وبهذا وجدا نفسيهما معًا فى رحلة ألقت عليهما نوعًا من صور كالظلال السخيفة المضحكة لعلاقة حب، وكأنها صورة بارعة لمنظر طبيعى صادر عن مصباح سحرى. والغريب فى الأمر أن جوستين لم تكن هى التى خلقت هذه الصورة. كان صانعها أكثر خبثا، كان الروائى ذاته ـ فقد قال بورسواردن، فى حسرة، فيما بعد، «حسنا، لقد كنا أشبه ببونش وجودى»(*).

«كان فى ذلك الوقت غارقا حتى أذنيه فى الرواية التى يكتبها. ووجد، كالمعتاد، أن حياته قد بدأت تتبع، بصورة مشوهة، نفس الخط الذى يسير عليه كتابه. وقد فسر ذلك بقوله: «إن أى تركيز للإرادة يصبح بديلا عن الحياة، ويؤدى إلى انحراف حركتها (حمام ماء أرشميدس). كان يعتقد أن الحقيقة التى انبثقت عن خيال الإنسان، تحاول دوما أن تتطابق وهذا الخيال. وأنت ترى من هذا، أنه تحت ما كان يظهر منه من أعمال بهلوانية، كان هنالك إنسان جاد له آراؤه ومعتقداته الجامعة الشاملة. إلا أنه كان أيضًا قد شرب كثيرًا فى هذا اليوم، كما كان يفعل دوما عندما يكون غارقا فى عمله. أما فيما بين

(*) كوميديا بالدمى. (المترجم).

كتابته لكتبه فإنه لم يكن ليتذوق قطرة من شراب. وأحس، وهو يركب السيارة الكبيرة إلى جانبها، وهى الجميلة السمراء التى يزوق وجهها عينان واسعتان كمقدم سفينة إغريقية، بأن كتابه يمر سريعا تحت أحداث حياته وكأنه صفحة من ورق عليها برادة حديد هى الأحداث الدنيوية وكأن هنالك مغناطيس كما فى التجارب المدرسية، ينشأ عنه مجال يجذب ما حوله ويشده إليه، ليلتصق به.

«لم يكن يغازل أو يداعب جوستين. خذ بالك من هذا. كان إن تقرب إليها، فما ذلك فى بساطة إلا محاولة لإجراء بعض الأحاديث معها والتعرف على توجهاتها، حتى يتحقق ويتيقن من بعض النتائج التى توصل إليها فى كتابه قبل إرساله إلى الطباعة. إلا أنه كان، بالطبع، يؤنب نفسه فيما بعد، مر التأنيب، لإغراقه فى ذاته. كان يحاول فى ذلك الوقت الفكاك من إسار سخافة الشكل السردى للنثر الروائى، مثال: «قال»، «قالت» «مال بعينه تدللا، أطلق صفعة، رفع رأسا كسولا.. إلخ». هل كان فى إمكانه أن ينجح فى تعريف شخصياته، دون الاستعانة بمثل تلك الدعامات؟ كان يساءل نفسه، هكذا، وهو يجلس هنالك فوق الرمال. (وهفت أهدابها فوق وجنته. «يا لهذا الهراء»(*). هل هو من كتب هذا؟). إن أهداب جوستين الكثيفة السوداء أشبه بـ... أشبه بماذا؟ ولهذا كانت قبلاته دافئة حقا، نابعة من أعماق قلبه، إلا أنه كان يقبلها وهو شارد البال، لأن تلك القبلات لم تكن، بأى حال من الأحوال، موجهة إليها. (تلك واحدة من تناقضات الحب الكبرى. ففى التركيز على المحبوب والعمل على امتلاكه يكمن مقتله). لقد كشف لها حقيقة أنها كانت مضحكة،

(*) فى الأصل بالفرنسية.

وذلك بحكيه لها سلسلة من الفكاهات والنوادر التى كانت تمس عواطفها وتجعلها تأنس إليه فتضحك فى ارتياح يكاد يكون إثما. لم تكن نضارة بشرته وشعره ولا إقدامه على مطارحتها الغرام بطريقة كسولة لاحياء فيها، هو ما يثيرها فقط، بل كان تكامله الغريب فى ذاته هو ما أثار فيها فضول عواطفها بطريقة لم يكن لها بها عهد. ثم تلك الأشياء التى كان يقولها: «قرأت بالطبع كتاب «عادات»(*). وتعرفت عليك فيه مئات المرات باعتبارك شخصيته المأساوية المحورية. كل ذلك جيد. كتبه بالطبع كاتب مفطور تفوح منه، طبقًا للموضة، رائحة الإبط وماء الكلور. ولكن ألا ترين أنك، بالقطع، قد نسجت حول نفسك جوا من الأهمية، إلى حد ما، بهذا العمل فى مجمله؟ لقد تطاولت لتدسى نفسك علينا كمشكلة ـ ربما لأنك لا تملكين ما تقدمين غير ذلك؟ وهذا سخف وحماقة. أو ربما لأن اليهودى يجب أن يعاقب ويعود دوما لينال المزيد؟». وفجأة أمسك بها بقوة من قفاها، وطرحها فوق الرمال الساخنة قبل أن تكون قادرة على إدراك مدى المهانة التى حلت بها، أو تعد فى عقلها رد فعلها. وقال: بينما يقبلها، شيئًا مضحكا للغاية، فاختلط الضحك بالدموع فى عقلها، فتماثلت الأشياء، وغدت شيئًا واحدًا، وهو مزيج من الصفات التى يصعب على المرء أن يتحملها.

«قالت وقد قررت أن تتصرف كأنها غاضبة «ما هذا بحق السماء!». لقد فاجأها، إن شئت الحق، وعقلها نصف نائم.

«ألم تكونى راغبة فى المضاجعة؟ هل كان الخطأ خطئى!».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

ونظرت إليه وقد جردها تعبير وجهه الذى اتسم بالندم الساخر، من مقاومتها إلى حد ما.

«كلا، بالتأكيد كلا. نعم». وأخذ شىء ما فى أعماقها يكرر «نعم نعم». إنها علاقة لا تترك وراءها أثراً ولا بصمة. إنها شىء ما سهل وميسور كانسياب قارب فى مياه عميقة. وصرخت «أيها الأحمق». إلا أنها، لدهشتها، أخذت فى الضحك، هل هزتها قلة حيائه ووقاحته؟ لست أدرى. إننى فقط أضع على الورق ما أرى من رؤى.

«ولقد عللت الأمر لنفسها، فيما بعد، بقولها إن الجنس بالنسبة إليه، كان الشىء الأقرب للضحك - إنه متحرر تماما من أية خصوصية. لا هو بالمقدس ولا هو بالمبتذل. ولقد كتب بورسواردن نفسه بأن الجنس فى اعتقاده شىء هزلى خبيث وفائق الروعة فى آن واحد. إلا أنها لم تتمكن من الإمساك بمعنى أو تحديد تعريف لما تبتغيه، لأنها عندما قالت له: «إنك مثلى. مشوش العلاقات الجنسية بطريقة لا يرجى صلاحها»، ثار ثورة حقيقية، وغضب غضبا حقيقيًا، وقال: «أيتها البلهاء، إن لك روح الكتبة، لأنه لا شىء يضارع الشعر الحر(*) عند من يحبون الشعر». ولم تفهم مما قال شيئًا.

«ثم زجرها قائلا: «أوه، كفى عن التصرف وكأنك وسادة قديمة للخطيئة تتسم بالورع والتقوى، وعلينا جميعًا أن نغرس فيها دبابيس أعجابنا الصدئة». وأضاف فى يومياته بطريقة جافة، «الفراشات يجذبها لهيب الشخصية، وهكذا النساء مصاصات الدماء، وعلى الفنانين أن يدركوا ذلك، وأن يكونوا على حذر». ولعن نفسه وهو

(*) بالفرنسية فى الأصل.

ينظر فى المرآة، على هذه الغفلة، هذا الإغراق فى الذات الذى جلب عليه أشد ما يثير ضجره ـ أن يكون على علاقة وثيقة حميمة بأى أحد. إلا أنه رأى أيضًا فى وجه جوستين النائم تلك الطفولة التى تسكن أعماقها فى أول ليلة حب لها ـ وقد تناثر شعرها منسابا فوق الوسادة كيمامة سوداء منفوشة الريش، وأصابعها رقيقة دقيقة، وفمها الدافئ يستنشق أنفاس النعاس، كانت دافئة كتمثال من عجائن طازجة خارجة من الفرن لتوها. وصرخ بأعلى صوته، «يا للعنة».

«كانا معًا فى الفراش فى فندق ملىء بمن يعرفهم من السكندريين، والذين يمكن أن يلحظوا فى سهولة تهورهما وينقلوا الأقاويل إلى المدينة التى تركها هذا الصباح. وأخذ بورسواردن يسب ويلعن مرة أخرى. كان لديه، كما تعرف، الكثير الذى يخفيه ويداريه. لم يكن هو فى الحقيقة كما كان فى ظاهر الأمر. لم يكن يجرؤ، فى ذلك الوقت، على المساس بعلاقاته بنسيم. إننى أكاد أسمع صوته وهو يلعن تلك المرأة!

«أصغ . .»(*).

«ولا كلمة ـ اسكتى»(*).

«ولكن يا عزيزى، إننا بمفردنا»(*).

«كانت ما تزال ناعسة. وألقت نظرة على الباب المغلق بالمزلاج. وأحست لحظة، بالتقزز من هذا الخوف البورجوازى الذى ينتابه، الخوف منْ مَن، من الدخلاء. من الجواسيس أم من الزوج(*).

«ما الأمر؟»(*).

(*) بالفرنسية فى الأصل.

«إننى أستمع إلى نفسى»(*). عينان صفراوان لا أثر فيهما للألوهية. كان أشبه بإله صخرى ممشوق القوام، أشعث الشارب. أى ذكرى أيام مضت؟ «القلب النابض»(*). وانتقى أغنية شعبية أخذ يغنيها ساخرا.

«أنت لست المرأة التى تصلح لى - أو الطراز الذى أحبه»(*).

«وأحست هى إحساس الكلب الذى نالته الأسواط، خاصة وأنه كان، منذ فترة وجيزة، يقبلها، يخضعها بإلحاح لصور متتالية من اللذة والألم، تدرك هى الآن، أنها لم تكن تعود إلا إلى شبقه ولا تعود إلى شخصه بذاته.

«قالت»، ماذا تريد؟». ولطمته على وجهه لتحس، على الفور، بالرد الحاد يلسع وجنتها كرذاذ انهمر عليها. وعاد مرة أخرى إلى بهلوانيته حتى إنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك.

«إن هذه الترجمة الغريبة للمشاعر بحركات وإيماءات تناقض ما تقول من كلمات، والكلمات التى تناقض ما تأتيه من حركات وإيماءات، قد أربكتها وأفقدتها القدرة على تحديد توجهها، فغدت فى حاجة لمن يرشدها، متى تضحك ومتى تبكى.

«أما بالنسبة لبورسواردن، فقد كان يؤمن بما يؤمن به «ريلكه» من أنه لا توجد امرأة يمكنها أن تضيف شيئا إلى مجمل المرأة - واتخذ مما امتلأت به نفسه ملاذا يفيض بوافر الخيال - وهو المجال الحقيقى الذى يتميز به الفنان. ربما كان هذا ما جعله يبدو، إلى حد ما، باردا بلا إحساس وقالت له، «هنالك فى أعماقك، فى مكان ما، يكمن رجل

(*) بالفرنسية فى الأصل.

دين أنجليكانى، قمىء وكريه». وفكر باهتمام مليا فى ملاحظتها المتميزة وقال. «ربما». ثم أضاف بعد فترة صمت، «إلا أن افتقادك للدعابة والمرح قد جعل منك عدوة للمتعة. أنت العدو ذاته. إن لك رؤية مسبقة للتجربة والمعاناة. أما أنا فإننى وثنى حقيقى». وأخذ يضحك. إن الصدق الصريح يمكن أن يكون أشد قسوة من أى شىء آخر.

«إننى أعتقد أيضا أنه كان برما من كل هذا «الطين الذى تقذفه عجلات الحياة» ـ كما كتب «لقد فعل كل ما فى وسعه ليمسح أكبر قدر منه، ليرتب حياته وينظمها. فهل كان عليه أن يربط نفسه الآن كالسرج إلى فضول هذه الجوستين ورغباتها المتأججة ـ وهى الشخصية التى انتهت إلى المستنقع، تلك النهاية التى كان قد تجاوزها وتفوق عليها. لقد قال لنفسه، «لا، والله». أترى أى أحمق كان؟

«كانت حياته زاخرة متنوعة. كان قد تعاقد على العديد من المراكز الوظيفية لأحد الفروع السياسية لمكتب أجنبى هو فى الغالب، كما عرفت، مرتبط بالعلاقات الثقافية. وقد مكنه هذا العمل من السفر إلى بلدان عديدة، كما أنه يجيد لغات ثلاث على الأقل. كان متزوجا وأبا لطفلين. ورغم أنه كان منفصلا عن زوجته ـ وحقيقة لم يكن يتحدث عنها أبدا إلا وتلعثم ـ فإنهما كانا، كما فهمت، يتراسلان بود وحنان. كان، على الدوام رقيقا للغاية فى إرسال نقود إليهما. وماذا غير ذلك؟ حسنا، كان اسمه الحقيقى بيرسى، إلا أنه كان يعانى الحساسية، إلى حد ما، لما فى هذا الاسم من جناس، ومن هنا، كما أعتقد، جاء اختياره لاسم لودفيج يوقع به على كتبه. كان يسعد، دوما، عندما ينظر إليه الصحفيون، الذين يجرون معه الأحاديث، باعتباره من أصل ألمانى.

«إننى أعتقد أن أكثر ما أسعد جوستين وأخافها منه، على أى حال، كان رفضه فى إزدراء إلى حد ما، للأرناؤوطى وكتابه «عادات». خذ بالك، لقد كان هذا، أيضا، مبالغة منه ـ فقد كان، فى الواقع، معجبا بالكتاب أشد الإعجاب. إلا أنه استخدمه كعصا يوسع بها جوستين ضربا، واصفا زوجها السابق بأنه كان، «سجانا متعبا يميل إلى التحليل النفسى، وقد تمنطق بحزام ملىء بالعقد النفسية الصدئة». يجب أن أذكر أن هذا القول كان يسعدها. إنها، كما ترى، قد عثرت على امرئ لا يلجأ إلى الرطانة، كما يأبى النظر إليها باعتبارها حالة من الحالات المرضية. كان بورسواردن بالطبع، وهو الغبى الأبله، يحاول، فى بساطة، أن يتخلص منها، ولم تكن تلك الطريقة ناجعة تماما. ومع هذا، فإننى، كطبيب، أشهد بما للإهانات من آثار علاجية حيثما يفشل الدواء فى تحقيق أى تقدم نحو الشفاء. وفى الحقيقة، لو كانت جوستين قد نجحت فى إثارة اهتمامه العقلى، لتعلمت منه الكثير من الدروس القيمة. أليس هذا أمرا غريبا؟ لقد كان هو بالفعل الرجل الذى يناسبها بصورة ما. ولكن، كما لا بد أن تعرف، وطبقا لقانون الحب، فإن ما يسمى بالرجل المناسب يأتى، دوما، مبكرا للغاية أو متأخرا للغاية. أما عن بورسواردن فقد تراجع عنها بطريقة فجائية للغاية، حتى إنه كان فى العسير عليها أن تتعرف على قوة شخصيته كاملة.

«كان، فى الوقت الذى أكتب عنه، مشغولا بإهانتها فى إنجليزية أو فرنسية فطرية متقنة. (كان له عدد قليل من كلمات التدليل التى ابتدعها، والتى كان يسعده استخدامها ـ كانت إحداها كلمة «قشرة الكستناء»، وهو قد اشتقها من كلمة هجاء تقاربها فى الحروف هى كلمة «زائف». «يا لها من زائفة ملعونة»)(*). كان يهينها، إن كان فى

(*) بالفرنسية فى الأصل.

وسع المرء استخدام هذا التعبير، ليثبط من عزمها. لكنه يجب القول إنه كان من العسير علىّ أن أكتم ضحكتى عندما أفكر فى ذلك. إذ إنه يمكنك أن تثبط عزيمة جوستين إن أنت أثبطت عزيمة الشمس فى مدارها. كما أنها لم تكن على استعداد للتخلى عن هذه التجربة قبل أن تكون قد تعرفت، بأكبر قدر ممكن، على نفسها من خلالها. إنها صفة يهودية يحكمها السلب والنهب. لقد كان بورسواردن كالطبيب فوستر فى أغنية غرفة الأطفال.

«كان فى وسعه أن يبتعد عنها فى سهولة مما كان يمنحه جدة القلب وحيويته. إن جوستين لم تعرف من قبل أحدا لا يشتهيها أو يستطيع العيش بدونها! إن كل الأصوات والأصداء، الجديدة عليها، كانت تنساب كالينبوع عندما تضاجع مثل هذا الرجل. (هل تظننى أخترع ذلك؟ كلا، فأنا أعرفهما جيد المعرفة، وقد ناقشت رأى كل منهما فى الآخر). ثم إنه كان يستطيع إضحاكها - وإضحاك المرأة هو أخطر ما يمكن أن تفعله بها، إذ إنهن يعلين من قدر الضحك كثيرا، فلا يتفوق عليه غير الهوى. هل تظن أن هذا هو الهلاك بعينه! كلا، فإن بورسواردن لم يكن مخطئا عندما كان ينظر إلى نفسه فى المرآة ويقول، «لودفيج، إنه أبله».

«والأسوأ من ذلك، أن السخرية التى كانت تصاحب قسوته، كانت تصيبها بالأذى. كانت بعد أن تضاجعه، مثلا، تفكر على هذا النحو، «إنه يفعل ما يفعل فى بساطة، مثلما يصبح السلوك فى المنزل عادة. كتنظيف حذائه على الحصيرة. كانت تصدر عنه، فجأة، جملة شديدة السخرية، كأن يقول مثلا، «إننا جميعا نبحث عن شخص ظريف ممتع حتى نخونه - هل ظننت أنك مبدعة لا نظير لها؟»، «يا لهذا الجنس البشرى! إنك إن لم تستطيعى تحقيق رغبتك وأنت تضاجعين هذا الذى

فى متناولك، فلماذا لا تغلقين عينيك وتتخيلين ذلك الذى لا تستطيعين أن تناليه. من ذا الذى يدرى؟ الأمر مشروع تماما، كما يحيطه الكتمان. إنه الزواج الحقيقى للعقول». كان يقف عند حوض الغسيل ينظف أسنانه بالنبيذ الأبيض. وكان فى وسعها أن تقتله لما كان يبدو عليه من مرح وتحكم فى ذاته.

«وتشاجرا عدة مرات أثناء عودتهما من القاهرة. كان يقول لها، «ألم تفكرى ولو لمرة واحدة، أن ما يسمى بمرضك، قد يرجع إلى شعورك الحاد بالإشفاق على ذاتك؟». واشتد بها الغضب حتى كادت تخرج بالسيارة عن الطريق وتصطدم بإحدى الأشجار. وصرخت وهى تكاد تبكى، «أيها الأنجلو ساكسونى الحقير. أيها القواد العربيد!».

«وفكر فيما بينه وبين نفسه. يا للسماوات! ها نحن نتشاجر كزوجين حديثا عهد بالزواج. وعما قريب سوف نتزوج ونعيش فى انسجام ووئام قذر، نقتات وجوه بعضنا البعض. أف! ما أبشع التماثل للزواج النموذجى. بيرسى، لقد انتهيت وفعلتها ثانية». فى استطاعتى إعادة بناء كل هذا، حيث كان، أن سكر، تحدث إلى نفسه بلغة أهل لندن، تماما كما كان يحدث نفسه عندما يكون منفردا.

«قال لها، وهو يحس السعادة، إن أنت حاولت ضربى فسوف تتسببين فى حادثة تحطم السيارة». وفكر فى موضوع قصة قصيرة مريرة، يمكنه إدخالها فى ثناياها. وتمتم لنفسه، «هنالك حاجة لتحديد معامل التقلبات المفاجئة للعلاقات العاطفية، توطيدا لدعائم الجنس فى الفن». كانت ما تزال غاضبة، فسألته، «ماذا تتمتم؟!» فقال، «إننى أصلى».

«لم يكن ما تبقى لها، بعد أن ضاجعها تقززا أو يأسا، كما اعتادت، بل كان ضحكا. ومع أنها كانت تستشيط منه غضبا، إلا أنها وجدت نفسها تبتسم لحماقة قالها أو رقاعة فعلها، رغم أنها كانت تدرك، فى ألم ولوعة، أنه ليس بالرجل الذى يمكنها أن تقتنصه أو حتى تحوز صداقته إلا بشروطه الخاصة. كان يقدم لها رغبة بلا عاطفة أو حسن مؤانسة، لكن العجيب أن ذاك الأمر كان يجعل لقبلاته معها وقعا مثيرا. كان كلاهما يتمتع بصحة جيدة أشبه بصحة طفل جائع يقضم تفاحة مطهية. وكانت، وهى تحس الندم فى جزء آخر من عقلها (إذ كانت هنالك فى مكان ما من أعماقها، امرأة صادقة مستقيمة)، تأمل ألا يهجر هذا الوضع الذى يتحصن وراءه أو يتراجع عنه. إن جوستين، مثلها مثل كل النساء، تكره الرجل الذى يكون طوع بنانها، وعليك أن تتذكر أنه لم يكن فى حياتها البتة، من أعجبت به هذا الإعجاب الكلى - رغم أن هذا قد يبدو غريبا على مسامعك. هنا، أخيرا، وجدت إنسانا لا تستطيع أن تعاقبه بخياناتها له - شخص لا يطاق ولا يحتمل، لكنه كالبدعة يتسم بالجدة. إن النساء غبيات للغاية، وهن بالمثل أيضا، بعيدات الأغوار.

«وأدهشت جوستين تلك المشاعر الجديدة عليها، والتى يبدو أنه كان قادرا على استثارتها فيها. إنها تتجسد فى أشياء بسيطة للغاية - فقد وجدت، مثلا، أن حبها له قد امتد ليشمل أشياء تخصه، أشياء لا حياة فيها كغليونه القديم المصنوع من الطين وعنقه المصنوع من لحاء الشجر، أو قبعته العتيقة التى أبلاها الاستعمال وصبغتها التغيرات الجوية - كانت معلقة هناك خلف الباب. كلوحة الرجل ذاته، رسمت بالألوان المائية. لقد وجدت نفسها تتعلق فى حدب بالأشياء التى كان قد لمسها أو ألقى بها جانبا. كان يثير غضبها ما بدالها نوعا من وقوعها تحت إساره

العقلى. كأن تجد نفسها تمسح بيدها فوق واحدة من كراساته القديمة وكأنها تملس على جسده. أو تتابع بأصابعها كلمات كتبها فوق المرآة بفرشاة الحلاقة (كلمات مأخوذة عن ستندال): «يجب أن تواجه بشجاعة شيئا من تشريح الذات إن كنت تبغى اكتشاف مبدأ لم يكتشف بعد» و«إن النفوس العظيمة تحتاج إلى ما يغذيها ويخصبها».

«وعثرت، ذات يوم، على بغى عربية فى فراشه (بينما كان يحلق ذقنه فى الغرفة الأخرى، ويصفر لحنا من ألحان دونيزيتى). وأدهشها أنها وجدت نفسها لا تحس الغيرة وإنما تحس الفضول. فجلست على الفراش وأمسكت بذراعى الفتاة المنكودة تضغطها، وهى تستجوبها فى دقة عما أحسته بينما كانت تضاجعه. وقد أفزع ذلك، بالطبع، البغى فزعا شديدا. وأخذت جوستين تكرر لتلك المخلوقة التى كانت تنتحب بصوت مرتفع «أنا لست غاضبة، إننى حائرة، وعليك أن تجيبى عما أسألك عنه».

«وجاء بورسواردن ليحرر زائرته. ثم جلس ثلاثتهم معا فوق السرير، وجوستين تطعم الفتاة الفاكهة المسكرة لتهدئ من روعها.

«هل أستمر فيما أكتب؟ قد يصيبك هذا التحليل بالألم - لكن إن كنت كاتبا بحق، فعليك متابعة الأشياء حتى نهايتها. أم إنك ترى غير ذلك؟ إن كل هذا يبين كم كانت الأمور شاقة على ميليسا...

«ولإن كان قد نجح فى إثارة غضبها الجامح، فذلك لأنه كان فى وسعه الاهتمام بها دون أية مودة حقيقية. لم يكن على الدوام بهلوانى التصرفات، أو بعيدا عن متناول يدها، وهذا ما أعنيه بصدقه واستقامته. كان يولى النقود أهمية ذهنية - وهو، فى الواقع، قد أخبرها بالسر الحقيقى الذى يكمن وراء لغز مسلكه. سوف تجد ذلك فى واحد

من كتبه. إننى أعرف ذلك لأن كليا قد ذكرته لى كاقتباس عنه، يعكس أعمق عبارة له عن العلاقة الإنسانية لقد قال لها ذات ليلة، «إننى أؤمن، كما ترين يا جوستين، بأن الآلهة رجال، والرجال آلهة. إنهم يتطفلون على حياة بعضهم البعض، يحاولون التعبير عن أنفسهم من خلال بعضهم البعض. ومن هنا جاء هذا الارتباك والخلط الظاهر فى حالتنا العقلية البشرية... ثم (واستمعى إلى ما أقول) إننى أعتقد أن عددا قليلا للغاية من الناس يدركون أن الجنس إنما هو فعل نفسى وليس فعلا جسديا. وأن المضاجعة الخرقاء التى يقوم بها البشر إنما هى مجرد صياغة بيولوجية أخرى لهذه الحقيقة - إنها وسيلة بدائية لتعريف العقول وربطها ببعضها البعض. إلا أن غالبية الناس تتمسك بوجهة النظر الجسدية، غافلين عن الشاعرية التى يحاول هذا الفعل الجسدى أن يعلمها لهم بطريقة فجة. وهنا يكمن السبب وراء كل ذلك التكرار الخالى من أية بهجة، لنفس الخطأ. إنه، فى بساطة، يماثل تكرار جدول الضرب الممل، وسوف يظل كذلك حتى تخرجين برأسك من أوهامه، وتبدئين التفكير بطريقة مسئولة».

«من الصعب أن أصف لك تأثير هذه الكلمات عليها: كانت إنقاذا ونجدة ألقت بحياتها وأفعالها فى طريق جديد تمام الجدة. وتراءى لها فجأة، فى ضوء جديد، كرجل يمكن للإنسان أن يحبه «حبا حقيقيا». ولكن واأسفاه، كان هو قد انسحب بالفعل فى حياتها.

«وعندما ذهب إلى القاهرة فى مرة تالية، آثر أن يذهب بمفرده. وقلقت هى لغيابه، فوقعت فى خطأ كتابة رسالة عاطفية مطولة إليه، حاولت فيها، بطريقة فجة، أن تشكره على صداقته. كان هو غافلا تماما عن القيمة الحقيقية لتلك الرسالة بالنسبة إليها - وهو، مرة أخرى،

أمر يصدق على كل حب. ورأى فى رسالتها مجرد محاولة أخرى لفرض تدخلها فى حياته، فأبرق إليها يقول: (كانا يتراسلان عن طريقى. وما زلت أحتفظ بهذه البرقية).

«أولا، لا يستطيع أى إنسان أن يمتلك الفنان، فكونى على حذر. ثانيا، ما جدوى أن يكون الجسد وفيا والعقل خائن بطبعه؟ ثالثا، كفى عن النواح والشكوى كامرأة عربية، فأنت تعرفين ذلك خيرا منى. رابعا، إن مرض الوسوسة العصبية ليس عذرا أو مبررا، فالصحة يمكن أن تنال وتكتسب بالقتال والمجاهدة. وأخيرا، فإنه لأشرف لك، إن لم تستطيعى الفوز أن تشنقى نفسك».

«ولقد عثرت هى عليه، ذات مرة، فى مقهى الأقطار. كنا، أنا وأنت، كما أعتقد، قد غادرناه للتو. هل تتذكر ذلك المساء؟ كان ميالا إلى توجيه الإهانات. إنه ذلك المساء الذى حاولت أنا فيه أن أشرح لك كيف يدار مشروع القابال ذا النقاط التسع. ولم أكن أدرى حينئذ أنك سوف ترسل بكل هذا إلى دائرة الاستخبارات السرية. يا لها من مزحة لا تصدق! إلا أننى أحب الإحساس بالأحداث وهى تتداخل، تزحف فوق بعضها البعض، كسرطانات بحرية مبتلة موضوعة فى سلة. ما إن غادرنا المقهى حتى دخلت جوستين. كانت هى التى ساعدته كى يعود إلى الفندق ودفعته سالما إلى فراشه، وصرخت فيه وهو مستلق. «أوه، إنك أكثر الرجال مدعاة لليأس». وهنا رفع ذراعيه مستجيبا لانفعالها «إننى أعرف ذلك! إننى أعرف ذلك! فما أنا غير لاجئ من الحياة الإنجليزية البطيئة الأشبه بألم الأسنان. ما أبشع أن يحب الإنسان الحياة بهذا القدر حتى إنه يكاد ألا يتنفس!». ثم بدأ يضحك ضحكة طغى عليها شعور بالغثيان. وتركته هنالك عليلا يتقيأ فى حوض الغسيل.

«توجهت إليه مبكرا فى صباح اليوم التالى، ومعها بعض الكتابات النقدية الفرنسية والتى اشتمل إحداها على مقال حول كتابه. لم يكن يرتدى شيئا غير سترة المنامة وعويناته. كان قد كتب فوق المرآة بفرشاة حلاقة مبتلة، بعض الكلمات نقلا عن تولستوى. «إننى لن أكف عن تأمل الفن وإمعان الفكر فى كل الأشكال المغرية التى تطمس الروح».

«أخذ الكتب منها دون أن تصدر عنه كلمة. بدا وكأنه سوف يغلق الباب فى وجهها، فقالت، «كلا - سوف أدخل» - فتنحنح قائلا، «سوف تكون تلك هى المرة الأخيرة. لقد سئمت أن أزار كما يزور البعض قبر قطيطة ميتة. فأخذته بين ذراعيها، فقال بطريقة أكثر رقة، «سوف تتوقفين عن زيارتى نهائيا، وبصورة كاملة. هل فهمت ما أعنى؟».

«فجلست على حافة الفراش وأشعلت سيجارة وهى تتأمله كما يتأمل المرء عينه من العوينات. «إننى حريصة، بعد كل ما قلته أنت عن امتلاك الذات والمسئولية، على التعرف على نصيبك من أنجلو ساكسونيتك - وأنت العاجز عن إكمال أى شىء تبدأه. لماذا تبدو وكأنك تختلس شيئا ما؟». كان هذا، منها، خطًا هجوميا رائعا. فابتسم. «سوف أعمل اليوم».

«حينئذ سوف أحضر لك غدا».

«سوف أصاب بالزكام غدا».

«أحضر بعد غد».

«سأكون فى طريقى إلى حديقة الحيوان».

«وأنا أيضا».

«أصبح بورسواردن شديد الوقاحة. كانت تدرك أنها قد سجلت نصرا، وكان ذلك يبعث البهجة فى صدرها. واستمعت إلى إهاناته، الحلوة كالشهد، وهى تدق السجادة بقدمها. وأخيرا قالت، «حسنا جدا. سوف ترى». (أخشى أنه يجب عليك أن تدبر حيزا فى كتابك عن المهزلة الأساسية للعلاقات الإنسانية. إنك لم تعط لها إلا مكانا محدودا للغاية). وأخرجها فى اليوم التالى من حجرته بالفندق، ممسكا بها من عنقها، كما تمسك بقطة مستأنسة. وأفاق فى اليوم الذى يليه ليجد السيارة الكبيرة تقف خارج الفندق. وصرخ، «يا للقرف». وارتدى ملابسه وذهب إلى حديقة الحيوان، فقط، لإثارة غيظها. وتبعته إلى هناك. وأمضى الصباح يتفرج على القردة فى اهتمام بالغ. ولم تكن هى عمياء عما لحق بها من إهانة. وتبعته إلى دكة كان يجلس إليها يأكل الفول السودانى الذى كان قد اشتراه خصيصا للقردة. كانت تبدو دوما رائعة عندما تكون غاضبة، وفتحتا أنفها ترتعشان، وقد ارتدت تلك البذة الناصعة من الشارك سكين، وقد وضعت زهرة فى طية سترتها.

قالت وهى تجلس، «بورسواردن».

«فقال، «لم تصدقى أنت ما قلت لك، يا سيدة المجتمع اللعينة المتعبة المتسلطة. دعينى منذ الآن، وفيما بعد، لحالى. إن مالك لن يجديك نفعا».

«كان استخدامه مثل هذه اللغة معها دليل غبائه. كانت سعيدة أنها قد استثارت رعبه إلى هذا الحد. أنت تعرف بالطبع كم هى قوية العزيمة. إلا أنه كان هنالك سبب آخر ـ واستطاعت هى أن تستشف وجود مسألة حقيقية تكمن وراء تلك الإهانات ـ مسألة تتعلق بعلاقتهما كما كانت عليه. إنها شىء آخر. ما هو هذا الشىء؟

«لقد لاحظت أنت أنها تتمتع بقدرة، لا تخطئ، على قراءة الأفكار. قالت، وهى تجلس إلى جواره تراقب وجهه كمن يقرأ متنا ردىء الصياغة، «إنه نسيم، هنالك شىء له علاقة بنسيم. أنت خائف.. لكنك لست خائفا منه». وفى سرعة البرق تواصلت فراستها وحدسها، فاندفعت تقول، «هنالك شىء ما يتعلق بنسيم، وأنت لا تقبل بالمساومة حوله. إننى أفهم ذلك». ثم أطلقت زفرة عميقة، «أيها الأحمق، لماذا لم تخبرنى؟ هل علىّ أن أهدر صداقتك بسبب هذا الشىء؟ كلا بالقطع. إننى لا أعبأ إن كنت تبغى أو لا تبغى النوم معى. ولكن أنت نفسك ـ ذاك أمر آخر. حمدا لله أننى قد اكتشفت ما كنت تخفيه!».

«وبهت مما سمع حتى إنه لم ينطق حرفا. أدهشته قراءتها لأفكاره أكثر مما أدهشه أى شىء آخر له بها علاقة. فأخذ يحملق فيها مدة من الزمن طويلة، دون أن يقول شيئا. واستمرت تقول، «أوه، إننى سعيدة، فتلك مسألة يمكن تدبيرها فى سهولة شديدة. كما أنها لن تمنعنا من اللقاء. إننا لن نحتاج البتة للنوم معا، مرة أخرى، إن لم تكن ترغب فى ذلك. لكنه سوف يكون، فى مقدورى، على الأقل، أن ألقاك». إنه نوع آخر من «الحب الوحشى» الذى يعجز المرء عن تعريفه. إنها على استعداد، الآن، لأن تخوض، من أجله، عبر النيران.

«كان صمت نسيم قد فرض نفسه على أجزاء كبيرة من عقلها. كان يمتد إلى كل جانب كما تمتد الصحراء ـ يفل من عزيمتها. ولما كان ضميرها بطبيعته، ودون سبب ما، ضميرا آثما، فإنها كانت قد بدأت، بالفعل، بناء حلقة دفاعية من الأصدقاء حولها. أصدقاء لا ضير من وجودهم، إلا أن هذا الوجود يبعد الشبهة عنها ـ كان هذا البلاط

المحدود مكونا من الشواذ جنسيا أمثال توتو وعمار، اللذين كانت نشاطاتهما وميولهما معروفة لكل امرئ تمام المعرفة حتى إنها لا تثير أية حرقة فى القلوب. كانت تتحرك ككوكب نافر فى الحياة الاجتماعية للمدينة. تتقبل اهتمام هؤلاء الخناث كأداة دفاعية خالصة. إنها نفس الطريقة التى يتبعها جنرال فى الحرب، مستفيدا من معالم المدينة التى يود الدفاع عنها، وذلك ببناء حلقة وراء حلقة من ركام التراب كمتاريس للتحصين. ولم تكن تدرى أن صمت نسيم لم تكن له دلالة غير اليأس، لا التربص - لأنه لم يخرج أبدا عن صمته.

«إنك فى مخطوطاتك نادرا ما تذكر مشكلة الطفلة - ولقد أخبرتك، ذات مرة من قبل، أننى أعتقد أن أرناؤوطى قد تجاهل هذه المسألة فى كتابه «عادات»، لأنها بدت له كتمثيلية ميلو درامية. يقول بورسواردن فى مكان ما، إن كل الأشياء بالنسبة لهؤلاء الذين لم ينجبوا أطفالا، إنما هى أشياء بلا طنين أو رنين». إلا أن مشكلة الطفلة بالنسبة لنسيم كانت هامة، كأهميتها لجوستين ذاتها - كانت الطفلة هى وسيلته الوحيدة للحصول على الحب الذى اشتهاه منها - أو هكذا كان يفكر. وانقض على لب المشكلة فى حدة، معتقدا أن ذلك هو السبيل الوحيد لاختراق الدرع الحصين لزوجته الجميلة الصامتة، الزوجة التى تزوجها وعلقها من معصمها فى ركن حياته كبيت العنكبوت، أشبه بعروسة من عرائس المسرح تمسك بها الخيوط. حمدا لله أننى لم «أحب» ولن «أحب» قط، أيها الرجل الحكيم، حمدا لله!

«ويكتب بورسواردن فى مكان آخر (نقلا عن كليا مرة أخرى). «تحتوى اللغة الإنجليزية على كلمتين عظيمتين طواهما النسيان: «الرفيق المعاون»، وهى كلمة أعظم بكثير من كلمة العاشق»: والكلمة الأخرى

«رقة المحبة»، وهى كلمة أعظم بكثير من كلمة «الحب» أو حتى «الشهوة».

«وسمعت جوستين يوما، مصادفة، محادثة هاتفية جعلتها تعتقد أن نسيم يعرف مكان الطفلة المفقودة أو يعرف شيئا عنها ولا يود الكشف عنه لها. إذ بينما كانت تعبر القاعة رأته يضع سماعة الهاتف بعد أن قال، «حسنا إذن. إننى أعتمد على تقديرك للأمر. يجب ألا تعرف هى بذلك أبدا». ألا تعرف أبدا، ماذا؟ ومن المقصود بهى تلك؟ ولها عذرها إن قفزت إلى النتائج. وعندما لم يحدثها نسيم عن المكالمة الهاتفية بعد عدة أيام، جابهته. وهنا وقع فى ذلك الخطأ القاتل، خطأ إنكارها تمام الإنكار. قال لها، إن ما سمعته إنما كان محادثة، أخطأت فهمها، مع سكرتيره الخاص. ولو أنه أخبرها، بأن المكالمة كانت تتعلق بموضوع آخر مختلف تمام الاختلاف، لكان ما فعله هو الصواب بعينه، لكن اتهامه لها بأنها لم تسمع الكلمات التى كانت تجلجل فى أذنيها منذ أيام عديدة، كجرس الإنذار، كان خطأ قاتلا.

«وفقدت ثقتها فيه دفعة واحدة. وبدأت تتخيل وقوع كل أنواع الأحداث. لماذا يود أن يخفى عنها، أى نبأ توصل إليه عن طفلتها؟ لقد كان وعده الأساسى، رغم كل شىء، أن يفعل كل ما فى وسعه للتعرف على مصيرها. هل اكتشف شيئا بشعا إلى حد ألا يتحدث عنه؟ بالقطع إن كان حقا قد توصل إلى شىء فهو لا بد سوف يخبرها به. لماذا يخفى عنها أى نبأ يفترض معرفته؟ إنها فى بساطة، عاجزة عن التخمين. إلا أنها فى أعماقها، كانت تحس، على نحو ما، أن النبأ قد أمسك به عنها كما يمسك بالرهينة ـ فى مقابل شىء ما ـ ما هو هذا الشىء؟ أن تسلك سلوكا طيبا؟

إلا أن نسيم الذى كان قد حطم بهذا التصرف الأخير الفج، آخر مسحة تقدير كانت تكنها له، كان يصارع مجموعة جديدة من العوامل. كان هو نفسه قد علق آمالا كبارا على استرجاع الطفلة كوسيلة لاسترجاع جوستين نفسها. إنه، فى بساطة، لم يجرؤ على إخبارها - أو فى الحقيقة إخبار نفسه، فقد كان الأمر شديد الألم - إذ إن ناروز بعد أن استنفذ كل وسائل البحث محاولا الوصول إلى الحقيقة، اتصل به هاتفيا فى ذلك اليوم ليقول له، «لقد رأيت المجذوب، مصادفة، فى الليلة الماضية، واستخلصت الحقيقة منه قسرا. لقد ماتت الطفلة».

وقد وقف ذلك الحديث بينهما كسور الصين العظيم، فاصلا فيما بينهما، باعثا فيها الخوف خشية أن يكون قد انتوى بها شرا. وهنا دخلت أنت مسرح الأحداث».

* * *

نعم، ويا للأسف، أدخل أنا مرة أخرى، ففى هذا الوقت، تقريبا، جاءت جوستين لحضور محاضرتى عن كافافى. وأخذتنى من هناك لألقى نسيم المهذب الرقيق. فعلت ذلك فى بساطة، لكنها كانت كفأس شق حياتى إلى نصفين. كم أحس اليوم بمرارة أعجز عن التعبير عنها، وقد أدركت أنها كانت تستخدمنى لغرض خاص بها. هذا الوحش المسخ تسحبنى أمام نسيم كما يسحب مصارع الثيران العباءة لأكون ساترا يخفى لقاءاتها بالرجل الذى لم تكن هى ذاتها راغبة فى النوم معه. إلا أنى سبق وتناولت كل ذلك بالوصف التفصيلى، وأنا أحس الألم العميق - محاولا ألا أحذف كلمة مهما كانت أو نكهة يمكن أن تعطى صورة ذلك التلاحم الذى أحسست أنها تحتويه. ومع ذلك،

وحتى الآن، فإننى أكاد ألا أشعر بالندم على تلك العلاقة الغريبة الرفيعة التى غمرتنى بها - دون أن تدرى، كما أعتقد، مدى قدرتها وسيطرتها، والتى تعلمت أنا نفسى منها الكثير. نعم، لقد أغنتنى حقا، لكنها ما كانت إلا لتحطم ميليسا. يجب أن نواجه مثل تلك الأمور. إننى أتساءل لماذا أُخبر الآن، فقط، بمثل كل تلك الأشياء؟ أن أصدقائى، بالضرورة، كانوا يعلمون كل ذلك منذ زمن طويل. ومع ذلك فإن أحدا منهم لم ينطق بكلمة. والحقيقة التى لا جدال فيها، أن أحدا لا يتلفظ بكلمة، وأحدا لا يتدخل، وأحدا لا يهمس، بينما لاعب الأكروبات يسير فوق الحبل المشدود - إنهم يجلسون، فقط، يرقبون المشهد، ليظهروا الحكمة بعد انتهاء الحدث. ولكن، من وجهة النظر الأخرى، كيف كنت سأتلقى تلك الحقائق الثقيلة على النفس، فى حينها، وقد أعمانى حبى لجوستين وولهى بها؟ هل كان يثنينى ذلك عن غايتى؟ إننى أشك فى ذلك.

إن ما فعلته جوستين فى كل ما حدث، كما أعتقد، هو تنازلها لى عن واحدة من ذواتها العديدة التى تمتلكها وتأهل بها - تنازلت لهذا المحب الخجول المتبحر فى العلم والذى يعلق الطباشير بكم ردائه!

أين يجب على المرء أن يبحث عن المبررات والأعذار؟ إنها تتواجد، كما أعتقد، فى الحقائق وحدها، فهى التى قد تعيننى، الآن، على رؤية أعمق قليلا لجوهر ذلك اللغز الذى يدعى «الحب». إننى أرى، الآن، صورته تنحسر، تتلوى بعيدا عنى فى سلسلة لا نهائية كأمواج البحر، أو أشد برودة من قمر ميت ينهض فوق الأحلام والأوهام التى اختلقتها - إلا أنه يحتفظ دوما، كما يحتفظ القمر الحقيقى، بجانب واحد من الحقيقة، مخفيا عنى الوجه الآخر السفلى لنجم جميل فقد الحياة.

«حبى» لها، «حب» ميليسا لى»، «حب» نسيم لها وحبها لبورسواردن. يجب أن يكون هنالك معجم للصفات والنعوت حتى يمكن تحديد معنى هذا الاسم (الحب)، حيث لم يتضمن عند أى اثنين منا نفس الصفة والمعنى - فى حين كان يحمل عند الجميع خاصية يتعذر تحديدها، خاصية واحدة مجهولة مشتركة فى الخيانة. إن لكل منا، كما للقمر، وجه مظلم - كل منا يستطيع أن يدير وجهه الكاذب «البغيض» نحو الشخص الذى يحبه كل الحب ويحتاج إليه أشد الحاجة. كما استخدمت جوستين حبى لها، استخدم نسيم ميليسا.... كل يزحف فوق ظهر الآخر «كما تزحف السرطانات المائية فى سلة».

ومن الغريب أنه ليس هنالك مقومات بيولوجية لهذا الوحش المسخ الذى يعيش دوما بين الناس المنفردين، رغم أن كل ما أحطناه به من قصص رومانسية كان يجب أن تجعله يتخذ النظراء المتماثلين موطنا له: كالأرقام النموذجية التى يستخدمها النساك فى وصف الزواج!

«وما الذى يحمى الحيوانات ويجعلها قادرة على الاستمرار فى الحياة؟ إنها خاصية تميز المادة العضوية. فما إن يلتقى المرء والحياة حتى يلتقى هو وهذه الخاصية المميزة، إنها ملازمة للحياة. وهى ظاهرة لها قطبيها، شأنها فى ذلك شأن غالبية الظواهر الطبيعية - هنالك دوما قطب سالب وقطب موجب. القطب السالب هو الألم، والقطب الموجب هو الجنس - إننا نجد أنه يمكن إيقاظ الجنس فى القرد والإنسان والحيوانات التى تأتى فى المرتبة الأولى، باستثناء الحيوانات الأليفة، دون حاجة إلى حافز خارجى.. والنتيجة، أن أعظم قوانين الطبيعة، ألا وهو المعاشرة الدورية، قد ضاع عند الجنس البشرى. إن الشرط العضوى الدورى الذى يقوم بإثارة الحس الجنسى قد غدا ظاهرة مرضية، عديم الجدوى

على نحـو مطلق، منحطا وقـد فـسـد طيب أصله(φ). (بورسـواردن مهموم ببيت القردة فى حديقة الحيوان! كابوديستريا فى مكتبته الهائلة بما فيها من كتب آداب وفنون الفحش والفجور، فاخرة التجليد! بلتازار فى عالمه الغيبى! ونسيم يتصـدى لصفوف بعد صفـوف من الأرقام والنسب المئوية).

وميليسا؟ كانت حقا مريضة، فى أشد حالات المرض، حتى إنه يمكن القول، بطريقة ميلودرامية إلى حد ما، إننى أنا الذى قتلتها، أو أن جوستين هى التى قتلتـها. ومع ذلك فإن أحـدا لا يستطيع تقـدير ثقل الإغفال والإهمال والألم الذى كنت أنا سببه المباشر. إننى أتذكر، الآن، عندمـا جـاء أمـاريل، ذات يوم، ليـرانى وهو جيـاش العـاطفـة ككلب ضخم. كان بلتازار قد أرسل ميليسا إليه كى يفحصها بأشعة إكس ويعالجها.

كان أماريل رجلا يتسم مسلكه بالشذوذ، زد على ذلك أنه غندور إلى حـد مـا. كـان لديه مـسـدسـان فضيـان من مـسـدسـات المبارزة، وبطاقات زيارة منقوشة موضوعة فى أغلفة فاخرة. ملابسه رشيقة أنيقة طبقا لأحدث الموضات، منزله ملىء بالشموع، يفضل الكتابه بحبر أبيض على ورق أسود. وكان أروع ما فى الدنيا بالنسبة إليه، امتلاكه امرأة تسير طبقا لأحدث الموضات، وكلب متفوق من كلاب الصيد أو زوج من الديكة المقاتلة التى لا تقهر. إلا أنه كان رجلا مقبولا ذا رهافة وإحساس كطبيب، رغم كل تلك النواقص الرومانسية.

كان أبرز ما فيه هو تفانيه، إخلاصا ووفاء للنساء. كان كل ما يرتديه إنما إرضاء لهن. ومع ذلك فقد كان هذا التفانى مصحوبا برقة تكاد أن تكون عفة وطهارة عند التعامل معهن - أو هكذا كان، على الأقل، فى

مدينة يُنظر فيها إلى المرأة وكأنها نوع من العلف أو أشبه بطبق ملىء باللحم الضأن، مدينة تطالب النساء فيها بأن تساء معاملتهن.

إلا أنه نسب الكمال إليهن، وبنى عنهن فى خياله قصصا رومانسية. وعاش دوما يحلم بحب كامل وفهم نموذجى مع واحدة من بنات تلك القبيلة. إلا أن كل ذلك كان عبثا. كان يقول لى أو لبومبال، «إننى غير قادر على فهم هذا الأمر، إذ قبل أن ينال حبى فرصته حتى يتبلور، يتحول إلى صداقة عميقة طاغية. إن ذلك التفانى فى الوفاء والإخلاص أمر لا يخص من كان مثلكم زئر نساء، أنتم لا تفهمونه. إذ ما إن توجد الصداقة حتى يفر الهوى من النافذة. إن الصداقة تستنفدنا وتصيبنا بالشلل. ويبدأ نوع آخر من الحب. ما هو؟ لست أدرى. إنه نوع من الرقة والحنان، شىء ما يذوب كأقراص الحلوى». وتطفر الدموع من عينيه. «أنا حقا رجل المرأة. والمرأة تحبنى. لكن. . . .» ويهز رأسه الرشيقة بينما ينفث دخان سيجارته إلى أعلى نحو السقف. ثم يضيف مبتسما، دون حسرة على ذاته، «أنا الوحيد بين الرجال الذى فى مقدوره أن يقول، إنه بينما كل النساء يحببننى فإن واحدة منهن لم تحبنى كما يجب أن يكون الحب. إننى برىء من الحب (ولست أعنى الحب الجنسى بالطبع) براءة عذراء. يا لك من تعس يا أماريل!».

كان كل ذلك حقيقيا. فقد كان تفانيه مع النساء على وجه التخصيص هو الذى أملى عليه اختياره دراسة الطب ـ طب النساء. وكانت النساء تنجذبن إليه انجذاب الأزهار نحو أشعة الشمس، فيعلمهن ما يرتدين وكيف الخطا أثناء السير. يختار لهن عطورهن ويرشدهن إلى أحمر الشفاه الذى يستعملنه. كما لا توجد امرأة فى الإسكندرية لا تفخر برؤيتها معه تستند إلى ذراعه، ولا توجد امرأة

واحـدة منهـن لا تحس السـعـادة إن سـئلت (وهو لم يسـألهن ذلك أبدًا) خيانة زوجها أو حبيبها من أجله. ومع ذلك فهنالك خيط اتصال انقطع في مكان مـا، وصلة انفـصـمت. كـان يخـمـد تلك الرغـبـات، كـمـا يعرفها، رغبات الجسد الخانقة في الصيف في مدينة الشهوة، وبين فتيات الحوانيت ومن هن دونه مقاما. ولقد اعتادت كليا أن تقول، «إن المرء ليحس بأن الأيام تدخر لأماريل، أماريل العزيز، مصيرا من نوع خاص».

نعم. نعم. ولكن ما هو، أي مصير يقبع مختفيا في انتظار مثل ذلك الرومانسي - مثل ذلك المتفاني، المحب، الدارس المتأني للمرأة؟ تلك هي الأسئلة التي أطرحها على نفسي عندما أراه يلبس، متأنقا، قفازيه وقبعته، يسوق سيارته ومعه بلتازار في طريقهما إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية..

لقد شخص لي حالة ميليسا مضيفا، «سوف يساعدها كثيرا أن تحظى ببعض الحب». وملأتني هذه الملاحظة بالخجل. كنت قد اقترضت، في ذات الليلة، نقودا من جوستين حتى أرسلها، رغما عنها، إلى مستشفى في فلسطين.

وسرنا معا إلى الشقة بعد أن قضينا بضع دقائق، في الحديقة العامة، نناقش حالتها. كانت أشجار النخيل تلمع في ضوء القمر والبحر يتلألأ تحت رياح الربيع. وبدا المرض الخطير وكأنه شيء ما خارج المكان، خارج إطار هذا النسق للأشياء. وأمسك أماريل بذراعيّ ونحن نصعد السلم وضغطهما برقة، قال، «الحياة صعبة». وأضاف وهو يرفع قبعته عندما دخلنا حجرة النوم مرة أخرى لنجدها ترقد هناك في غيبوبة وقد اتجه وجهها الشاحب المتقع الضامر نحو السقف، وأنبوب الحشيش

إلى جوارها فوق المنضدة. «الأمر دوما هكذا. . لا تظن أننى أوجه اللوم إليك. . . . كلا، إننى أغبطك على جوستين. . إلا أننا نحن الأطباء نقدم دوما فى الحالات التى أشرفت على النهاية، آخر وصفة طبية يائسة لامرأة عليلة، فنقول، «ليتها، فقط، حظيت بالحب». ثم تنهد هازا رأسه الرشيقة.

هنالك، دوما، مئات السبل التى يبرر بها الإنسان ما فعل، إلا أن سفسطة المنطق الهش ومغالطاته لا يمكن أن تبدل حقيقة أنه بعد مثل هذا النوع من المعلومات التى جاءت فى الهوامش والحواشى، فإن ذكرى تلك الأيام تعاودنى من جديد، تعذبنى بآثام، ربما لم أكن أعيها البتة من قبل! إننى أسير، الآن، إلى جوار الطفلة التى أنجبتها ميليسا من نسيم خلال تلك الفترة القصيرة من الحب (هل كان، مرة أخرى، حبا، أم أن نسيم كان يحاول استخدامها للوصول إلى معرفة كل ما يريد معرفته عن زوجته؟ ربما أتوصل إلى ذلك يوما ما). أقول إننى كنت أسير إلى جوار الطفلة فوق تلك الشطئان المهجورة ينتابنى إحساس بالجرم وأنا أستعيد مرة بعد الأخرى، شظايا حياة تلك المدينة البيضاء، بأسف وندم أعمق من ألا يبين فى نبرة صوتى وأنا أحادث الطفلة. أين يمكن للإنسان أن يعثر على مفتاح هذا النمط من الحياة؟

كان من الواضح أننى لم أكن وحدى الذى يعانى مثل هذا الشعور بالإثم. لا بد أن بورسواردن نفسه كان، أيضا، يعانى الشعور بالإثم- وإلا كيف يمكن أن أفسر ما تركه لى من أموال، فى وصيته، محددا لها غرضا خاصا هو إنفاقه على ميليسا. تلك، على الأقل، واحدة من المسائل التى أمكن حلها.

وأحست كليا، أيضا، كما أعرف، بالإثم من ذلك الجرح الذى

سببناه جميعا لميليسا ـ رغم أنها كانت تحس به، إن جاز القول، نيابة عن جوستين. لقد اعتبرته، إن جاز القول أيضا، إثمها هى ـ إذ هالها الأذى الذى سببته حبيبتها لكلينا دون داع حقيقى. إنها هى التى غدت الآن صديقة ميليسا، نصيرتها ومشيرتها والتى ظلت أقرب خلصائها حتى مماتها. إن كليا البريئة التى لا تعرف الأنانية، هى حمقاء أخرى. إنها ما كانت تنتظر جزاءً لإخلاصها فى حبها! لقد قالت عن ميليسا، «إنه لأمر رهيب أن يعتمد المرء كلية على أناس لا يحبون له الخير. أن ترى، دوما، امرأ ما لصيقا بأفكارك، كالبقعة فوق الحقيقة..» إننى أعتقد أنها، ربما، كانت تفكر أيضا فى جوستين، وهى هناك فى منزلها الكبير تحيطها الشموع الطويلة واللوحات الزيتية لفنانين طغى النسيان على أسمائهم.

لقد قالت ميليسا لها عنى، «إنه برحيله، اختفت كل الأشياء من الطبيعة». قالت ذلك وهى على فراش الموت. إلا أنه لا يحق لأى امرئ أن يحتل مثل هذه المكانة فى حياة امرئ آخر، لا أحد يحق له هذا الحق! فى وسعك الآن أن ترى أية مادة خام أعمل بها خلال تلك المناجاة العاطفية الطويلة التى أجريها مع نفسى عبر بحر الشتاء. لقد قالت كليا فى مرة أخرى، «لقد أحبتك لضعفك. هذا ما حببك لديها. ولو كنت قويا لأثرت مخاوف مثل هذا الحب الواجف الخجول». وأخيرا قبل أن أطوى صفحات مخطوطى فى غضب واستياء، هنالك ملحوظة أخيرة لكليا تحرقنى كالحديد. لقد قالت ميليسا لها، «كليا، لقد كنت صديقتى، وإننى لأود أن تحبيه بعد ذهابى. نامى معه وأنت تفكرين فىّ. هل تفعلين ذلك؟ لا تبالى بكل تلك المسائل البهيمية حول الحب. ألا يمكن لصديقة أن تمارس الحب نيابة عن صديقتها؟ إننى أسألك أن تنامى معه، كما أسأل «الباناغيا» أن تهبط وتباركه أثناء نومه ـ

كما فى الأيقونات القديمة» . كم أنت نقية طاهرة يا ميليسا ! كم أنت يونانية حقيقية !

إننى أتذكر عندما كنا نسير معا أيام الآحاد لزيارة سكوبى ، وقد ارتدت ميليسا فستانها القطنى اللامع ، وقبعتها المصنوعة من القش ، تبتسم فى حماس لفكرة قضاء يوم عطلة بطوله بعيدا عن الكباريه المترب ، كنا نسير على الكورنيش الكبير ، والأمواج تتقافز ، تتراقص عبر الحاجز ، وعربات الحنطور المتداعية ذات الصرير والتى يطلقون عليها تاكسى الغرام ، تجرها خيول عجوزة ، يسوقها حوذيتها السود بطرابيشهم الحمراء وهم ينادون علينا عندما يمرون بنا ، «سيدى ، سيدى ، تاكسى الغرام بعشرة قروش فقط لا غير للنزهة ساعة واحدة . إننى أعرف مكانا هادئًا . . » وكانت ميليسا تضحك فى فتور ، وتستدير ، بينما نسير ، نرقب المآذن تتألق فى ضوء الصباح ، وطائرات الأطفال الورقية زاهية الألوان تستقبل ريح الميناء .

كان سكوبى عادة ما يقضى أيام الآحاد فى فراشه . كان طول الشتاء عرضة للإصابة بالزكام . كان يرقد متدثرا بأغطية كتانية خشنة ، بعد أن يكون عبد الله قد دلكه دعكًا بالقرفة (لم أستطع البتة اكتشاف حقيقة هذه العملية) . وكان يضع له أيضا ، بطريقة أشبه بالمراسيم الرسمية ، قالبا من الطوب الأحمر الساخن عند قدميه ليحافظ عليهما دافئتين ، وعلى رأسه طاقية من غزل مجدول . ولما كانت قراءاته قليلة محدودة ، فإنه ، شأن القبائل القديمة ، كان يحتفظ بكل محصوله الأدبى فى رأسه ، وكان يقوم ، مدة ساعات ، بالتلاوة لنفسه ، عندما يكون بمفرده . كان يحفظ قدرا كبيرا من التمثيليات الغنائية يلقيها فى حماس شديد مزمجرا كالرعد ، وهو يطرق بيده طرقات متتالية . وكانت قصيدة «وداع العربى لجواده الأصيل» تدفع بالدمع إلى عينه السليمة .

وكذا قصيدة «القيثارة التى عزفت ذات مرة فى قاعات تارا»، بينما كانت هنالك قصيدة مدهشة أقل شهرة من غيرها وكان وزنها الشعرى الأشبه بعدو الخيل يستثيره فيلقى بنفسه خارج فراشه ليقف فى منتصف الحجرة يلقى القصيدة كعاصفة قاصفة.

عندما شدد أونيل الحصار عليهم، كادت تزوى أرواح

ثلاثمائة ساكسونى سدت عليهم كل المنافذ

حتى امتشق باجنال حسامه الطليطلى وأقسم

على سيف الجندى أن ينجد بورتيمور

كان جنوده المتمرسون الذى اختبروا فى حروب أجنبية

يسيرون قدما بملامحهم البرونزية وخطاهم الواسعة المتكبرة

آه، كم كان مثيرا أن يرى المرء

تلك السحابة الرعدية تخيم فوق بيل ـ أناثا ـ بويده!

بلاد أوين بو! واندفع الأيرلنديون مهاجمين

وأطلق العدو رشقة نارية واحدة ـ وولى رجال مدفعيته هاربين

وفرت سترات الصلب أمام الصدور العارية

ورغم الخوذة والدرع رقدوا موتى أو فى النزع الأخير

وغنم الأيرلنديون ملابس، نقودا، بيارق، ذخائر هائلة

أسلحة، أعلافا ـ وانطلق السلب والنهب

قضموا الخبز الأبيض ولاكوا اللحم البنى اللذيذ

يا له من يوم، أكل الأهل فيه حتى الشبع.

لم يكن في وسع سكوبي أن يخبرني بأي شيء عن تلك القصيدة، مما أثار خيبة أملي. كانت ترقد هنالك في ذاكرته، منذ نصف قرن، كقطعة ثمينة من فضة عتيقة لا تخرج للناظر إلا في المناسبات الاحتفالية. وكان من بين كنوزه المثيلة القليلة التي عرفتها، ذلك المقطع الذي ينتهي:

إن جاءوا من أركان الأرض الأربعة مدججين بالسلاح،

فلسوف نصرعهم.

كن على ثقة أن يوشع سكوبي سوف يصرعهم!

(كان ينشد تلك الخاتمة، دوما، في حماس ملتهب).

كانت ميليسا تحبه أشد الحب. وكانت ترى فيه رجلا غريب الأطوار في أقواله وسلوكياته. وكان هو من جانبه مفتونا بها - وأعتقد أن مرجع ذلك، بصورة أساسية، أنها كانت تناديه دوما برتبته ولقبه الكامل - بمباشي سكوبي - مما كان يسعده ويشعره بأهميته لديها «كموظف عالي القدر والمقام».

إلا أنني أتذكر يوما وجدناه فيه يكاد يبكي. واعتقدت أنه قد أثار عواطفه بإنشاده واحدة من قصائده القوية (كانت إحدى القصائد الأخرى الأثيرة لديه قصيدة «نحن سبعة»)، إلا أن الأمر لم يكن كذلك. «لقد تشاجرت لأول مرة مع عبد الله»، هكذا أقر لنا وهو يطرف بعينه بطريقة تثير الضحك. «أتدري السبب أيها الرجل العجوز، إنه يود احتراف مهنة الختانة».

لم يكن من العسير فهم مقصده : إذ عندما يتحول المرء إلى حلاق ـ جراح بدلا من كونه مجرد حلاق يقص الشعر ويحلق الذقون فإنه يكون قد أقدم على خطوة طبيعية كما يفعل امرؤ كعبد الله، إنها أشبه بحصول دارس على درجة الدكتوراه . إلا أننى ، بالطبع ، كنت أعرف ، أيضا ، كم يمقت سكوبى الختان . واستمر فى حديثه غاضبا مستنكرا ، «لقد ذهب واشترى وعاء كبيرا قذرا مليئا بدود العلق . العلق ! وأخذ فى فتح عروق الدم . ولقد قلت له : إن كنت تعتقد ، يا بنى ، أننى قد وفرت لك عملا حتى تقضى وقتك فى ختان الأطفال الصغار ، مقابل قرش لكل حالة ، فأنت مخطئ» . وتوقف يلتقط أنفاسه . كان من الواضح أنه شديد التأثر من هذا التطور . وقلت أنا محتجا ، «ولكن يبدو لى ، أيها البحار ، أن رغبته فى أن يصبح حلاقا ـ جراحا ، أمرا طبيعيا للغاية فالختان ، رغم كل شىء ، يمارس فى كل مكان ، حتى فى إنجلترا ذاتها الآن» . إن الختان كطقس من الطقوس كان مألوفا تماما فى واقع الحياة المصرية ، حتى إننى لم أفهم لما تكدر بهذا القدر من تلك الفكرة . وأخذ يبرطم متجهما محنيا رأسه إلى أسفل ، يطحن أسنانه الصناعية فى صخب . ثم قال معاندا ، «كلا ، لن أقبل بهذا الأمر» . ثم نظر فجأة إلى أعلى وقال ، «ألا تدرى ماذا سيفعل؟ إنه يود أن يتعلم ، بالفعل ، على يد ذلك الجزار العجوز ـ محمود عناية الله !» .

وعجزت عن فهم هذا الاهتمام بتلك المسألة . ففى كل عيد أو مولد كانت هنالك العشة التى يجرى الختان فيها كجزء دائم من مظاهر العيد . كانت اللوحات الضخمة الملونة ، تزينها الرايات الكثيفة بألوانها الوطنية ، تحمل صور الحلاقين ـ الجراحين يعملون مشارطهم فى الشباب المسكين الممدد فوق مقاعد أشبه بمقاعد أطباء الأسنان ، تشكل سمة طبيعية غريبة فى العروض الاحتفالية الجانبية . كان محمود شخصيا هو

رئيس رابطة الحلاقين ـ الجراحين. كان رجلا ضخما بيضاوى الشكل، له شارب طويل مدهون بالزيت، يرتدى على الدوام أفخر الثياب، يعطى، بدون الطربوش، انطباعا غائما أشبه بطبيب ريفى فرنسى يقضى عطلته. كان يلقى على الدوام خطبا رنانة فى لغة عربية فصحى، يقوم فيها بإجراء عملية الختان مجانا للمؤمنين ا لفقراء الذين يعجزون عن دفع الأجر المطلوب. وعندما يتقدم، فيما بعد، بعض من سيجرى الختان لهم، يدفعهم والداهم فى لهفة إلى الأمام، كان مهرجاه الزنجيين بوجهيهما الملطخين وملابسهما العجيبة المضحكة، يتنططان فى مرح ليسليا الصبية ويصرفا أنظارهم، يستدرجانهم بهذه الطريقة إلى الكرسى القاتل، حيث كانوا، كما يصور سكوبى الأمر، «يشرطون»، وتغرق صرخاتهم فى جلبة الزحام، وهم لا يكادون يدركون ما يجرى لهم وحولهم.

لم أستطع تبين خطأ أن يرغب عبدالله فى تعلم كل ما يستطيع تعلمه من رئيس هذه الرابطة، عن عملية التشريط تلك. وفجأة أدركت ما كان يعنيه سكوبى عندما قال، «ليست المسألة مسألة الصبية، فليفعلوا بهم ما يشاءون، إن ما يهمنى هن الفتيات أيها العجوز. إننى لا أحتمل التفكير فيما يمكن أن يصيب هذه الكائنات الصغيرة. إننى رجل إنجليزى عجوز، وفى مقدورك أنت أن تفهم مشاعرى. إننى لن أقبل بهذا». وغاص إلى الخلف فوق وسادته، وقد أرهقه ما بذل من جهد فى الحديث، ثم استمر، لقد أخبرت عبد الله فى عبارات لا تقبل اللبس أو الغموض بما هو أكثر من ذلك. لقد قلت له: «ضع أصبعك فوق واحدة من الفتيات ولسوف أدخلك السجن. . جرب لترى ما سأفعل بك. إن هذا الأمر يمزق القلب، إنهما دون شك، أيها العجوز، صديقاى الحميمان. ولذا فإن الفأر المسكين لم يفهمنى. إنه يعتقد

بجنونى» . وتنهد مرتين فى تثاقل ، «لقد كانت صداقتهما أفضل ما عرفت من صداقة ما عدا صداقتى لبدجى . إننى لا أبالغ فيما أقول ، أيها العجوز . لقد كانت كذلك بالفعل . إنهما ، الآن ، حائران ، لا يفهمان مشاعر رجل إنجليزى . كما أننى أكره استخدام سلطة وظيفتى» . وتساءلت فى عجب عما يعنيه بالضبط ، فاستمر قائلا ، «لقد أمسكنا بعبد اللطيف فى الشهر الماضى فقط ، وأدخلناه السجن محكوما عليه بستة شهور لاستخدامه أمواس قذرة . كان ينشر الزهرى ، أيها العجوز . وكان علىّ أن أفعل ذلك رغم أنه كان صديقى . إنه الواجب . لقد حذرته مرات بلا عد كى يطهر أمواسه ، إلا أنه لم يفعل ذلك . إن إحساسهم ، هنا ، بأهمية التعقيم ضعيف للغاية ، أيها العجوز . إنهم ، كما تعرف ، يستخدمون الشبة كمادة قابضة ـ شبة الحلاقة للختان . إنهم يعتبرون استخدامها أكثر عصرية من ذلك المزيج القديم من مسحوق البارود الأسود وعصير الليمون . أف ، إنهم يفتقدون الإحساس بضرورة التعقيم . إننى لا أدرى لما لا يموتون من مختلف تلك الأشياء . حقيقة لا أدرى . إلا أنهم فزعوا فزعا حقيقيا عندما أمسكنا بعبد اللطيف . وقد تأثر عبد الله قلبيا بهذا الأمر . لقد كان فى وسعى أن أراه يرقبنى وأنا أتحدث إليه كأنما يزن معنى كلماتى» .

إلا أن الصحبة كانت ، دوما ، تطيب نفس الرجل العجوز وتبعد عنه الأشباح والأوهام . ولم يمض طويل وقت حتى كان يتحدث ، فى استطراد ، بمزاج رائع عن تاريخ توبى ما نرينج ، «كان هو الذى عرفنى بالكتاب المقدس ، أيها العجوز . . لقد كنت أتصفح التوراة بالأمس عندما وجدت الكثير عن الختان . هل تعرف أن العماليق اعتادوا جمع القلف ، كما نجمع نحن طوابع البريد . ألا ترى أن الأمر مثير للضحك؟» . ثم نخر ضاحكا كذكر الضفدع ، «يجب أن أقول إنهم

كانوا قوما لا نظير لهم. كما أعتقد أنه كان منهم تجار يعدون منها حزمات متنوعة، ولهم فيها تجارة منظمة. إه؟ ويدفعون أكثر من أجل تخريمها!». ونظر مباشرة نحو ميليسا التى دخلت الغرفة فى تلك اللحظة، وقال، وهو ما يزال يهتز ضحكا من نكتته، «يجب أن أكتب الليلة إلى بدجى وأخبره بكل الأنباء». كان بدجى هو أقدم أصدقائه «إنه يعيش فى هورشام، أيها العجوز، حيث يقوم بحفر المراحيض التى حقق منها دخلا منتظما. هذا العجوز بدجى. إنه ينتمى إلى ف رزس، وأنا لا أدرى ماذا تعنى بالضبط، إلا أنه يكتبها فوق خطاباته. تشارلز دونا هو بدجيون ف رزس. إننى أكتب إليه أسبوعيا بانتظام. لقد كان هذا دأبى معه وسأظل دوما أكتب إليه. إننى الصديق الصدوق الذى لا يتخلى عن صديقه أبدا».

وأعتقد أن الخطاب الذى لم يكتمل والذى عثر عليه إلى جواره فى حجرته، بعد موته، كان موجها إلى بدجى، وقد جاء فيه:

«الصديق القديم العزيز. يبدو أن العالم كله قد استدار ضدى منذ آخر خطاب كتبته إليك. كان يجب على أن . . . . . .».

إن سكوبى وميليسا ما زالا يعيشان فى أيام الأحد تلك، يشعان بتلك الأطياف التى تسبغها الذاكرة على هؤلاء الذين أثروا حياتنا بدموعهم أو ضحكاتهم ـ دون أن يعوا، هم أنفسهم، أنهم قد منحونا أى شىء. إن الشىء البشع حقا، هو أن ذلك الحب القاهر الذى أشعلته فىَّ جوستين كان ثمينا وكأنه حب «حقيقى»، كما لم تكن عطية ميليسا لى أقل منه إثارة للحيرة كاللغز ـ ماذا كان فى وسعها، حقا، أن تقدمه لى، هذه المنبوذة الشاحبة ساكنة الساحل السكندرى؟ هل أثرت كليا أم افتقرت بعلاقاتها مع جوستين؟ يجب أن أقول إنها قد أثرت ثراء بلا

حدود. هل كنا إذن نتغذى على القصص الخيالية والأكاذيب؟ إننى أستعيد كلمات بلتازار التى كتبها فى مكان ما بخطه الطويل النحوىّ، «إننا نعيش على قصص خيالية منتقاة». كما كتب أيضا، «كل شىء يصدق عن كل شخص». وهل كانت كلمات بورسواردن مستقاة من خبرته بالرجال والنساء، أم هى ببساطة نتاج مراقبته الدقيقة لنا، لسلوكياتنا وما قادت إليه من نتائج؟ لست أدرى. وتخطر ببالى فقرة قرأتها فى رواية يتحدث فيها بورسواردن عن دور الفنان فى الحياة. إنه يقول شيئا ما كهذا، «إن الفنان وهوَ واع لكل مفسده ولكل رزية فى طبيعة الرجل ذاته، لا يستطيع أن يفعل شيئا يحذر به أصدقاءه، يرشدهم، يصرخ فيهم فى الوقت المناسب محاولا إنقاذهم. إن ذلك سوف يكون بلا جدوى، حيث إنهم، هم أنفسهم مصدر تعاستهم المتعمدة. إن ما يستطيع الفنان أن يوصى به هو: تأمل وابكِ».

هل كان إدراك بورسواردن للمأساة التى لا شفاء منها، والتى ليست فى العالم الخارجى الذى نلقى جميعا باللوم عليه، لأنها فى ذواتنا، فى الأحوال البشرية، هو الذى أملى عليه، فى النهاية، الإقدام على هذا الانتحار المفاجئ فى حجرة الفندق العفنة تلك؟ أميل للاعتقاد بهذا، إلا أننى ربما أتعرض بذلك لخطر وضع كثير من اليقين على الفنان فيه، على حساب الإنسان. ويكتب بلتازار، «من بين كل الأشياء، ظل انتحاره هذا، بالنسبة لى، نزوة شاذة لم أكن أتوقعها على الإطلاق. إذ مهما كان الإرهاق والضغوط التى تعرض لها: فإننى لا أستطيع أن أقنع نفسى بما فعل. إلا أننى أفترض أننا نعايش الجزء السطحى من شخصيات بعضنا البعض، ونعجز حقا عن رؤية الأعماق فيما تحت ذلك. إلا أنه يتوجب علىَّ أن أقول، إن الانتحار كان بعيدا عن

شخصيته بصورة تثير الدهشة . كان، كما تعرف، مرتاحا فى عمله، الذى هو أكثر ما يعذب الفنان ويرهقه، كما أعتقد. وكان هو قد بدأ ينظر إلى الفن باعتبار أنه «أمر لا أهمية له بصورة فائقة» ـ وهى عبارة متميزة. إننى على يقين مما أقول حيث إنه كتب لى ذات مرة على ظهر أحد الأغلفة، إجابة على سؤال وجهته إليه: «ما غاية الكتابة؟» ـ «إن غاية الكتابة هى إنماء الشخصية حتى يُمكن للإنسان فى النهاية من التسامى على الفن» .

«كانت لديه أراء غريبة عن تركيب النفس البشرية . فقد قال مثلا، «إننى أعتبرها واهية تماما كقوس قزح ـ إنها تتجسد أمامك فقط فى حالات محددة التعريف، كما أنه يمكن إعطاؤها صفة خاصة، إن تم تركيز الانتباه عليها. وأصدق أشكال الانتباه الصحيح هو الحب دون شك. ومن ثم فإن «الناس» أقرب أن يكونوا كالوهم عند الصوفى، «كالعادة» عند عالم الطبيعة باعتبارها شكل من أشكال الطاقة» .

«لم ينقطع أبدا عن الحديث، بأقصى استهانة، عن اهتمامى بالغيبيات، وعن أعمال القابال التى شهدت، أنت نفسك، اجتماعاته. ولقد قال عن هذا «الحقيقة، هى إدراك مباشر ـ إذ ليس فى مقدورك أن تتسلق سلما مكونا من افتراضات ذهنية حتى تصل إليها» .

«إننى لا أستطيع التخلص من الشعور بأنه كان فى قمة جديته، عندما كان فى قمة تهوره . لقد سمعته يقول، مؤيدا لكيتس، إن أفضل ما كتب فى الشعر الإنجليزى، بيتين قالهما كوفنترى باتمور :

إن الحقيقة، عظيمة وسوف تسود

عندما لا يعبأ أحد بأن تسود أو لا تسود

«ثم أضاف بعد ذلك القول: «إن جمال هذين البيتين يكمن فى أن

باتمور، عندما كتبهما، لم يكن يدرى ما يعنيه بهما. كانا مجرد كلمات(*)». ولك أن تتخيل كيف كان يمكن لهذا القول أن يضايق كيتس. كما اقتبس اقتباسا كان يستحسنه، هو عبارة غامضة عن ستاندال، تقول: «الابتسامة تظهر على ظهر الجلد».

«هل يمكننا، من كل هذا، افتراض وجود شخص جاد وراء الشخص الماجن؟ إننى أترك إليك إجابة السؤال - فاهتمامك بالموضوع إنما هو اهتمام مباشر.

«كان فى الوقت الذى تعرفنا فيه عليه، لا يكاد يقرأ شيئًا غير العلوم.. وكان هذا لسبب ما، يضايق جوستين التى عنفته لإهدار وقته فى مثل هذه الدراسات. ودافع عن نفسه بقوله إن الفرضية النسبية كانت مسئولة مسئولية مباشرة عن الرسم التجريدى والموسيقى غير التقليدية والأدب الذى لا شكل له (أو المتواتر الأشكال على أى حال). وما إن تغدو مثل تلك الأشياء فى متناول الناس حتى يفهموها. ثم أضاف: «إن لدينا فى زواج المكان بالزمان أعظم قصة لقاء بين فتى وفتاة فى هذا العصر. ولسوف يرى أحفاد أحفادنا فى تلك القصة، من الائتلاف الشاعرى، ما نراه نحن فى ذلك الزواج اليونانى القديم بين كيوبيد وسايك. لقد كان كيوبيد وسايك، بالنسبة لليونان حقائق وليس مجرد صور ذهنية. وهكذا يقف التفكير التشبيهى القياسى فى مواجهة التفكير التحليلى. إلا أن الشعر الحقيقى لهذا العصر وأخصب قصائده هى تلك التى تبدأ وتنتهى بحرف النون».

«هل أنت جاد فى كل هذا الذى تقول؟»

«إطلاقا».

(*) بالألمانية فى الأصل.

«واحتجت جوستين: «إن هذا الوحش يلجأ إلى كل الحيل حتى فى كتبه». كانت تفكر فى الصفحة المشهورة فى المجلد الأول من مؤلفاته والتى وضع فيها علامة تشير إلى صفحة أخرى من النص خالية من أى كتابة بطريقة غامضة. وقد اعتقد الكثيرون أنها غلطة مطبعية. إلا أن بورسواردن نفسه أكد لى أن هذا الأمر كان متعمداً. «إننى أحيل القارئ إلى صفحة خالية حتى أعيده، مرة أخرى، إلى مصادره الخاصة - فهى وحدها التى ينتمى إليها كل قارئ»، فى نهاية الأمر.

«إنك تتحدث عن صحة وصدق أفعالنا - وهذا ظلم لنا. إننا جميعا من البشر الأحياء، لنا حق اللجوء إلى حكم الله المؤجل، وكذا للقارئ حق أيضًا. ولذا دعنى، وأنا أفكر فى هذا الأمر، أروى لك قصة ضحكة جوستين. ولسوف تقر، أنت نفسك، أنك لم تسمع بها قط من قبل. إننى أعنى، على نحو ما، تلك الضحكة التى لم تكن تهكمية ولا جارحة. إلا أن بورسواردن سمعها عند مقابر سقارة فى ضوء القمر بعد عيد شم النسيم بيومين. كانا هنالك بين جمع كبير من الجوالين المتفرجين على الآثار، فاتخذا منه غطاء ليتحادثا. كانا كمتآمرين. وكان بورسواردن، فى ذلك الوقت، قد أوقف زياراتها الخاصة له فى حجرة الفندق. ولذا منحهما ذلك اللقاء بين الجوالين متعة محرمة، أن يتبادلا كلمات قليلة يتكتمانها مخزونة فى نفسيهما. فقد حدث فى نهاية تلك الأمسية أن وجدا نفسيهما، صدفة، بمفرديهما. كانا يقفان معًا فى واحدة من تلك المقابر التى تفرض جلالها الغابر، موحية بإحساس خاص هو الموت.

«كانت جوارب جوستين قد تمزقت وامتلأ حذاؤها بالرمال، فتوقفت تفرغه مما فيه. وكان هو يشعل عيدان الثقاب يحملق حوله

ويستنشق الهواء. وهمست جوستين بأنها تحس قلقا بالغا، فى الفترة الأخيرة، بسبب شك حديث بدأ ينتابها من أن نسيم قد اكتشف شيئًا خاصًا بطفلتها ولا يود إخبارها به. كان بورسواردن يستمع إليها شارد البال، ثم فرقع أصابعه وقد أحرقها عود الثقاب، وقال: «اسمعى يا جوستين - هل تعلمين ماذا فعلت؟ لقد أعدت قراءة كتاب «عادات»، مرة أخرى على سبيل التسلية، فى الأسبوع الماضى. ولقد توصلت إلى فكرة: هل كان كل هذا الطبل والزمر حول فرويد وما يسمى باغتصابك فى طفولتك وما شابه صحيحًا - هل هو صحيح بالفعل؟ لست أدرى. ففى إمكانك ببساطة، اختلاق كل ذلك. لكنك ما دمت تعرفين من كان الرجل ذا العصابة اللعينة على عينه، وترفضين الإفصاح عن اسمه لجيش لعين من هواة علماء النفس وعلى رأسهم أرناؤوطى، فلا بد وأن يكون لديك سبب جدى لذلك. ما هو هذا السبب؟ إنه يحيرنى. وأنا أعدك ألا أخبر أحدا. أو هل الأمر كله أكذوبة؟» وهزت رأسها قائلة: «كلا».

«وسارا معًا فى الخارج فى ضوء القمر الصافى كالحليب، بينما جوستين تفكر فى أناة. ثم قالت فى بطء: «لم يكن السبب هو الخجل أو الرغبة فى عدم الشفاء كما قالوا أو كما قال هو فى كتابه - المسألة أنه كان صديقنا، صديقك وصديقنا جميعًا». ونظر إليها بورسواردن فى فضول وقال: «الرجل ذو العصابة السوداء؟». وأومأت هى برأسها. وأشعلا السجائر وجلسا فوق الرمال فى انتظار الآخرين. وأحست أن كل ما ائتمنته عليه، كان فى مأمن تام، فقالت فى هدوء: «إنه دا كابو». ومضت فترة من الصمت طويلة، «حسنا، أعيدى ما قلت على مسامعى! العجوز الفاجر نفسه!». ثم استمر فى هدوء تام، كأنما

يختبرها، «لقد واتتنى الفكرة فجأة وأنا أعيد قراءة هذا الكتاب: لو كنت أنا فى مكانك، ولم تكن القصة كلها إلا أكذوبة قمت بتلفيقها لتكون مثار اهتمام المولعين بعلم النفس، لكنت. . حسنا، كنت أحاول النوم معه مرة ثانية لعلى أزيح تلك الصورة بعيدًا عنى. إنها فكرة واتتنى فجأة!

«ولقد فضح بما قاله، بالطبع، ما كان عليه من جهل تام بعلم النفس. كان اقتراحه فى الحقيقة، خطوة قاتلة. لكن الذى حدث، لدهشته، أنها أخذت فى الضحك ـ ضحكة تلقائية موسيقية لم يسمعها تصدر عنها من قبل: قالت وضحكها يطغى على ما تقول: «لقد حاولت. لقد حاولت. ولن تتخيل كم كلفنى الجهد الذى بذلته وأنا أقف هناك معلقة، فى ظلام الطريق، أمام منزله، محاولة استجماع شجاعتى كى أدق الجرس. نعم، لقد واتتنى الفكرة أيضًا. كنت يائسة ماذا سيقول؟ لقد كنا أصدقاء لسنوات دون أن يشير أحد منا، بالطبع، إلى هذه الحادثة. وهو لم يشر البتة إلى كتاب «عادات»، وأعتقد أنه لم يقرأه البتة، ربما كان يفضل، كما اعتقدت دائمًا، أن يغفل الأمر كله ـ أن يدفنه بكياسة ولباقة».

«وانتابتها، مرة أخرى، نوبة ضحك كان يهتز لها جسدها حتى إن بورسواردن أمسك بذراعها، فى قلق، كى لا تقطع حديثها. واستعارت منه منديله لتمسح عينيها، وتابعت حديثها، «ودخلت فى النهاية. كان يجلس هنالك فى مكتبته الشهيرة! كنت أرتجف كورقة من أوراق الشجر. لم أكن أعرف، كما ترى، أية نغمة أعزف. أكان الموقف دراميا، شيئًا ما يثير الشفقة؟ كان أشبه بالذهاب إلى طبيب الأسنان. حقا، كان الأمر مضحكا يا بورسواردن. وقلت أنا، فى

النهاية، دا كابو العزيز، أيها الصديق القديم. لقد كنت شيطانى زمانا طويلاً، وأنا جئت إليك أسألك أن ترقينى من الأرواح الشريرة مرة واحدة وإلى الأبد، لتزيح عنى ذكرى حادثة طفولة بشعة. يجب أن تنام معى!». ويا ليتك رأيت وجه دا كابو حينئذ. لقد أخذ على غرة فتلعثم قائلاً: «لكننى صديق نسيم، يا جوستين»(*) وأشياء كهذه. وقدم لى كأسا من الويسكى وقرصا من الأسبرين ـ كان واثقًا أننى جننت، فقال: «اجلسى»، وهو يقدم لى كرسيا، بيدين مرتعشتين، جالسا قبالتى، فى عصبية، وقد أحاط به جو من الفزع الذى يثير الضحك ـ كصبى صغير اتهم بسرقة التفاح». كان جنبها يؤلمها فضغطته بيدها، وهى تضحك فى فرح شديد حتى إنها أثرت عليه فأخذ يضحك، أيضًا دون قصد منه. وقالت جوستين: «يا لدا كابو المسكين. لقد صدم صدمة شديدة، كما فزع، عندما قلت له إنه اغتصبنى وأنا فتاة عربية صغيرة من الشارع. لم أر رجلا من قبل وقد أصابه مثل هذا القدر من الدهشة. كان من الواضح أنه قد نسى الأمر تمامًا. وأنكر المسألة من البداية حتى النهاية. لقد ثار، فى الحقيقة غضبه، وأخذ فى الاحتجاج. كم أود لو كنت رأيت وجهه وقتئذ. أتدرى ما انزلق به لسانه وهو يحاول تبرير موقفه؟ انزلق بعبارة رائعة: لقد مضت خمسة عشر عامًا لم أفعل فيها مثل هذه الفعلة!»(*). ثم ألقت بنفسها، ورأسها إلى أسفل، فى حجر بورسواردن. وظلت هكذا لحظة، وهى ما تزال تهتز من الضحك، ثم رفعت رأسها مرة أخرى لتمسح دموعها. ثم قالت: «وأخيرًا أنهيت شرب الويسكى وغادرت، مما بعث فيه قدرًا كبيرًا من الراحة. ونادى علىّ كما اعتاد أن ينادى فى تلك السنوات القليلة

(*) بالفرنسية فى الأصل.

الأخيرة : تذكرى أن كليكما سوف يتعشى معى يوم الأربعاء. سأكون فى انتظاركما من الثامنة إلى الثامنة والربع بالملابس الرسمية. وعدت إلى المنزل وأنا ذاهلة، وشربت نصف زجاجة من الجن، وانتابتنى، تلك الليلة وأنا فى الفراش، فكرة غريبة ـ وربما بدت لك هذه الفكرة كالصدمة. وهى أن دا كابو قد نسى تمامًا فعلته التى كلفتنى العديد من سنوات القلق، ومرض عقلى حقيقى، وجعلتنى أضير الكثير من الناس. وقلت لنفسى : ربما تكون تلك هى الطريقة نفسها التى ينسى الإله بها المظالم التى يوقعها بنا، وذلك بتخليه عنا وتركه إيانا تحت رحمة العالم». ودفعت برأسها إلى الخلف وهى تبتسم، ثم انتصبت واقفة.

«ورأت بورسواردن ينظر إليها ودموع الإعجاب فى عينيه، واحتضنها فجأة فى حرارة، وراح يقبلها بعاطفة جياشة، قبلات، لعله لم يقبلها مثلها من قبل. وأضافت وهى تروى لى كل ذلك بفخار غريب عليها، «كانت تلك القبلات، يا بلتازار، أفضل من قبلات أى عاشق. كانت هدية حقيقية، أشبه بإعراب عن الشكر، ورأيت حينئذ، لو أن الأمور كانت قد سارت بطريقة مختلفة، لكان فى وسعى أن أجعله يحبنى ـ ربما لنفس النواقص التى فى خلقى، والتى تبدو واضحة جلية لكل عينين».

«وجاءت بقية الجماعة تثرثر بين القبور. . ولا أعرف ما الذى جرى بعد ذلك. أعتقد أنهم عادوا جميعًا بسيارتهم إلى النيل، وأنهوا الليلة هناك فى ناد ليلى. لكن أى عمل شيطانى ذلك الذى أفعله وأنا أخط لك كل تلك الحقائق؟ أى جنون وحماقة! إنه لن يعود علىّ إلا بكراهيتك لى لإخبارك بأشياء تفضل ألا تعرفها كرجل، ولعلك تفضل تجاهلها كفنان. . هذه الحقائق الصغيرة العنيدة المغتصبة إنما هى بدائل

وجودنا الإنسانى، وهى التى يمكن للمرء أن يدخلها كالمفتاح فى القفل - أو السكين فى المحارة: ترى هل سيجد لؤلؤة فى داخلها؟ من ذا الذى يستطيع قول ذلك؟ لكنها يجب أن تكون هنالك، فى مكان ما، فى موضعها الطبيعى. إنها بذور الحقيقة التى تنزلق فقط من اللسان. إن الحقيقة ليست ما يقال والمرء فى كامل وعيه. إنها، دوما، ما ينزلق من اللسان فقط. إنها الخطأ غير المقصود الذى يفضح كل تصنع. هل أدركت، أيها الحكيم، ما أعنيه؟ لكننى لم أفعل ذلك. لن تواتينى الشجاعة أبدًا حتى أعطيك هذه الأوراق. هذا ما توصلت إليه. سوف أنهى القصة لنفسى فقط.

«لذا يمكنك، من كل هذا، أن تقدر مدى يأس جوستين عندما أقدم ذلك الرفيق اللعين على الانتحار. كنت متضايقا منه فوجدت نفسى أبتسم. إذ لم أصدق، بعد موته. ورأت هى من فعلته تلك، كما رأيت أنا أيضًا، عملا غامضا للغاية، غير متوقع على الإطلاق، إلا أن المخلوقة المسكينة كانت قد أقامت خدعتها المحكمة حول فكرة استمراره حيا. ولم تجد أمامها أحدا تثق فيه وتطمئن إليه غيرى. وكنت أنت، وهى إن لم تكن تحبك فإنها لم تكن تكرهك، قد غدوت، والله أعلم، فى خطر كبير. كان الوقت قد فات لفعل أى شىء غير التفكير فى الابتعاد عن هذا المكان. لقد تُركت وحدها وقد «وقعت فى الشرك»! فهل يتعلم المرء شيئًا من كل تلك الحقائق؟ ألق، يا ولدى العزيز، بكل هذه الأوراق فى البحر، ولا تقرأ المزيد من هذه التعليقات والحواشى. لكننى نسيت أننى لن أدعك تراها. هل فعلت ذلك حقًا؟ سوف أتركك راضيًا بهذه التلفيقات الفنية التى «تعيد صياغة الحقيقة لتظهر جانبها الذى له دلالته ومعناه». ما هو الجانب الذى له دلالته، والذى كان فى إمكانها إظهاره لنسيم، فعلا، وقد غدا فى ذلك الوقت ضحية هذه

الهواجس بالتحديد مما جعله يبدو أمام كل امرئ، بما فيهم نفسه، فاقدا اتزانه العقلى؟ إننى أستطيع كتابة الكثير عن تلك الهواجس التى انتابته، فقد عرفت الكثير من شئونه واهتماماته السياسية، فى تلك الفترة. إن تلك الهواجس سوف تفسر هذا التغيير الذى انتابه ليصبح مضيافا كبيراً - يموج منزله، الذى تصفه أنت بطريقة رائعة، بالولائم وحفلات الرقص. لكن مسألة الرقابة، هنا تثير قلقى. فلو أنى أرسلت إليك بهذه الأوراق، وقمت أنت كما أعتقد، بإلقاء كل هذه الخلطة المشوشة فى الماء، فإن البحر قد يحملها، على أمواجه، مرة أخرى إلى الإسكندرية، وربما مباشرة إلى أيدى رجال البوليس. يستحسن ألا أستمر. سوف أخبرك فقط بما يتسم فيها بالحصافة. وربما أروى لك فيما بعد بقية ما أعرف.

«لقد ذكرنى وجه بورسواردن وهو ميت بوجه ميليسا إلى حد كبير. بدا كلاهما وكأنه قد استمتع بقوة بنكتة خاصة، تثير الاغتباط. وأنه قد سقط نائمًا قبل أن تتلاشى البسمة تمامًا من ركنى فمه. كان قد قال لجوستين ذات مرة: إننى أحس الخجل من شىء واحد فقط، ذلك أنى تغاضيت عن أول شرط ضرورى للفنان، ألا وهو الخلق والتضور جوعا. فأنا لم أجع أبدا كما تعلمين لقد ظللت طافيا فوق السطح أقوم بأعمال صغيرة من نوع أو آخر. أضير الغير، كما قلت أنت، بل وأكثر.

«كان نسيم يجلس فى تلك الليلة فى غرفة الفندق إلى جوار الجثة، عندما وصلت أنا. كان يبدو هادئًا، رابط الجأش بصورة غير عادية، كأنما أصابه الصمم، بسبب انفجار ما. لعل وقع الحقيقة عليه أذهله. كان يمر، خلال ذلك الوقت، بهذه المرحلة الرهيبة من الأحلام التى

سجلها فى مذكراته، والتى أخذت أنت عنها بعضا منها فى مخطوطك. إنها تشبه إلى حد كبير أصداء أحلام ليلى منذ خمسة عشر عاما مضت ـ لقد مرت بفترة عصيبة بعد وفاة زوجها، وكنت أنا قد عالجتها بناء على طلب نسيم. وهنا، مرة أخرى، فإنك وأنت تحكم عليه تثق كثيراً فيما قالته لك شخوصك عن نفسها، وتفسيراتها تبريراً لأعمالها. ما كان من الممكن أن تكون طبيبا جيدا. يجب أن تكتشف الحقيقة عن المرضى ـ فهم دائمًا كذبة. إنهم لا يفعلون ذلك عمدًا، لكنه جزء من آلية دفاع المرض عن نفسه ـ تمامًا كما يفضح مخطوطك آلية دفاع الحلم عن نفسه وهو يأبى أن تغزوه الحقيقة. هل أنا مخطئ فيما أقول؟. إننى لا أود الحكم على أى شخص بطريقة ظالمة، أو أن أقتحم عليك عالمك الخاص. هل تكلفنى ملاحظاتى تلك صداقتك؟ آمل ألا يحدث ذلك، وإن كنت أخشاه.

«ماذا كنت أقول؟ حسنا، وجه بورسواردن وهو ميت. كان يحمل نفس الملامح القديمة، ملامح من يقوم بخدعة وقحة، وما زلت على هذا الرأى. كان يبدو، بالنسبة إلىّ، حيا تماما.

«كانت جوستين هى أول من أخطرنى. أرسلها نسيم إلىّ بالسيارة ومعها مذكرة لم أدعها تقرأها. كان واضحًا أن نسيم كان يعلم إما بما انتواه أو بالحقيقة قبل أىّ منا ـ وأنا من ناحيتى، أشك فى أنه قد تلقى مكالمة هاتفية من بورسواردن نفسه. وعلى أى حال، فإن خبرتى بحالات الانتحار ـ وقد عالجت الكثير منها فى فرقة نمرود الليلية ـ قد جعلتنى حذرا. ولما كنت أشك فى احتمال تعاطيه بعض العقارات المنومة أو بعض المركبات الأخرى بطيئة المفعول فقد أخذت معى، من باب الاحتياط، مضخة المعدة الصغيرة والأدوية المضادة للسموم.

وأعترف أننى تخيلت، فى سعادة، التعبير الذى سيكسو وجه صديقى عندما يستيقظ فى المستشفى. لكن يبدو أننى أخطأت الحكم على كبريائه وإتقانه عمله، إذ عندما وصلت الفندق كان ميتا تماما وبصورة قاطعة.

«سبقتنى جوستين تصعد سلم الفندق الكئيب، والذى كان بورسواردن يحبه حبا جما (حقيقة، كان قد أطلق عليه اسم فندق جبل النسور - وأعتقد أنه اشتق الاسم من سرب العاهرات اللواتى كن يحمن، فى الشارع، حوله كالنسور).

«كان نسيم قد أغلق عليه باب الحجرة. طرقنا الباب فأدخلنا وقد بدا متضايقا، على نحو ما، أو هكذا بدا لى. كان المكان فى أشد حالات الفوضى التى يمكن أن تتخيلها. الأدراج مفتوحة، الملابس والمخطوطات واللوحات متناثرة فى كل مكان. وكان بورسواردن ممدداً فوق ركن من الفراش وقد اتجهت أنفه إلى أعلى نحو السقف كأنما تتحاشاه. وتوقفت أفتح جهاز تنظيف الأمعاء الكبير - فأسلوب العمل يغدو كل شىء فى لحظات الشدة - بينما توجهت جوستين، دون أن تخطئ طريقها، إلى زجاجة الجن فى الركن إلى جوار الفراش. وجرعت منها جرعة كبيرة. كنت أعرف احتمال احتواء هذه الزجاجة على السم، إلا أننى لم أقل شيئًا - فهناك القليل الذى يمكن أن يقال فى مثل تلك الأوقات. ففى اللحظة التى تصاب فيها بالهيستيريا، يمكن أن تتعرض لمثل هذا الاحتمال. وأخرجت مضخة المعدة العتيقة وأعددتها. إنها المضخة التى أنقذت حياة العديد ممن لا قيمة لحياتهم (حياة من المحال أن تعاش، حياة ألقى بها بعيداً كثوب أعد بطريقة سيئة)، أكثر مما أنقذت أى آلة مثيلة فى الإسكندرية وأعددتها فى بطء

يليق بطبيب من الدرجة الثالثة، وبطريقة منهجية، وهى الشىء الوحيد الذى ترك لطبيب من الدرجة الثالثة كى يواجه به العالم.

«واستدارت جوستين، فى تلك الأثناء، نحو السرير ومالت تقول بصوت مسموع: «استيقظ يا بورسواردن». ثم وضعت كفيها فوق قمة رأسها، وأطلقت عويلا طويلا خالصًا كامرأة عربية. صوت توقف فجأة وقد احتواه الليل فى تلك الحجرة الصغيرة الحارة الخالية من الهواء. ثم أخذت تبول قليلاً قليلاً فوق السجادة كلها، فأمسكت بها ودفعتها إلى الحمام. وأمدنى ذلك بما أريد من متنفس حتى أفحص قلبه. كان صامتًا كالهرم الأكبر. وغضبت لذلك. كان واضحًا أنه استخدم السيانيد الشنيع ـ وهو بالمناسبة السم المفضل عند أصدقائك فى دائرة الاستخبارات السرية الشهيرة. استشطت غضبا حتى إننى لطمته على أذنه ـ لطمة كان يستحقها منذ زمن بعيد.

«كنت، طوال ذلك الوقت، أحس بنسيم وقد نشط فجأة. إلا أننى، وقد استعدت يقظتى، ركزت انتباهى عليه. كان يقلب الأدراج والمكاتب والدواليب كمن أصابه مس من الجنون، يفحص المخطوطات والأوراق، ينثرها، يلقى بها جانبا، يلتقط أشياء وقد فقد، تمامًا، طبعه الهادئ المعتاد. قلت له غاضبًا: «ماذا تفعل بحق الجحيم؟»، فأجابنى «يجب ألا يوجد ما تعثر عليه الشرطة المصرية». ثم توقف وكأنه قال أكثر مما ينبغى. كان فوق كل مرآة كتابة بالصابون. وكان نسيم قد طمس إحداها جزئيا. ولم أستطع تبين شىء منها غير وهين.. فلسطين.

«ولم يمض وقت طويل حتى جاءت الدقات المعتادة على الباب، ثم الوجوه والصخب الذى لا ينفصل عن تلك المشاهد فى كل مكان من

العالم. رجال ومعهم دفاترهم، صحفيون وقساوسة، وظهر الأب بول دونًا عن كل الناس. وانتابنى، فى تلك اللحظة، توقع أن تنهض الجثة وتلقى بشىء ما. . إلا أن شيئًا لم يحدث، فقد ظل بورسواردن ممددًا بأنفه مائلا نحو السقف، وعلى وجهه ذلك التفكه الخاص.

«وخرجنا نحن الثلاثة، نتعثر فى مشيتنا، وعدنا بالسيارة إلى المرسم، حيث هدأت اللوحات من روعنا، وحيث أمدنا الويسكى بشجاعة جديدة حتى نواصل الحياة. ولم تتفوه جوستين بكلمة، بأية كلمة عن الموت والفناء».

* * *

(٧)

وأقلب أوراق المخطوط إلى جزء آخر من التعليقات والحواشى، إلى الفقرة التى وضع بلتازار أمامها علامة: «وهكذا قرر ناروز أن يتصرف». وقد وضع خطين تحت الكلمة الأخيرة. هل أعيد بناء المشهد الذى أراه أمامى غاية فى الوضوح، والذى فجرته فى خيالى كلماته القليلة التى يصعب قراءتها وقد كتبها بحبر أخضر اللون؟ حقا، سيمدنى هذا بالمقدرة على الحلم، لحظة، بالحى الذى يندر أن يتردد عليه أحد فى الإسكندرية التى أحببتها.

المدينة التى تقطنها ذكرياتى لا تمتد فى تاريخنا إلى الوراء فقط، ترصعها أسماء العظماء الذين تركوا أثرًا عند كل موقع فى سجل حياتها، بل هى تبزغ، أيضًا فى الحاضر الذى نعيشه وسط، إن صح القول، معتقداتها المعاصرة وأجناسها: مئات الدوائر الصغيرة التى يخلقها الدين أو المعرفة والعلوم، والتى تلتصق فى نعومة كالخلايا لتشكل سمكة هلامية ضخمة ترقد متمددة، هى الإسكندرية اليوم، وتعيش الجماعات وتتواصل، وقد التقت هكذا عشوائيا، بفعل المدينة وإرادتها، وهى المعزولة فوق رأس بر ناتئ فى البحر، لا يشد من أزرها غير بحيرة مريوط المالحة والتى تبدو كأنها مرآة للقمر، والصحراء

الخشنة غير المستوية والممتدة خلفها (وقد غيرتها، فى نعومة، رياح الربيع، فبدت كثبانها ناعمة كالحرير، جميلة كقطعان السحاب لا تثبت على حال) - جماعات الأتراك مع اليهود، العرب والقبط والسوريون مع الأرمن والإيطاليين واليونانيين. تتماوج فيما بينهم رعشات الأعمال التجارية المالية كما تتماوج الريح فى حقل الحنطة، تجمعهم المهرجانات وحفلات الأعراس والصفقات، كما تفرقهم أيضًا. وتتردد أسماء الأماكن على خطوط الترام العتيقة، بقضبانها التى تبدو كأخاديد رملية، صدى الأسماء المنسية لهؤلاء الذين أنشأوا المدينة - وأسماء القباطنة الموتى الذين كانوا أول من هبط على شاطئها، من الإسكندر إلى عمرو. هؤلاء الذين أقاموا فوضى من شهوة الجسد والحمى، من حب المال والتصوف. أين يمكن لك أن تجد مثيلا لهذا الخليط على وجه الأرض؟

وتضاء المدينة البيضاء عندما يهبط الظلام، بآلاف ثريات الحدائق العامة والأبنية، تتصاعد فيها الأنغام الناعمة الروحية من موسيقى طبول المغرب أو القوقاز، فتبدو كباخرة ضخمة من بلور ترقد هناك، وقد ألقت مراسيها إلى قرن أفريقيا، وراحت انعكاساتها الماسية والأشبه بالعقيق الأزرق المشتعل تتلوى، تتموج، كقضبان مصقولة فى مياه الميناء الزيتية بين السفن الحربية.

وتغدو المدينة فى عتمة الغسق، كدغل أرجوانى ناشز له نسقه الخاص، تصبغه الألوان كأنما هى ألوان الطيف صادرة عن منشور مكسور، وتتكأكأ مرتفعة فى سماء الغروب اللؤلؤية أبراج شاطئ البحر الطويلة الشاحبة، والمقاهى البربرية حيث يرقص الزنوج على ضربات الأصابع فوق الطبول أو أنغام النايات الرقيقة الحالمة.

ويكتب بورسوااردن: «الحقائق، هنالك، من الكثرة بقدر ما تستطيع أن تتخيل».

كان ناروز يتحاشى، دوما، زيارة الإسكندرية التى أحبها حبا جما، حب الإنسان المنفى لوطنه. كانت شفته المشقوقة قد غرست فيه هيبة زيارة وسط المدينة فيلقاه مصادفة واحد ممن يعرفهم. كان يحوم دوما حول ضواحيها، لا يجرؤ على ولوج قلبها الكبير المضىء، حيث كرس أخوه حياته للمشروعات وللحياة الاجتماعية الراقية. كان يدخلها دوما، وجلا يمتطى صهوة جواده، مرتديا ما اعتاد أن يرتديه من ملابس لإنجاز الأعمال التى تقتضيها أملاك الأسرة. كان يحتاج جهداً شاقًا لإقناعه بارتداء حلة لزيارة الإسكندرية بالسيارة رغم أنه كان معروفًا عنه أنه يفعل ذلك عند الضرورة القصوى، ولكن على مضض. كان يفضل، فى غالب الأحوال، إنجاز الأعمال عن طريق نسيم. وكان الهاتف، بالطبع يوفر عليه كثيراً من مثل تلك الرحلات غير المحببة إليه. لكن ما إن دق جرس الهاتف، ذات يوم ليخبره أخوه بأن عملاءه قد عجزوا عن إجبار المجذوب على الإفصاح عما يعرفه عن ابنة جوستين حتى أحس فجأة بأنه يتيه بنفسه عجبا، ومض فى وجدانه أنه قد أنيط به، الآن إنجاز هذا العمل، فقال: «نسيم، فى أى شهر نحن؟ نعم إنه مسرى. سيحل قريبًا عيد ستنا مريم(*)، إه؟ سأبحث عنه وأحاول إجباره على أن يقول لنا شيئًا». وأمعن نسيم التفكير، فى هذا العرض، طويلا حتى تصور ناروز أن الخط قد انقطع، فأخذ يصرخ فى حدة «ألو، ألو!». فأجاب نسيم على الفور: «نعم. نعم. أنا مازلت هنا. فقط، كنت أفكر. سوف تكون حريصًا، أليس كذلك؟».

(*) بالعربية فى حروف لاتينية فى الأصل.

وضحك ناروز ضحكة خافتة فى صوت أبح، واعدا أخاه أن يكون حريصًا. كانت تستثيره، دوما، فكرة قدرته على تقديم يد العون لأخيه. ومن الغريب أنه لم يفكر البتة فى جوستين نفسها، أو فيما تعنى هذه المعلومات لها. كانت مجرد شيء ما يقتنيه نسيم، يعزها هو ويعجب بها ويحبها بعمق، ولكن بصورة آلية، من أجل نسيم. كان يرى أن من واجبه تحقيق ما كان ضروريًا لمساعدة نسيم بمساعدة زوجته، لا أكثر ولا أقل.

وهكذا سار فى اليوم التالى لعيد ستنا مريم بخطى واسعة خفيفة، خطى مرحة تفتقد الرشاقة (يرتفع ويهبط على أصابعه، مطوحا ذراعيه)، يعبر الميدان بظلالة البنية المعتمة ساعة الغسق، خارجا من محطة الإسكندرية الرئيسية. كان قد ربط جواده فى حوش منزل أحد الأصدقاء. نجار لا يبعد مكانه عن المكان الذى أقيمت فيه مهرجانات الاحتفال بالقديسة. وكانت ليلة من ليالى الصيف شديدة الحرارة.

كانت تلك الأراضى الخالية الفسيحة تتحول عند الغسق إلى اللون الذهبى ثم البنى الذى يميز الورق المقوى المشقوق - ثم البنفسجى عندما تثقب الأضواء الظلام وقد أخذ يسود، وينقشع السواد المخيم فوق الحى الأوروبى عندما تضاء النوافذ واحدة بعد الأخرى، وشارع بعد شارع، حتى تبدو جميعها كبيت عنكبوت كساه الجليد بملايين اللآلئ المتألقة.

كانت الإبل تنخر وتدمدم فى مكان ما. وترامت إليه عبر الليل أنغام الموسيقى ورائحة البشر، غنية بذكريات المواسم والأسواق التى زارها مع والديه وهو ما يزال صغيرًا يرتدى الطربوش الأحمر والملابس المصبوغة التى لا تميزه عن غيره فى الزحام. كان مما يميز مهرجان

الاحتفال بستنا مريم، أنه لا يقتصر على الأقباط فقط، باعتباره عيد قديسة مسيحية قبطية، بل كان يشارك فيه ويستمتع به كل السكان بما فيهم المسلمون، فالإسكندرية، رغم كل شيء، جزء من مصر، حيث يعيش معا كل صنوف البشر وألوانهم.

وبزغ فى الظلام مخيم كامل من العشش والمواخير والدكاكين ـ مدينة كاملة أضيئت، بطريقة لائقة، بقناديل الزيت والنفط، بالكلوبات والمجامر النحاسية، بأضواء الشموع واللمبات الكهربية المبهرة المعلقة على حبال مشدودة. وسار ناروز فى زحمة الناس ومنخاريه يتشربان روائح الطعام الزكية والحلوى. والياسمين الذابل والعرق، وتتسمع أذناه طنين الأصوات التى شكلت تلك الخلفية المألوفة التى تصاحب المواكب الكبيرة وهى تخترق المدن، تتلكأ فى طريقها عند كل كنيسة لتلاوة بعض النصوص المقدسة، ثم يصل الموكب بالتدريج، خطوة فخطوة، إلى موقع الاحتفال.

كانت هنالك الطرائف والبدع متناثرة: الدببة الراقصة والأكروبات، آكلوا النيران ينفثون من أفواههم ألسنة لهب تطول ستة أقدام. الراقصون فى ملابسهم الرثة وطواقيهم الحائلة اللون. كل الأشياء تبعث البهجة فى نفوس الغرباء كانت تبعث البهجة فى نفسه أيضا، فهى مألوفة له تماما ـ إنها جزء عميق الانتماء إلى حياته ذاتها. وسار فى لألأ الضياء، كما سار الطفل الذى كانه يوما، يقف هنا وهناك، بعينين باسمتين يحملق فى بعض مشاهد المهرجان التى اعتادها. وساحر يرتدى ملابس مزوقة رخيصة، يخرج من كمه أعدادا لا حصر لها من المناديل الملونة، كما يخرج من فمه عشرين كتكوتا صغيرا حيا وهو يزعق طوال الوقت بصوت طائر من طيور البحر: جلا

ـ جلا ـ جلا، هوب![*] . والقرد مانوليو قد ارتدى قبعة من ورق يدور ويدور حول مربطه ممتطيا، فى براعة، ظهر عنزة. وترتفع على جانبى الطريق العشش والأكشاك الكبيرة، وتماثيل مصنوعة من حلوى تبدو رائعة بما عليها من زواق رخيص، تصور أبطال قصص الحب والمغامرات، لأناس عاشوا فى الحكايات الشعبية المأثورة للدلتا ـ أبطال مثل أبو زيد وعنتر، وعشاق مثل يونس وعزيزة. كان يسير على مهل فى لا مبالاة تلقائية، يقف لحظة هنا يستمع إلى الرواة، أو ليشترى تميمة تجلب له الحظ من حسين الواعظ الأعمى المشهور. والذى وقف فى عظمة كشجرة السنديان، فى الضوء الشاحب، يتلو أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين.

وتناهت من خلف حجب الظلام المحيط أصوات نقرات واهية للاعبى العصى خافتة الصدى، وقد طغى عليها الهدير الصاخب للموكب القادم وقد انفجر فجأة بموسيقى وحشية ـ طبول الأوانى النحاسية ودفوف تطلق أصواتا كطلقات الرصاص ـ وطبول جلد الجمال بأصواتها الجوفاء الممدودة المثيرة والتى ترتفع حينا فتغرق فى خضمها موسيقى الناى العميقة المتهدجة، ثم تخفت حينا فينتعش صوت الناى. وارتفعت صرخة. «إنهم قادمون، إنهم قادمون، إنهم قادمون». وراح الصبية يركضون هنا وهناك بين الأكشاك والعشش كالفئران. وتدفقت فى حلق زقاق ضيق جموع أشبه بحلقة نار تزداد اتساعا. الموكب البشرى يندفع متمايلا يتقدمه البهلوانات وأقزام الإسكندرية يتقافزون، يتبعهم الموكب الطويل العجيب الغريب للفرسان حاملى الأعلام والبيارق، والجياد تتماوج صعودا وهبوطا فى

(*) عربية بحروف لاتينية.

مد من ضوء روحانى، يتابع وطؤها تلك التقلصات الموسيقية الوحشية ـ وترفع ثرثرات النايات فى كل الأنحاء ودقات الطبول العنيفة أو الهزات المرتعشة المثيرة للطار والرق والدراويش يضربون عليها طبقا لعاداتهم، بينما يتجهون إلى موقع الاحتفال. وانفجرت كلمة «الله الله»(*) من كل حنجرة.

وتناول ناروز عود قصب من أحد الأكشاك وأخذ يمصه قضما وهو يراقب الموجة التى تتحرك قدما، لتحيط به، تبتلعه. وجاء دراويش الطريقة الرفاعية، الذين يستطيعون وهم فى غيبوبتهم الروحانية السير فوق جذوات النار أو شرب الزجاج المصهور أو أكل العقارب الحية أو الرقص إلى ما لا نهاية كزنبرك مشدود، حتى يغيض الواقع ويسقطون لاهثين دائخين كالطيور. وكانت البيارق والمشاعل والمجامر الكبيرة المكشوفة المليئة بالخشب المشتعل، والفوانيس الورقية الكبيرة والتى كتبت عليها بعض النصوص الدينية، تشكل حلقات أو أشكال من الإضاءة تخترق ظلام ليل الإسكندرية، صاعدة، هابطة، وقد اكتظ المكان، الآن، حتى الانتفاخ، بالمتفرجين المتكالبين على الموكب ككلاب قوية كبيرة، يتصايحون ويتدافعون، وطوفان الموكب يتدفق بموسيقاه الوحشية (ربما تكون هى ذات الموسيقى التى سمعها أنطونيو وهو يلفظ أنفاسه فى قصيدة كفافى) يحيط بظلام الميدان الكبير، ينشر حوله خيالات عصبية مرتعشة للجلابيب والوجوه والأشياء التى بلا مضمون والتى انبثقت ألوانها تصبغ أطراف السماء. كان الناس يشعلون حماس بعضهم البعض.

وهنالك، فى الأراضى الداخلية المظلمة الموازية للساحل، حيث

(*) عربية بحروف لاتينية.

المنازل خربة فى أكوام حجرية، مهجورة، خاوية، حديقة صغيرة بها ضريح يحدد محور هذه الضجة ومعناها. هنا أمام شمعة مخروطية وضاءة، كانت تتلى الصلاة المسيحية من أجل القديسة المسيحية، بينما يمور حولها زحام الإسكندرية الداكن وفيضان البشر فيها. دستة من المعتقدات والأديان تشارك فى احتفال أضفى الزمن عليه قداسة، غدت ملكا للكافة، وقد تكرس له موسم معين ومكان معين بعد أن طمست الأسس التى قام عليها أصلا، والمأثور عنه فيما مضى، والرمز الذى كان يمثله. إن كل الأديان واحدة بالنسبة لبلد متدين. كان المهرجان يدوى بزياط الأنوار والموسيقى، بينما كان المؤمنون يقدمون صلواتهم لقديستهم المختارة.

وارتفع، فوق كل ذلك، صفير الآلات البخارية التى تعمل فى مخزن البضائع المعتم، وصفارة باخرة تشق طريقها المتعرج عبر الميناء، وقد بدأت إبحارها إلى الهند (وكأن المدينة تذكرهم فجأة بنفسها، بقوى وحاجيات مستودع هائل). واحتوى الليل الجميع - وغانية تغنى بصوت أجش مثلوم، بلكنة سكندرية، على إيقاع خبطات الأصابع فوق الطبلة. وصراخ الصبية الذين يركبون الأراجيح الدوارة المرهقة ولعبة أوكار الأوز، والديكة المتصارعة، وحواة الثعابين، وعجائب المخلوقات (زبيدة المرأة الملتحية والعجل ذو الأرجل الخمس) والمسرح الكبير المعد من الخيش، والذى يقف الرجال أمامه يرقصون عضلاتهم، عرايا إلا من قماش يستر عوراتهم، ليعلنوا عن مهاراتهم، يقفون بلا حراك إلا من تموجات أجسادهم بصورة رائعة لا تصدق، عضلات الصدر والبطن والمتن تعمل، تختلج بطريقة أشبه ببرق الصيف الخادع.

وقف ناروز مسحورا يلتفت حوله، ثملا يستمتع، يتلذذ، بكل ما

يرى، وقد ترك قدميه تسيران على غير هدى فى متعرجات مدينة الضوء تلك. أفلت ضاحكا، عند نهاية أحد الممرات، من قبضة دستة من الفتيات اللاتى يمارسن مهنتهن الفظة فى عشش من خيش عليه رسومات، فيما بين الأكشاك. بلغ العشش الباهرة الإضاءة حيث يجرى الختان، وكانت أكبرها وأكثرها زخارف ملونة تلك التى لمحمود عناية الله، معلم عبد الله، وقد بدت فاخرة بما فيها من صور مثيرة توضح مراسيم الختان مرسومة فى لوحات ذات أطر، كما تدلت من الباب قارورة كبيرة مليئة بالعلق. كان رئيس الرابطة بنفسه موجودا فى هذه الليلة، يلقى فى الناس خطبة رنانة يعدهم فيها بالختان المجانى للمؤمنين الفقراء الذين يعجزون عن دفع الأجرة المعتادة. كان صوته الجهورى يدوى هادرا، بينما وقف مساعداه على أهبة الاستعداد خلف الكرسى، الأشبه بكرسى ماسح الأحذية، بحواشيه النحاسية، وفى يد كل منهما موس جاهز للعمل. وكان يجلس داخل العشة اثنان متقدمان فى السن يرتديان حللا سوداء ويرشفان القهوة وقد بديا كعالمين من علماء فقه اللغة فى مؤتمر ما.

كان العمل راكدا. وزعق العجوز مناديا «أقبلوا، أقبلوا، تطهروا أيها المؤمنين». كان يقف واضعا إبهاميه وراء طية سترته القديمة، والعرق يرشح على وجهه، ينثال من تحت طربوشه الأحمر. وكان يجلس على مقربة منه ابن عم له وقد استغرق فى عمله يرسم وشما على صدر ذكر مومس بهى الطلعة، تنساب خصلات شعره المدهون بالزيت على ظهره وقد كحل عينيه وصبغ شفتيه، وإلى جواره لوح زجاجى لامع رسمت عليه مجموعة منتقاة من الرسومات حتى يختار منها الزبائن ما يشاءون - أشكال هندسية تخص المسلمين، آيات قرآنية، تسجيل نذر معين أو أسماء من يحبهم الراغب فى الوشم. كان الرجل

يملأ ثقوب الوشم فوق الجلد لمسة بعد لمسة، كأستاذ فى شغل الإبرة، ويبتسم من حين لآخر وكأنه يضحك لنكتة خاصة، يعمل فى دأب لاستكمال الصورة التى يشكلها بوخز الإبرة، بينما العجوز يزأر ويزعق بالقرب منه، «أقبلوا، أقبلوا يا مؤمنين».

مال ناروز فوق راسم الوشم قائلا فى صوت أجش، «هل المجذوب هنا الليلة؟». رفع الرجل عينيه الجافلتين وقد توقف، ثم قال، «نعم، أعتقد أنه قرب المقابر».

شكره ناروز وهو يستدير عائداً مرة أخرى، إلى العشش والأكشاك المزدحمة، متخذا طريقه عشوائيا عبر المسالك الضيقة حتى بلغ أطراف المناطق المضاءة. كان يرقد فى الظلام أمامه، فى مكان ما، عدد قليل من مقامات الأولياء المهجورة التى تميل عليها، تظللها، أشجار النخيل. هنا كان يقف الرجل الرهيب، الذى اشتهر بهوسه الدينى كئيب المنظر، يطلق بروق ورعود شخصيته المغناطيسية على جمع واجف خائف منه، وإن كان مفتونا به.

ارتعد ناروز، أيضا، وهو يحملق فى وجهه الذى عاث الدهر فيه، وقد صبغ عينيه بقلم فحم فغدت كعينى وحش فى الصور الرمزية، وبدت نظراته عدوانية، غير إنسانية. كان الرجل المبروك يقذف باللعنات والدعوات على حلقة المستمعين، وأصابعه تتلوى تنبسط كالمخالب، وهو يقفز راقصا هنا وهناك كدب حبيس، يدور ويلف فى سرعة، يتأخر، يتقدم، نحو الجمع حوله. ينخر، يزأر ويصرخ حتى ارتعد الناس أمامه مبهورين بقواه، حتى «أخذته الجلالة» كما يقول العرب، ولبسته قوى الأرواح.

وقف الرجل المبروك وسط جزيرة من الأجساد التى سقطت على

الأرض، البعض بتأثيره المغناطيسى، والبعض يزحف كالعقارب والبعض يصرخ يمأمئ كالماعز والبعض يشهق وينهق. كان الرجل يقفز ما بين الحين والحين على أحد هؤلاء وهو يطلق صرخات بشعة ثم يمتطيه ويسير به عبر الحلقة وهو يضربه على عجيزته كالمجنون، ثم يستدير فجأة، الزبد يتطاير من بين أشداقه، لينطلق مندفعا بين الجمهور، ينقض على ضحية تعسة، وهو يصرخ، «هل تسخر منى؟» ممسكا به من أنفه أو أذنه أو ذراعه ليسحبه بقوة، تفوق قوة البشر، إلى داخل الحلقة. وبحركة سريعة مفاجئة من أصابعه التى تشبه المخالب «يمحو بصيرته»، ويطوح به بين الضحايا الذين يزحفون على الرمل عند قدميه، وهو يطلق الصرخات الحادة طالبا الرحمة، فتتحول صرخاته إلى خنخنة بين نهيق ونعيق هؤلاء الذين وقعوا بالفعل تحت تأثيره السحرى. كان فى إمكان المرء أن يحس بقوة شخصيته وهى تنطلق بين ا لحشد المزدحم انطلاق الشرارات من السندان.

جلس ناروز فى الظلام خارج الحلقة، على شاهد أحد المقابر، يراقب ما يجرى. صرخ المجذوب صرخة عنيفة. «أيها الشياطين المدنسين»، وهو يدفع بمخالبه إلى الأمام فتتراجع حلقة الناس حتى يتفادوا هجمته الشرسة. وارتفع صوته إلى زئير مخيف، «أنت، أنت، وأنت»، كان لا يهاب ولا يحترم أحدا إن «أخذته الجلالة».

كان يسير عند أطراف هذا الجمع شيخ مهيب يرتدى العمة الخضراء، دلالة على أنه من نسل الرسول، عندما رآه المجذوب فاندفع نحوه بين الحشد، وقد تطاير جلبابه، حتى بلغه فصرخ قائلا، «إنه غير طاهر». واستدار الشيخ إلى المجذوب الذى يتهمه هكذا بعينين غاضبتين، وأخذ يعاتبه محتجا. إلا أن المجذوب قرب وجه الشيخ من

وجهه، دافعا بنظراته المخيفة فى عينيه. وفجأة تبلد الشيخ وتمايلت رأسه، فى اضطراب، على رقبته. وصرخ المجذوب، وهو يدفعه إلى أسفل ليركع على أربع، وهو ينخر كالخنزير. ثم سحبه من عمامته ليلقى به بين الآخرين. وصاح الحشد «كفى»، وقد أغضبته تلك الاستهانة برجل له قداسته. إلا أن المجذوب استدار مندفعا نحو الحشد صارخا وأصابعه تنتفض، «من ذا الذى قال كفى؟ من ذا الذى قال كفى؟».

ووقف الشيخ العجوز، استجابة لأوامر هذا الصوفى الأشبه بكابوس فظيع وأخذ يرقص منفردا رقصة شعائرية قصيرة، وهو يصرخ فى صوت رفيع كأصوات الطيور، «الله! الله»، بينما يخب مهتزا حول دائرة الأجساد، وفجأة تقطع صوته إلى صرخات مختنقة كحشرجات حيوان يموت. وصاح الحشد، «كف عما تفعل، كف عما تفعل أيها المجذوب». وأتى المنوم المغناطيسى ببعض الحركات اليدوية الساذجة، ثم دفع بالشيخ العجوز خارج الحلقة وهو ينهال عليه بأقذع اللعنات.

وترنح العجوز ثم استعاد نفسه. أفاق تماما وقد بدا أنه لا يحس إلا القليل مما أصابه من سوء خلال التجربة التى مر بها. واقترب ناروز منه بينما كان يعيد عمامته إلى وضعها وينفض التراب عن قفطانه. وحياه ناروز وسأله عن اسم هذا المجذوب، إلا أن الشيخ العجوز لم يكن يعرفه وقال، «لكنه رجل طيب للغاية، إنه رجل مبروك، لقد عاش، ذات مرة، وحيدا فى الصحراء لسنوات عدة» وسار فى وقار وجلال إلى قلب الليل. وعاد ناروز يجلس فوق شاهد المقبرة. يتأمل ما حوله من جمال، ينتظر حتى تواتيه فرصة الاقتراب من المجذوب الذى كانت صرخاته الحيوانية تدوى فى الليل، تخترق صخب المهرجان وطنين

الرجال المباركين فى مزار قريب. لم يكن قد حدد بعد أفضل السبل للتعامل مع بطل الظلام العجيب. وانتظر مستغرقا فى تأملاته.

كان الوقت متأخرا عندما أنهى المجذوب عرضه المسرحى، مطلقا سراح الكائنات الحبيسة عند قدميه، طالبا من الحشد أن ينفض وكل يصفق كفيه معا، وكأنهم مجموعة من الأوز. ووقف برهة يصب لعناته عليهم، ثم استدار فجأة على عقبيه واتجه سائرا إلى المقابر. وفكر ناروز الذى كان قد انتوى استخدام العنف معه، «يجب أن أكون على حذر، يجب ألا أنظر فى عينيه. كان لديه خنجرا صغيرا، فحرره من غمده، وأخذ يتبعه فى بطء وعناد.

سار الرجل المبروك بطيئا محنيا كأنما يحمل هموما تفوق العد والحصر، كأنها أثقل من أن يحملها مخلوق بشرى. كان ما يزال يئن وينشج، ثم سقط فجأة فوق ركبتيه زاحفا عدة خطوات فوق الأرض وهو يتمتم. وراقب ناروز كل هذا وقد مال برأسه ككلب صيد ينتظر. وطافا معا تخوم المهرجان المتعرجة فى عتمة تلك الليلة الحارة حتى وصل المجذوب أخيرا إلى حائط من الطوب ممتد، متهدم، يفصل بين حدائق مهجورة ومنازل متداعية. تضاءلت ضجة المهرجان إلى طنين، إلا أن آلة بخارية كانت ما تزال تجلجل، فى مكان ما، فى الجوار. سارا فى شبه جزيرة من الظلام، عاجزين عن الحفاظ على مسافة بينية متناسبة، كتائهين فى صحراء مجهولة. إلا أن قامة المجذوب غدت الآن أكثر انتصابا، وخطاه أكثر إسراعا، وقد تملكته لهفة الثعلب الذى اقترب من جاره. ثم استدار أخيرا إلى ساحة واسعة مهجورة، منزلقا عبر فتحة فى جدار من طوب. خشى ناروز أن يفقد أثره بين هذه البقايا المتناثرة لبعض المساكن والمقابر التى كساها التراب. عثر عليه فى أحد

الأركان وقد انتفخت هيئته وتضخمت، بسبب الظلام، حتى غدت كسراب آدمى يصل إلى ارتفاع اثنتى عشر قدما. ناداه فى رقة، «أيها المجذوب، مَجد الله». فجأة تلاشى خوفه من الشر المرتقب كما يحدث له دوما، عندما يكون مقدما على ارتكاب عمل يتسم بالعنف. وانتابه فرح وحشى وهو يخطو إلى الأمام، فى متناول قوة هذا الرجل المبروك، وقد سحب الخنجر من غمده حتى منتصفه.

تراجع المجذوب خطوة فأخرى. فجأة أحاط بهما بصيص نور كان ينفذ عبر الظلام، من مصباح بعيد فى الشارع، فبعث ذلك فيهما بالحيوية وقد كلل رأسيهما بهالة من ضوء فصارت رأس كل منهما كميدالية كبيرة. رأى ناروز بصورة مبهمة، الرجل وهو يرفع ذراعه، بطريقة تثير الشك، ربما لخوفه كما يفعل الغواص، ثم أراحها فوق عارضة خشبية عطنة، ربما استخدمت فى مكان ما، يوما ما، كدعامة لحائط إحدى الزرائب المبنية بالطوب اللبن. ثم استدار المجذوب نصف استدارة ليضم راحتيه، ربما فى صلاة، فأقدم ناروز على حركتين متتاليتين محسوبتين دقيقتين ورشيقتين. فقد رشق بيمناه الخنجر فى الخشب مثبتا ذراعى المجذوب إليه بتثبيته كمى جلبابه الخشن الطويلين، وأمسك بيسراه ذقن الرجل كما يمسك المرء بحية الكوبرا من رأسها ليمنعها من أن تبطش به. وأخيرا، دفع رأسه إلى الأمام، بطريقة غريزية، مادا شفته المشقوقة (إذ حتى التشوه الخلقى يمنح صاحبه، فى الشرق، قوة سحرية) وهو يفح وكأنه يرسل إليه بقبلة ماجنة ويقول، «أوه، يا حبيب النبى».

ظلا هكذا واقفين مدة من الزمن طويلة، وكأنهما صورة منسية لحركة فى لوحة، فوق مقبرة مصنوعة من الخزف أو البرونز. وأخذ

الصمت المحيط بهما ينبض من جديد، والمجذوب يتنفس فى تثاقل كأنما يكاد يشكو فجيعة. إلا أنه لم يقل شيئا. حملق ناروز فى هاتين العينين الرهيبتين، واللتين رآهما الليلة تشتعلان كالجمرتين، لكنه لم يعد يرى فيهما أية قوة. كانت العينان تحت الخطوط المرسومة بالفحم خاليتين خابيتين. وكان بؤبؤاهما مفرغين من أى معنى، مجوفتين، ميتتين. بدا وكأنه قد ثبت رجلا مات لتوه فى هذا الركن من الحائط، فى هذه الباحة المهجورة. رجل يكاد يسقط بين ذراعيه ويلفظ أنفاسه الأخيرة.

غمرت عقل ناروز، وقد أدرك أن ليس هناك ما يخيفه، وأن المجذوب لا تمتلكه الآن «نشوة الجلالة»، موجات من الحزن، حزن المقر بخطئه. كان يعرف مصدر قدسية الرجل، القوة الدينية التى يتخذ منها ملاذا لحظة جنونه. وامتلأت عيناه بالدموع، فأطلق ذقن الرجل القديس، وأخذ يمسح بيده شعر رأسه المتلبد ويهمس فى صوت ملىء بدموع المحبة «آه، يا حبيب الرسول. آه أيها الحكيم المحبوب». وكأنه يدلل حيوانا، وكأن المجذوب قد حول نفسه إلى كلب صيد محبوب. وأخذ ناروز يربت أذنيه وشعره مكرراً نفس الكلمات فى صوت خفيض سحرى، كذلك الذى يستخدمه دوما مع حيواناته المفضلة. واستدارت عينا الساحر وتركزت نظراتهما وعشى أبصارهما كطفل تغلب عليه، فجأة شعوره بالإشفاق على ذاته، وشهق شهقة واحدة من سويداء قلبه، وسقط على ركبتيه فوق الأرض الجافة. ويداه مازالتا مصلوبتان إلى الحائط. انحنى ناروز وسقط معه وهو يطيب خاطره بصوت غير واضح المقاطع. لم يكن ذلك تظاهرا. كانت أعماقه تمور بالتبجيل والتوقير لرجل يعرف أنه باحث عن الحقائق النهائية للدين خلف قناع من الجنون.

إلا أن جانبًا آخر من عقله كان مشغولا بالمشكلة الرئيسية. فقال فى صوت ليس هو صوت الصياد الحانى الذى يتلطف فى القول مع شىء أثير لديه، ولكن فى نغمة الرجل الذى يحمل خنجرا، «والآن عليك أن تخبرنى بما أود معرفته. أم إنك لن تفعل ذلك؟». كانت رأس الساحر ما تزال متهدلة فى إعياء، فأدار عينيه فى رأسه إلى أعلى فى إرهاق كان أقرب ما يكون إلى الموت. وقال ناروز فى صوت أجش، «تكلم». ثم قفز يستعيد خنجره، وعاد يركع إلى جواره وإحدى يديه ما تزال ممسكة برقبته. وأخبره بما يريد معرفته.

وأنَّ الرجل قائلا: «إنهم لن يصدقونى. لقد رأيتها فقط بقدراتى الخاصة، وأخبرتهم بما رأيت مرتين. إننى لم ألمس الطفلة»، ثم صرخ وقد استعاد فى لمحة مفاجئة صوته ونظرته المعبرة عن قوته المفقودة. «هل أريك أنت أيضًا؟ أتحب أن ترى؟». ثم غرق إلى الخلف مرة أخرى. وصرخ ناروز الذى كان ينتفض الآن، من تلك الصدمة التى لم يكن يتوقعها، «نعم أرنى». بدا وكأن تيارًا كهربيا يسرى فى رجليه فيبعث فيهما تلك الرعشة، وبدأ المجذوب يتنفس فى تثاقل ورأسه تسقط على صدره بعد كل نفس يتنفسه. كانت عيناه مغلقتان، وقد بدا كماكينة تشحن نفسها بنفسها من هواء الجو. ثم فتح عينيه وقال: «انظر إلى الأرض».

وركع فوق الأرض الجافة المحروقة، راسما بسبابته دائرة فوق التراب، ثم سوى الرمال بيده، قائلاً فى همس وهو يلمس الأرض ببطء وعن قصد، «انظر هنا حيث الضوء. سدد عينيك إلى قلب الأرض، هنا»، وهو يشير بأصبعه إلى نقطة بذاتها.

وركع ناروز متثاقلاً مطيعًا، قائلاً فى هدوء بعد لحظة، «إننى لا أرى

شيئًا. نفخ المجذوب أنفاسه فى بطء فى سلسلة من الزفرات. قال فى إصرار، «فكر فى ضرورة أن ترى فى الأرض». دفع ناروز بنظراته لتخترق الأرض، مركزًا عقله حتى تصب كل قواه فى تلك النقطة أسفل أصبع الساحر. مرت فترة سكون، ثم قال أخيرًا، «إننى أرى صورًا». فجأة تراءى له فى وضوح جانبًا من البحيرة الكبيرة بشبكة قنواتها المتداخلة الترابط ومنزل عتيق يظلله النخيل مبنى من قرميد بهت لونه، حيث عاشت يوما ما، جوستين والأرناؤوطى - الذى بدأ كتابه «عادات» هناك، وحيث كانت الطفلة.. أخيرًا قال ناروز: «إننى أراها». فقال المجذوب: «آه انظر جيدًا».

أحس ناروز وكأنه مخدر تخديرًا رقيقًا غامضًا بفعل الشبورة المتصاعدة من مياه القنوات واستمر قائلاً: «إنها تلعب إلى جوار النهر. لقد سقطت فيه». كان فى وسعه أن يسمع صوت أنفاس ناصحه الأمين وهى تزداد عمقًا. قال المجذوب وهو ينغم كلماته: «لقد سقطت فى الماء». واستمر ناروز، «لا أحد بجوارها. إنها وحيدة ترتدى ثوبًا أزرق به مشبك زينة على شكل فراشة». ثم ساد الصمت زمنا طويلا. وأخذ الساحر يئن فى رقة قبل أن يقول فى نغمة غليظة كبقبقة المياه «لقد رأيت ذات المكان. الله قوى جبار، ومنه أستمد قدراتى الخاصة». ثم أخذ حفنة من تراب دعك بها جبينه بينما أخذ الغيب الذى انكشف فى الاضمحلال.

تأثر ناروز أبلغ التأثر بقوى المجذوب حتى إنه قبله واحتضنه، دون أن ينتابه الشك، ولو للحظة واحدة، فى صدق المعلومات التى منحتها له الرؤيا. نهض على قدميه، وهو يهز نفسه كما يفعل الكلب. حيا كل منهما الآخر فى همس خفيض وافترقا. ترك ناروز الساحر جالسا

هنالك، مرهقا، فوق الأرض، واستدار بخطاه، مرة أخرى فى اتجاه أنوار المهرجان. كان جسده ما يزال يرتعش كرد فعل لما حدث وكأنه يعانى من وخز بالإبر والدبابيس - أو كأن تياراً كهربياً قد أفرغ فى فخديه ومؤخرته. كان يعرف كما يدرك الآن، أنه قد عانى خوفاً شديداً، فتثاءب وانتفض بينما كان يسير وهو يضرب ساقيه بذراعيه ليدفع بالدفء إليهما - كأنما يستعيد دورته الدموية وقد تباطأت.

كان عليه حتى يصل إلى باحة النجار حيث ترك جواده، أن يقطع الركن الشرقى من أرض المهرجان، حيث كان الزياط ما يزال قائماً حول المراجيح، والأضواء ما تزال مبهرة رغم أن الوقت قد غدا متأخراً. كان ذلك هو الوقت الذى تنشط فيه المومسات، نساء سود أو برونزيات أو ليمونيات، لا يخشين الإثم أو المعصية، يتصيدن الرجال الباحثين عن اللحم مدفوع الثمن، لحم من كل لون، لون العاج أو الذهب أو اللون الأسود. سودانيات ذوات لثات أرجوانية وألسن زرقاء كالكلاب الصينية، مصريات شمعيات - شركسيات بشعور ذهبية وعيون زرقاء. زنجيات بلون التراب المائل للزرقة، تفوح منهن رائحة دخان الأخشاب. ولكل لحم تنويعاته المختلفة، اللحم العجوز يتهدل على عظام نخرة، ولحم الفتيات والنسوة الذى لا يشبع ولا يرتوى ظمأه فوق أطراف أجساد تسقمها الشهوات التى لا يمكن التعبير عنها بالرسوم المصورة، إلا أنه لا يمكن إطفاؤها إلا فى التمثيليات التى تقوم على التقليد الصامت - لأنها شهوات موروثة فى غياهب العقل، لا تنتمى إليهم بل تنتمى إلى أسلافهم البعيدين، وتفصح عن نفسها من خلالهم. الشهوة التى تنتمى إلى البويضة التى تقبع هناك فيما تحت سطح النفس البشرية.

كان ليل الإسكندرية الأبيض الحار يشتعل كقنديل متوهج، يخترق بطن الأقدام العارية السوداء ليصل إلى أعلا يبعث الدفء فى العقول والقلوب التى لا يرجى لها صلاحا. وأحس ناروز بنفسه، وحوله كل هذا السعار وتلك الفتنة محمولا طافيًا كزنبقة عائمة فوق مياه النهر، ورغم ذلك كان يلوذ بعمق فى سكون خياله بينما يذهب بعيدًا إلى حيث النماذج الأصلية للصور الرائعة التى تقبع فى انتظاره.

ورأى حينئذ، وهو فى حالة من الاسترخاء، مشهدا قصيرًا يمثل أمام ناظريه - لم يفهم له معنى. مشهد يخص شخصا لم ولن يلتق به أبدًا إلا على صفحات هذا الكتاب - إنه سكوبى. لقد بدأ شغب ما، فى اتجاه ما، فى ناحية عشش الختان. كان الخيش الواهى والجدران الورقية، بما عليها من رسومات أيقونية مثيرة، ترتعش وتهتز. وتداخلت الأصوات والصرخات وأرعدت الأحذية بمسامير نعالها الغليظة فوق الأرضيات الخشبية المؤقتة، ثم اندفع عجوز يترنح من خلال هذه الجدران الورقية يحمل طفلا ملفوفا فى ملاءة. كان يرتدى ملابس ضابط شرطة مصرى، وساقاه، بما عليها من لفافات، ترتعش تحته وهو يجرى. وانهمر خلفه جمع غفير من العرب يصرخون ويهرون ككلاب متوحشة وإن كانت خائفة. واندفعت هذه المجموعة كلها، فى غارة يائسة، عبر الطريق الذى سلكه ناروز. كان الرجل العجوز ذى البزة العسكرية يصرخ فى صوت واهن، إلا أن صراخه ضاع هباء فى هذا الضجيج سار مترنحا عبر الطريق إلى مركبة عتيقة تجرها الخيل وصعد إلى داخلها. وانطلقت للحال تهرول على الطريق المتعرج يطاردها وابل من الحجارة واللعنات. كان ذلك هو المشهد بتمامه.

واستثار فضول ناروز، وهو يرقب المشهد، صوت آت من خلف

الظلال التى إلى جانبه ـ صوت لا ينتمى عمقه أو طلاوته إلا لشخص واحد فقط : كليا . وأحس كأنما أصابته طعنة مفاجئة ـ وشهق فى حدة وألم ، وضم راحتيه معًا فى حركة طفولية ضارعة . كان الصوت صوت المرأة التى يحبها ، إلا أنه جاء من امرأة زرية كانت تقبع فى ظلال باهتة ـ جسدها ملىء بثنيات الشحم تجلس سافرة أمام عشتها الورقية على كرسى ذى عجلات ثلاث . كانت تأكل ، بينما تتكلم ، كعكة بالسمسم ، وهى أشبه بدودة ضخمة تقضم خسة ـ كانت تتكلم بطريقة تتطابق نبراتها ونبرات كليا نفسها .

توجه ناروز ، على الفور ناحيتها قائلاً فى صوت خفيض متملق : «تكلمى معى يا أمى» . ومرة أخرى سمع تلك الأنغام ذات الجرس الموسيقى الرائع تتمتم بكلمات التحبب والإعزاز والمداهنة الضارعة ، لتسحبه إلى حجرة التعذيب الصغيرة (إنها بتيسوكوس الإلهة التمساح ، ولا أقل من ذلك) .

وعميت بصيرته عن كل شىء ، إلا عن إيقاع الصوت ، فتبعها كالمدمن ، حيث وقف فى وسط الغرفة المظلمة وقد أغلق عينيه ووضع راحتيه على صدرها الرجراج الضخم ـ وكأنه ينهل موسيقى كلمات الحب تلك ، والتى تنثال بطيئة فى جرعة واحدة طويلة مترعة . ثم بحث عن فمها بطريقة محمومة وكأن فى وسعه أن يمتص صورة كليا ذاتها من أنفاسها ـ من تلك الأنفاس المترعة برائحة السمسم . كان ينتفض اهتياجا ـ واختلج كالبرق فى خاطره الشعور بالتهلكة الذى يحسه ذلك الذى يقدم على انتهاك حرمة مكان مقدس بفعلة آثمة لم يستطع مقاومتها ، وهى فى ذاتها بشعة الجمال . (إن إفروديت تسمح بكل تزاوج فى الحب بين العقل والإحساس) .

خلع ملابسه ضاغطا دمية اللحم الضخمة هذه فى بطء إلى أسفل فوق السرير القذر يلاطف جسدها بيديه القويتين ليستخرج منه ما كان يتخيله من استجابات، ربما ينالها، لو كان يلاطف جسد امرأة أخرى يحبها. وهمس فى صوت أجش، «تكلمى يا أمى وأنا أفعلها، تكلمى». كان يعتصر من هذه الأشبه بدودة كبيرة بيضاء، صورة نادرة رائعة، ربما نادرة ندرة إمبراطور العثة، هى صورة جمال كليا. كم كان بشعا وجميلا أن يرقد هنالك فى النهاية، وقد اعتصر كما تعتصر أنبوبة الألوان الزيتية القديمة، يرقد بين خرائب الشهوات الزائلة: وهو ذات الرجل الذى يعيش فى أعماقه، عزلة حلمه الشخصى، الحلم العابر كأيام الطفولة. حلمه الذى يسحق القلب ويكسر الخاطر: كليا!

لكن هنالك ما يوقف الحديث عنه الآن. نعم، إننى أعيد صياغة تلك المشاهد فى ضوء ما جاء من تعليقات بلتازار وحواشيه. إن ذاكرتى تعيد إلى الحياة شيئًا نسيته. إنها ذكريات عن عشة قذرة، ورجل وامرأة يرقدان معًا فى سرير، وأنا أنظر إليهما نصف مخمور، أنتظر دورى. لقد وصفت المنظر كله فى مكان آخر - إلا أننى اعتقدت حينذاك أن الرجل كان منمجيان. لكننى أتساءل الآن، إن كان هو ناروز «لقد رقدا هناك، كضحايا حادثة بشعة، وقد اندمجا معًا بطريقة قبيحة خرفاء، وكأنهما أول شريكان فى تاريخ الجنس البشرى، يقومان بتجربة تفتقد إلى التناسق لاستنباط هذه الوسيلة الغريبة للاتصال».

وهذه المرأة «بخصلات شعرها السوداء المتموجة»، والتى ترقد بين ذراعى ناروز - هل يمكن لكليا أو جوستين، أن تتخيلا نفسيهما، وقد نسجت صورتهما من هذا اللحم مدفوع الثمن؟ كان ناروز ينهل كليا، يروى ظمأ غليله، من هذا الجسد المأجور للمتعة، تمامًا مثلما كنت أود

أن أنهل أنا جوستين «مرة أخرى وجه أفرودويت المتجهم «الغافل البدائى».

نعم، يمكن للمرء أن يطفئ ظمأه هكذا، يستدعى شيطانة الأحلام إلى مرقده، ويمارس الجنس معها فى منامه. ووقف ناروز فى الظلام، فيما بعد، حائراً. وأحس كأنما يغنى. لم يكن فى وسع المرء حقًا، أن يقول بأنه قد نسى كليا، تمامًا، فى هذه اللحظة، لكن المرء يستطيع أن يؤكد، على الأقل، بأن فعلته تلك قد حررته من صورتها، كان قد تطهر منها تمامًا ـ كان يمتلك فى تلك اللحظة شجاعة أن يكرهها. ذلك هو التناقض الكامن فى الحب. الحب الحقيقى.

وعاد يسير بطيئًا عبر طرق متعرجة. إلى صديقه النجار، ليأخذ جواده بعد أن يوقظ الأسرة ليؤكد لها أن الجلبة فى الأسطبل، فى هذه الساعة المتأخرة من الليل، إنما هى صادرة عنه وليس عن لص يحاول السرقة.

ثم امتطى حصانه عائداً إلى أملاكه، وهو أسعد من يعيش على ظهر الأرض. بلغ العزبة مع إشعاعات الفجر الأولى. ولما لم يجد أحدا، التف بعباءته، ورقد فى الشرفة يستريح، حتى توقظه أشعة الشمس. كان يود أن يبلغ أخيه، ما لديه من أخبار.

واستمع نسيم. فى صباح اليوم التالى، إلى قصته كلها، فى هدوء وجدية، وهو يحس الدهشة. كيف لا يصدر عن القلب الإنسانى صوتًا وهو ينزف دمه قطرة، قطرة ـ كان يرى، فيما سمع، عقبة كؤود تعرض للخطر تلك الثقة التى كان يبغى إنماءها ورعايتها فى زوجته. وقال ناروز: «لا أعتقد أننا سوف نجد الجثة بعد هذا الزمن الطويل للغاية. إلا أننى سأذهب وفرج ومعنا بعض الخطاطيف لنبحث هناك ـ إننى لا أعتقد

بأى ضرر من المحاولة. هل أفعل ذلك»؟ وتقلصت كتفا نسيم. وصمت أخوه لحظة، إلا أنه عاود الحديث بنفس الوتيرة. «لم أكن أعرف شيئًا من قبل عن ملابس الطفلة، إلا أننى سأصف لك ما رأيت فى الأرض. كانت ترتدى ثوبًا أزرق به مشبك للزينة على شكل فراشة». قال نسيم وقد كاد ينفد صبره: «نعم، هذا صحيح تمامًا. إنه نفس الوصف الذى أعطته جوستين للمحققين من رجال النيابة - إننى أتذكر هذا الوصف، حسنا يا ناروز. ماذا فى وسعى أن أقول؟ إنه وصف حقيقى، وأنا أشكرك على ما فعلت. أما بالنسبة للبحث فى البحيرة، فلقد قامت النيابة بهذا الإجراء مرات عدة. نعم، ودون جدوى. إذ إن هنالك قطع فى القناة، ثم مسار تيار تحتى قوى للمياه».

قال ناروز وقد أصابه الغم: «إننى أدرك ما تقول».

قال نسيم: «الأمر كله عسير الفهم». ثم احتد صوته، «إلا أن هنالك شيئًا واحدًا عليك أن تعدنى به، يجب ألا تعرف الحقيقة منك أنت. عدنى بذلك».

قال أخوه: «إننى أعدك بذلك». واستدار نسيم، فى ذات الوقت، ليجد نفسه وزوجته وجهًا لوجه. كان وجهها شاحبا، وعيناها الواسعتان تغوصان فى عينيه كمن يبحث عن شىء فى قلق وترقب وفضول. قال نسيم فى عجلة: «يجب أن أذهب الآن» ثم وضع سماعة الهاتف. كان الآن يواجهها، فأمسك يديها بيديه. إننى أراهما، بعين خيالى، على هذا الحال دوما، يحملق كل منهما فى الآخر وقد تشابكت أيديهما، قريبين من بعضهما تمام القرب، وبعيدين أيضًا تمام البعد. إن الهاتف هو الرمز الحديث لاتصالات لم تحدث البتة.

* * *

(٨)

«لقد حدثتك عن موت سكوبى (هكذا كتب بلتازار)، إلا أننى لم أحدثك بالتفصيل عن الطريقة التى مات بها. لم أكن شخصيًا، أعرفه معرفة جيدة، إلا أننى كنت أعرف مدى تعلقك به. لم يكن عملا يبعث المسرة فى نفسى، كما جاء اهتمامى به، حقًا، بطريقة عرضية تمامًا ـ كان ذلك عن طريق نمرود مدير الشرطة، والذى كان رئيسًا لسكوبى ثلاث دورات، إذ كنا نتعشى معًا فى تلك الليلة بعينها.

«هل تتذكر نمرود؟ حسنًا، لقد كنا نتنافس على كسب ود شاب ظريف، ممثل من أثينا يحمل اسمًا لطيفا هو سقراط بيتاكاكيس. وكان المتوقع، نتيجة مثل هذه المنافسة الخطيرة، ظهور مشاعر سيئة فيما بيننا. ولم يكن ذلك، على المستوى الرسمى، فى صالحنا، (إذ كنت أنا مستشارا طبيا لإدارته على نحو ما). ولذا قررنا فى صراحة، وبطريقة حكيمة، دفن غيرتنا، وأن نتشارك الشاب معًا ـ كما هو خليق بكل أبناء الإسكندرية الطيبين. وهكذا جلسنا نحن الثلاثة نتناول طعام العشاء فى الأوبرج بلو، وقد جلس الشاب فيما بيننا كحشو اللحم فى الساندوتش. يجب أن أقر وأعترف بأننى كنت أتفوق، إلى حد ما، على نمرود، إذ إن معرفته باليونانية كانت ضعيفة، إلا أن روح العقل

وتقدير الأمور عامة، هى التى تسود. كان الممثل يشرب الشمبانيا السوداء طوال الأمسية. كان يسترد عافيته، كما أوضح لنا، من مرض السل، بهذه الطريقة. لكنه رفض فى النهاية أن تكون له أية علاقة بأى واحد منا. كما أوضح لنا، إنه فى الحقيقة مولع بفتاة أرمنية، ذات شارب كث كثيف، تعمل فى عيادتى. وهكذا ضاع كل الجهد سدى - ويلزم هنا أن أقول إن نمرود كان يحس بمرارة خاصة إذ كان عليه أن يدفع ثمن هذا العشاء الهائل. حسنا كنا، كما أقول، نحن الثلاثة معًا، عندما استدعى الرجل الكبير إلى الهاتف.

«وعاد بعد برهة يبدو عليه بعضا من حزن وقال: «كانت المكالمة من قسم شرطة الميناء. يبدو أن رجلا عجوزًا قد ضربه، ركلا حتى الموت، بعض بحارة الباخرة (هـ. م. س ميلتون). إن لدى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أنه واحد من هؤلاء الشواذ الذين يعملون فى فرع (ك) - هنالك بمباشى عجوز يعمل هناك». ووقف، مترددًا، على قدم واحدة. ثم استمر قائلا: «يجب أن أذهب، على أى حال، لأتأكد من الأمر. فأنت لا تستطيع أن تعرف الأمور من ظاهرها»، ثم خفض صوته وسحبنى جانبا وهو يقول، وقد وضع ثقته فىّ، لقد عثر عليه مرتديًا ثياب النساء. ربما ثارت فضيحة».

«يا لنمرود المسكين. كان فى وسعى أن أرى واجبه يضغط عليه ضغطا شديدا كى يغادر، وهو يكره أن يتركنى وحدى مع الممثل. ولذا وقف مترددًا يزن الأمر فى عمق. وعلى أى حال واتتنى، أخيرًا، طبيعتى المهذبة تنجدنى، بعد أن كدت أفقد الأمل. فنهضت أنا أيضًا. وقلت بروح رياضية تفيض بالحياة، يحسن أن آتى معك، وغمرت الرجل المسكين ابتسامات متعبة وهو يشكرنى فى حرارة على هذه

البادرة، فتركنا الشاب يأكل السمك (بسبب انشغالنا الذهنى. هذه المرة). وأسرعنا إلى موقف السيارات حيث كانت سيارة نمرود الحكومية فى انتظاره. ولم يمض وقت طويل حتى كنا نسرع على طريق الكورنيش، ثم نستدير إلى منطقة رصيف الميناء المظلمة المليئة بالأصداء، وأزقتها المرصوفة بالأحجار المدورة، وأضواء الغاز المرتعشة على امتداد أرصفة الميناء والمراسى والتى تجعلها شديدة الشبه بجانب من مارسيليا، إلى حد ما، عام ١٨٥٠. لقد كنت أكره هذا المكان، دوما، بما فيه من روائح رطوبة البحر والمباول والسمسم.

«كان مبنى نقطة الشرطة دائرى أحمر أشبه بمكتب بريد فى العصر الفيكتورى، مكون من حجرة صغيرة لإدارة أعمال النقطة، وزنزانتين مظلمتين شديدتى الحرارة بلا تهوية، وبشعتين فى تلك الليلة الصيفية. كانت النقطة مكتظة بجنود الشرطة الذين كانوا يثرثرون ويرشحون عرقا، والكل قد ظهر بياض عيونه الفزعة كعيون خيل فى العتمة، وتمدد فوق دكة حجرية، فى واحدة من الزنزانتين، جسد واه عتيق لامرأة عجوز، وقد سحب الجزء السفلى من ثوبها حتى وسطها، ليكشف عن ساقين رفيعتين فى جورب أخضر مشدود بحمالات وحذاء بحرى أسود. كان النور الكهربى قد انقطع، وشمعة مرتعشة الضوء موضوعة على عتبة فوق الجثة تنقط شمعا فوق يد عابسة عجوز، أخذت الآن تستقر مع بدايات التيبس الرمى، فى حركة مسرحية ـ وكأن أحداً يدفع عن نفسه لطمة وجهت إليه بطريقة مسرحية. كان ذلك هو صديقك سكوبى.

«كان قد ضرب حتى الموت بطريقة بشعة للغاية. وقد تهشمت عظامه تحت جلده البالى تهشم آنية خزفية. ودق جرس الهاتف، فى

مكان ما، بينما كنت أقوم بفحصه. كان كيتس وقد اشتم شيئًا ما، يحاول اكتشاف مكان الحادثة. كان الأمر أمر وقت فقط حتى تصل سيارته السيتروين العتيقة خارج المبنى. كان واضحًا أن فضيحة مدوية توشك أن تثور. وأمسك الخوف بتلابيب نمرود، ففح قائلاً: «يجب أن نخرجه من تلك الملابس». وأخذ يضرب ذات اليمين وذات الشمال بخيرزانته، دافعًا جنود الشرطة إلى الممر، حتى أخلى الزنزانة منهم. قلت له: «حسنا». وبدأت، بينما وقف مشيحا بوجهه الذى كان ينضح عرقا، فى خلع الملابس عن الجثة قدر استطاعتى. لم تكن تلك عملية تطيب لها النفس. إلا أن العجوز الفاسد غدا، فى النهاية، «عاريا كمزمور من المزامير»، كما يقولون فى اليونانية. كانت تلك هى المرحلة الأولى. وجففنا عرق وجهينا، فقد كانت الزنزانة الصغيرة حارة كالفرن.

قال نمرود بطريقة هستيرية: «يجب أن نلبسه البزة الرسمية، بأى طريقة، قبل أن يصل كيتس ليدس أنفه هنا. إننى أقترح عليك أن نذهب سويا إلى مسكنه ونحضر ملابسه. إننى أعرف أين يعيش»، وهكذا أغلقنا باب الزنزانة على العجوز: وكانت عينه الزجاجية المحطمة تعطى لوجهه مسحة من الحزن والتأنيب ـ وكأنه قد تعرض لعمل فنى قام به واحد من هواة تحنيط الطيور. هرعنا إلى السيارة التى انطلقت مسرعة عبر أرصفة الميناء إلى شارع التتويج، بينما أخذ نمرود يفحص محتويات حقيبة اليد الصغيرة الأنيقة المصنوعة من جلد غير طبيعى، والتى وضع فيها العجوز كل حاجياته قبل أن يبدأ مغامرته. كان بها بعض العملات المعدنية القليلة، وكتاب صلوات صغير وبطاقة رئاسية وحزمة من ورق الأرز قديم الطراز (والذى يندر العثور عليه فى أيامنا تلك) وهى تشبه ربطة من ورق لف السجائر. كانت تلك هى كل

المحـــتــويات. وظل نمرود يكرر ونحن فى طريقنا إلى المنزل. «هذا العجوز الأحمق الملعون، هذا الأحمق الملعون».

«أصابتنا الدهشة عندما وجدنا أن الفوضى الشاملة تجتاح مسكن العجوز. فقد عرف الجيران بموته بطريقة غامضة، أو هكذا ظننت. كانت كل حجرات شقته قد فتحت عنوة ونهبت كل دواليبه. وكان هنالك حوض للحمام أشبه بالمرحاض، مليء بنوع ما من الجعة لها رائحة العرقى. وكان واضحًا أن أهالى المنطقة قد استباحوا هذا الشراب لأنفسهم، حيث كانت هناك آثار أقدام لا حصر لها فوق السلالم، وآثار أيد فوق الجدران. وكانت بسطة السلم مغمورة بهذا الشراب. وفى صحن الدار كان أحد البوابين يرقص ويغنى حول هراوته ـ كان المشهد غريبًا للغاية، غير مألوف. لقد بدا الجيران جميعًا يحيطهم جو احتفالى يتسم بالخسة والدناءة. كان الوضع غامضًا يدخل الوحشة فى النفس. ورغم أن كل حاجيات سكوبى كانت قد سرقت إلا أن حلته الرسمية كانت معلقة خلف الباب لم يمسسها أحد، فاختطفناها. وما إن فعلنا ذلك حتى أصابنا انزعاج هائل، لأن ببغاء أخضر اللون كان فى قفص فى ركن الحجرة تكلم بصوت، أقسم نمرود أنه تقليد رائع لصوت سكوبى:

إن جاءوا من أركان الأرض مدججين بالسلاح.

فلسوف نصرعهم

«كان واضحًا أن الطائر مخمور أيضًا. بدا صوته غريبًا للغاية فى تلك الغرفة الموحشة الخالية (لم أخبر كليا بشيء من كل هذا خشية انزعاجها، حيث كانت، هى أيضًا، تكن له كثيرًا من الود).

«حسنا، عدنا إلى نقطة الشرطة ومعنا الحلة الرسمية. كنا محظوظين أنه لم تكن هنالك أية دلائل على وصول كيتس. وأغلقنا علينا الزنزانة، مرة أخرى، ونحن نلهث فى هذا الحر. كان الجسد يتيبس فى سرعة، فبدا أنه من العسير إلباسه السترة دون كسر ذراعيه، والتى كانتا، يعلم الله، هشة، حتى أنهما يمكن أن يتهشما تهشم الكرفس، أو هكذا بدتا لى، ومن ثم فإننى قمت بعمل وسط بلفها حوله. كان إلباسه السروال أيسر من السترة. حاول نمرود تقديم العون إلا أنه أصيب بغثيان حاد وقضى معظم الوقت يتقىء فى ركن الزنزانة. كان فى الحقيقة متأثرًا تأثرًا شديدًا بكل ما حدث. وظل يردد من بين أسنانه، «هذا اللوطى العجوز البائس». إلا أننا نجحنا، بقليل من الفطنة والحذق، فى درء الفضيحة، حتى سمعنا الهدير الذى لا يخطئه السمع لسيارة وكالة (جلوب) أمام باب النقطة، وصوت كيتس فى حجرة إدارة أعمال النقطة.

«يجب ألا ننسى إضافة أنه خلال الأيام التالية القليلة، مات اثنان وأصيب أكثر من عشرين شخصا بتسمم حاد من شرب العرقى، فى منطقة شارع التتويج، حتى إنه يمكن القول إن سكوبى قد ترك بصمته فى الجوار. وقد حاولنا معرفة المادة التى كان يقوم بتخميرها وذلك بتحليل الشراب، إلا أن المحلل الحكومى كف عن المحاولة بعد تحليل عدة عينات. فالله وحده يعلم ما الذى كان يخمره هذا العجوز.

«إلا أن الجنازة، على الرغم من كل ذلك. كانت ناجحة كل النجاح (فقد دفن بكل مظاهر التكريم الواجبة لضابط قتل أثناء تأديته واجبه). وقد شارك الكل فى تشييعه. إنه لأمر نادر أن تسمع العويل والتكبير الإسلامى على قبر مسيحى. وكان القس الكاثوليكى المبجل. الأب

بول، منزعجا غاية الانزعاج، ربما خوفا من عفاريت إبليس التى استدعاها بالشعوذة، بذلك العرقى المصنوع فى منزله ـ من يدرى؟ كما كانت هنالك تلك الأشياء المعتادة الرائعة من أعمال السهو والغفلة التى تميز الحياة هنا (فالقبر صغير للغاية، وأضرب حفارو القبور عن العمل وهم يقومون بتوسيعه مطالبين بزيادة أجرهم. وانطلقت عربة القنصل اليونانى به حيث ألقته فى أجمة. . إلخ إلخ). أعتقد أننى قد وصفت كل هذا فى رسالة كتبتها. لقد حدث كل شىء كما كان يتمناه سكوبى بالتمام ـ أن يدفن مكللا بكل صنوف التكريم بينما فرقة موسيقى الشرطة تعزف نداء النفير الأخير فوق قبره ـ بيد أن العزف كان مهزوزا تطغى عليه، بصورة قوية، ألحان ربع ـ النغم المصرية. كما كانت هنالك خطب ودموع! أنت تعرف كيف يطلق الناس عنان أنفسهم فى مثل تلك المناسبات، حتى يخيل إليك أن الذى مات كان قديسا. وظللت أتذكر جسد المرأة العجوز فى زنزانة نقطة الشرطة!

«ويخبرنى نمرود أن الرجل كان محبوبا للغاية، فى وقت ما، فى الحى الذى يعيش فيه، إلا أنه بدأ يتدخل، مؤخرًا، فى شعائر الختان التى تجرى للأطفال، فغدا مكروها للغاية. أنت تعرف كيف يكون العرب فى مثل تلك المسائل! لقد هددوا، فى الحقيقة، بتسميمه أكثر من مرة. وسيطرت هذه الأشياء، كما يمكن للمرء أن يفهم، على خاطره. عاش هنالك سنوات عديدة، ولم تكن له، كما أعتقد، أية حياة أخرى خاصة به. لقد حدث هذا لكثير من المغتربين. أليس كذلك؟ وحاول الجميع التماس الأعذار له. وكلف اثنان من الكونستبلات لرعايته أثناء تلك الشطحات، إلا أنه استطاع الإفلات منهما ليلة وفاته.

«ويقـول نمرود (وهو جـاد كل الجـدية) إنهـم مـا إن يبـدأوا فى ارتداء تلك الملابس، حتى تكون تـلك بداية النهـاية. وهذا مـا حـدث بالفعل. لا تخطئ فـهـمى، فتأخذ قولى مأخـذ الثرثرة. لقد علـمنى الطب النظر إلى الأشياء نظرة ساخرة مجردة، ومن ثم أحتفظ بمشاعرى التى يجب أن توجه نحو من أحبهم كحق لهم، والتى تضيع سدى على من يموت. أو هذا ما أعتقده.

«مـاذا يستطيع المرء، رغم كل شىء، أن يفعـل فى الحياة بمنعرجاتها والتواءاتـها الهائلة؟ وإنى لأعجب كيف للفنان المقدام أن يحـاول فرض نمطه عليها، بل ويغذيه بمعانيه الخاصة؟ (إن هذا السؤال موجه إليك إلى حد ما). أعتقد أنك ستجيب بأن واجب الربان يملى عليه أن ييسر فهم وإدراك مـا فى الحـيـاة من ضـحـالة وأوحـال، من أفـراح وأتراح، وبذا يمنحنا قوة التغلب عليها. نعم، ولكن..

«إننى أتوقف الليلة عند هذا الحد. لقد أخذت كليا ببغاء العجوز، كما تكفلت بنفقات جنازته. ولا تزال اللوحة التى رسمتها له فوق أحد أرفف حـجـرتهـا التى لم تعـد تصلح للسكنى. أما الببغـاء فإنه، كـمـا يبدو، ما يزال يتكلم مقلداً صوت سكوبى. وتقول كليا إنها كثيراً ما تفزع من الأشياء التى يقولها. هل تؤمن بأن روح المرء يمكن أن تسكن جسد ببغاء أمازونى أخضر لتظل ذكرى باقية فترة محدودة فى قلب الزمـان؟ إننى أحب التـفـكيـر هكذا. إلا أن ذلك قـد غـدا الآن تـاريخـا عتيقا».

* * *

(٩)

كان بومبال كلما أصابه قلق مبرح، بسبب شيء من الأشياء، يقول بإنجليزيته الطريفة الغريبة: «يا إلهى أنا اليوم متحلل متآكل». ويلوذ بنوبة النقرس، بما يليق بها من أبهة، حتى يذكر نفسه بأسلافه النورماندين. كان يحتفظ بهذه المناسبات، بمقعد قديم الطراز، مرتفع الظهر، أشبه بمقاعد البلاط، وقد غطى بالمخمل الأحمر. كان يجلس وقد وضع رجله الملفوفة فى أربطة فوق كرسى خاص بالقدمين، ويقرأ «مركيور». ويفكر بعمق فيما قد يوجه إليه من توبيخ وتأنيب، واحتمال نقله، بسبب ما يقع فيه من زلات، فى سلوكه الاجتماعى أيا كانت هذه الزلات. كان يعرف أن كل العاملين فى السفارة يتخذون منه موقفا مضادا، ويعتبرون مسلكه (حيث كثيراً ما كان يشرب الخمر ويطارد النساء) مضيرا بوظيفته. لقد كانوا فى الحقيقة يغارون منه، فدخله الذى لم يكن بهذا القدر من الكفاية، حتى يحرره من ثقل التزامات الحياة، كان يتيح له حياة تقارب حياة الأمراء - إن اعتبرنا تلك الشقة الصغيرة المليئة بالدخان والتى نتقاسمها حياة فخمة.

أدركت اليوم، وأنا أصعد السلم من نبرة صوته البرم المتذمر، أنه فى حالة التحلل والتفسخ، فقد كان يقول ويكرر القول بطريقة هيستيرية:

«تلك ليست أنباء، وأنا أمنعك من نشرها». قابلنى حميد الأعور فى الردهة، التى كانت تفوح برائحة الطعام المقلى، وهو يحرك يدا واهنة فى الهواء، ويقول فى همس: «لقد غادرت الآنسة الشقة»، كان يقصد ميليسا. «ستعود فى السادسة. السيد بومبال ليس فى حالة طيبة». كان ينطق اسم صديقى خاليًا من حروف المد. كان يقول: بمبل.

لقيت كيتس يجلس معه فى غرفة النوم، وقد تمدد، بلا لباقة، بجسده الكبير الذى يرشح عرقا، فوق الكنبة. كان يكشر عن أسنانه فى ابتسامة فاترة، وقد دفع قبعته إلى مؤخرة رأسه. وكان بومبال يجلس على كرسى النقرس وقد كسا التذمر والحزن ملامحه. وتعرفت فى كل هذا ليس فقط على الآثار البغيضة التى يخلفها إسرافه فى الشراب، ولكن على زلة أخرى ارتكبها أيضًا. ما الذى يخبئه كيتس الآن؟ قلت: «بومبال، بحق الشيطان، ماذا حدث لسيارتك؟» أنَّ بومبال وقد أمسك بجلد عنقه المتدلى بقوة، وكأنه يتضرع إلىّ أن أدع كل هذا الموضوع جانبًا. كان من الواضح أن كيتس يتحرش به، مغيظا إياه، حول نفس الأمر.

كانت السيارة الصغيرة التى تدور المشكلة حولها، والتى يعتز بها بومبال أشد الاعتزاز، تقف الآن أمام الباب الأمامى معوجة مهشمة. ابتلع كيتس ريقه فى صوت كالخنخنة وقال مفسرا: «لقد كانت سفيفا هى السبب. وليس مسموحًا لى بنشر الخبر». أخذ بومبال يئن وكل جسده ينتفض. استرسل كيتس. «إنه لا يود إخبارى بحقيقة ما جرى». وبدأ بومبال يغضب غضبا حقيقيا، قال: «هلا تفضلت بالخروج من هنا؟». وقف كيتس الذى كان يجبن دوما أمام كل من يظهر اسمه فى القائمة الدبلوماسية، وضع دفتره فى جيبه، محا

الابتسامة التى كانت على وجهه. قال متلاعبًا بالكلام بطريقة واهنة: «حسنا. لكل، على ما اعتقد، داؤه ونقرسه». هبط السلم على مهل. جلست قبالة بومبال، منتظرًا أن يهدأ.

أخيرًا قال: «إنها زلة أخرى يا عزيزى. أسوأ زلة فى علاقتى بسفيفا. إنها هى التى.. يا لسيارتى البائسة.. هل رأيتها؟ تحسس هنا هذا الورم فى عنقى. إه؟ إنه نتاج ضربة من صخرة لعينة».

طلبت من حميد أن يعد لى القهوة، بينما أخذ بومبال يروى لى كيف وقع ذلك الحادث السيئ مستخدما الإشارات التى تنبئ عن ألمه الشديد. لقد كان أحمق عندما أقام هذه العلاقة مع سفيفا النارية الملتهبة، فقد وقعت الآن فى حبه. وأنَّ وهو يتلوى فى كرسيه، «الحب!»(*). ثم اعترف قائلاً: «إننى ضعيف أمام النساء. يا إلهى، كم كانت سهلة. كانت كشىء حط فى طبقك دون أن تطلبه ـ أو أن الطبق كان طبق غيرك ووضع أمامك من باب الخطأ. لقد دخلت حياتى كقطعة من البفتيك(*)، كباذنجانة محشوة.. ماذا كان على أن أفعل؟. «بالأمس كنت أفكر، وأنا أضع كل شىء فى اعتبارى: عمرها، حالة أسنانها، وهكذا.. فقد تصاب بمرض يحملنى بعض النفقات. كما أننى لا أريد عشيقة دائمة. ولذا قررت أن آخذها إلى مكان هادئ على شاطئ البحيرة وأقول لها وداعًا. وجن جنونها فقفزت، فى لمح البصر، إلى شط النهر، حيث وجدت كومة هائلة من الأحجار. وقبل أن أعرف ماذا أقول، انطلقت الأحجار. بيف، باف، بانج، بونج». كانت إيماءاته بليغة الدلالة. «وامتلأ الجو بالأحجار، وتحطم لوح الزجاج الأمامى للسيارة. وكذا المصابيح الأمامية. كل شىء تحطم.

(*) بالفرنسية فى الأصل.

كنت أجلس قرب جهاز تعشيق التروس أولول، عندما أحسست بهذه الكتلة الحجرية فى عنقى. لقد جنت تمامًا. وعندما تهشم كل الزجاج تناولت كتلة صخرية هائلة وأخذت فى تحطيم السيارة وهى تصرخ «الحب، الحب»(*)، مع كل خبطة تدق بها السيارة كالمجنونة. إننى لم أعد أحب سماع هذه الكلمة مرة أخرى. لقد دمرت خزان تبريد السيارة. والتوت جوانبها. هل رأيت ما حل بها؟ لا يمكن أن يصدق المرء أن فتاة تستطيع أن تفعل مثل هذا الفعل. ثم ماذا بعد؟ سوف أخبرك بما حدث. لقد ألقت بنفسها إلى النهر. تخيل مشاعرى. هى لا تعرف السباحة وأنا كذلك. أية فضيحة ستثور إن ماتت! وألقيت بنفسى وراءها. وأمسكنا ببعضنا البعض وأخذنا فى الصراخ وكأننا زوج من القطط يتعاشران، يا لكمية المياه التى ابتلعتها! جاء أحد رجال الشرطة وسحبنا إلى الخارج، حرر لنا محضرًا طويلاً وغير ذلك من الإجراءات. إننى فى بساطة. لم أجرؤ على الاتصال هاتفيًا بالسفارة هذا الصباح. إن الحياة لا تستحق أن تعاش».

كان يوشك على البكاء قال: «تلك هى فضيحتى الثالثة هذا الشهر. غدًا سيكون الكرنفال. فهل تعرف ماذا سأفعل؟ لقد توصلت إلى فكرة ما، بعد طول تفكير». وابتسم ابتسامة جافة، «يقينا سأكون فى هذا الكرنفال، وإن شربت حتى الثمالة، وإن وقعت فى ورطة كما يحدث لى على الدوام. سوف أتنكر بطريقة لا يستطيع أحد كشفها». ثم مصمص أصابعه واستمر قائلاً: «تنكر لن يكتشفه أحد». ثم تأملنى لحظة، كأنما يقرر إن كان يضع ثقته فىّ أم لا. ويبدو أن تأمله الفاحص لى أرضاه، إذ استدار فجأة نحو الصوان وقال: «هل تحفظ سرى إن أطلعتك على ما عندى، آه؟ إننا صديقان، رغم كل شىء ناولنى القبعة الموجودة فى الرف العلوى. سوف تضحك منها».

ووجدت داخل الصوان، قبعة ضخمة عتيقة الطراز كتلك التى يراها المرء فى صور قبعات عام ١٩١٢ . وقد زينتها حزمة من ريش صقر ثبتت إليها بدبوس سميك من دبابيس القبعات ذا رأس كبيرة من حجر أزرق. قلت غير مصدق لما أرى، «أتقصد هذه؟» فضحك مغتبطا بذاته وهو يهز رأسه موافقا: «من ذا الذى سيعرفنى وأنا فى هذه القبعة؟ هاتها هنا..».

ارتداها فبدا مثيراً للضحك حتى اضطررت للجلوس والضحك. لقد ذكرنى بسكوبى وهو يرتدى قبعته «الدولى فاردن» السخيفة الشاذة.

بدا بومبال، بما فعله هذا الابتكار المضحك بوجهه السمين، أمرا يصعب تصديقه. أخذ هو أيضًا يضحك ويقول: «رائعة، أليس كذلك؟ إن زملائى الملعونين لن يعرفوا أبدًا من كانت تلك المرأة السكيرة. ولسوف أخرج القنصل العام، هذا الخنزير! عن وقاره بقبلاتى العاطفية الحارة، إن لم يكن مرتديا عباءة التنكر». واضطررت، كما سبق وفعلت مع سكوبى، أن أتوسل إليه: «استحلفك بالله أن تخلعها!».

خلعها بالفعل، وجلس مكشرا عن أسنانه، سعيدًا ببراعة خطته. كان يفكر فى أن مثل تلك الأعمال الطائشة التى يمكن أن يقوم بها لن تنسب، على الأقل، إليه. وأضاف مباهيا: «إن لدىّ حلة كاملة، وعليك أن تبحث عنى وأنا متنكر. هل ستفعل ذلك؟ أنت ذاهب للحفل، أليس كذلك؟ لقد سمعت أنه سوف تقام حفلتان راقصتان. وهكذا يمكننا الانتقال من واحدة إلى الأخرى. آه؟ حسنا. إننى أشعر الآن ببعض الراحة، ألا تحس بذلك أنت أيضًا»؟

إلا أن متعة بومبال القاتلة، هى التى قادت مباشرة إلى موت توتو دى برونل الغامض فى منزل آل سيرفونى، فى الليلة التالية - تلك الميتة التى اعتقدت جوستين أنه كان يقصدها هى بها . . والتى أعتقد أنا . . إلا أنه يتوجب علىّ أن أعود مرة أخرى إلى تعليقات وحواشى بلتازار .

ويكتب بلتازار : «هنالك مسألة مفتاح الساعة، ذلك المفتاح الذى ساعدتنى فى البحث عنه فى فجوات شارع الكورنيش الكبير فى ذلك اليوم الشتوى - والذى أعيد إلىّ بطريقة غريبة . لقد توقفت ساعتى، كما تعرف، وكان علىّ أن أوصى بصناعة مفتاح آخر، صغير وذهبى، على صورة عنخ رمز الحياة عند قدماء المصريين . إلا أن المفتاح أعيد إلىّ، فى تلك الفترة، فى ظروف غريبة . لقد جاءت جوستين، ذات يوم إلى عيادتى وقبلتنى فى حرارة، ثم أخرجت المفتاح من حقيبة يدها وسألتنى وهى تبتسم : «هل تعرف هذا؟ إننى آسفة لقلقك يا عزيزى بلتازار إنها المرة الأولى فى حياتى التى اضطررت فيها للعمل كنشالة . إذ هنالك خزينة فى حائط، كنت مصممة على فتحها . وبدا مفتاحك، للوهلة الأولى، مماثلاً لمفتاحها، فأردت أن أرى قدرته على القيام بالمهمة . كنت أنتوى إرجاعه صباح اليوم التالى قبل أن تكتشف ضياعه ويصيبك القلق، إلا أننى اكتشفت أن أحدهم قد أخذه من طاولة زينتى . إنك لن تخبر أحدًا بما أقول . وفكرت، ربما يكون نسيم نفسه قد رآه فشك فى دوافعى، ومن ثم استولى عليه حتى يجربه فى قفل الخزينة بنفسه . إلا أن المفتاح، لحسن الحظ (أو لسوئه)، لم يكن مناسبًا . لم أستطع فتح الخزينة، إلا أننى لم أثر ضجة لا داعى لها، حول المفتاح، خشية أن يكون نسيم لم يره بالفعل . لم أرغب فى جذب انتباهه إلى وجوده وتماثله مع مفتاحه . وسألت فاطمة بطريقة متحفظة، كما بحثت عنه فى علبة مجوهراتى، دون جدوى . ومر يومان وجاءنى به نسيم نفسه،

وقال لى : إنه قد عثر عليه فى علبة أزرار قمصانه . لقد لاحظ تشابهه ومفتاحه ، إلا أنه لم يذكر شيئًا عن الخزينة . لقد طلب منى ، فى بساطة ، أن أعيده إليك مرة أخرى ، وها أنذا أفعل ، مع اعتذارى الصادق عن التأخير» .

«لقد تضايقت بالطبع ، وأخبرتها بذلك ، وسألتها : «لماذا ، على أى حال ، تودين دس أنفك فى خزينة نسيم الخاصة؟ إن الأمر هكذا مناف لسلوكك العادى ، ويجب علىّ أن أقول لك إننى أشعر نحوك بقدر كبير من الإزدراء بعد أن عاملك نسيم بهذه الطريقة ! » فنكست رأسها وهى تقول : «لقد كان يحدونى الأمل ، أن أجد شيئًا عن الطفلة ـ شيئًا ، أعتقد أن نسيم يخفيه عنى» .

* * *


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجـزء الثالث

(١٠)

ويكتب بلتازار، «أعتقد أنك لو أردت الآن أن تدمج كل ما أحدثك به فى مخطوطك (جوستين)، على نحو ما، فإنك سوف تجد نفسك أمـام نوع غـريب من الكتب. رواية يمكن أن تكون، إن جـاز القـول، مكتـوبة فى طبـقـات، ربما، دون قصـد منى، أكـون قد زودتك بشكل جديد للكتابة، شكل غيـر مألوف، شكل يماثل فكرة بورسـواردن عن سلسلة من الروايات ذات «اللوحات المنزلقة»، كما كان يسميها. أو ربما يكون هذا الشكل أشبه ببعض صحائف العصور الوسطى، والتى خطت عليها أنواع مختلفة من الحقيقة فوق بعضها البعض، فتطمس الواحدة منها الأخرى أو ربما تتمها. إن الرهبان المجتهدين يمحون مرثية ما، ليفسحوا مكانا لآية من الكتاب المقدس.

«إننى لا أعتقد أن مثل هذا القياس يمكن أن يكون تشبيها رديئا حين نطبقه على واقع الإسكندرية، المدينة المقدسة المبتذلة، فى ذات الوقت، والتى يتنقل فيها المرء ما بين ثيوقراط وأفلاطون والترجمة السبعينية اليونانية للتوراة، خلال مستويات وسيطة من سلالات متعددة، تعدد كل الأشـيـاء، كـأن تقـول قـبطى يونانى ويهـودى أو مـسلم، تركى

وأرمينى. هل ترانى مخطئًا فيما أقول؟ تلك هى التراكمات البطيئة للزمان ذاته فوق المكان. تماما كما تنحت الحياة آثارها فوق الإنسان، بصورة متتالية، لمسة بعد لمسة، حتى إن المرء لا يستطيع أن يميز على الإطلاق تجعيدات الخبرة التى مر بها الإنسان، إن أفراحا أو أتراحا، آثار الخبرة فوق رمال الحياة».

هكذا يكتب صديقى، وهو محق فيما يكتب، فالحواشى والتعليقات تطرح الآن علىَّ مشكلة أكثر بكثير من مشكلة «حقيقة الحياة» الموضوعية، أو إن شئت «حقيقة الخيال». إنها تطرح الحياة ذاتها، سواء صنعها الإنسان أو تقبلها كما هى - أصعب وأشق المشاكل، مشكلة الشكل. كيف يمكن لى إذن أن أعالج بمهارة هذا الكم من المعلومات المتبلورة حتى أستطيع استخراج معانيها، وبذا أقدم صورة متماسكة لهذه المدينة المستحيلة، مدينة الحب والفسق؟

كم أود معرفة ذلك، كم أود معرفة ذلك. لقد كشفت لى هذه الحواشى والتعلقيات عن كثير من الأمور حتى إننى أحس وكأنى أقف على مشارف كتاب جديد - إسكندرية جديدة. إن الصورة المجملة التى رسمتها لها، والتى أدخلت فى تلافيفها أسماء ممثليها - كفافى، الإسكندر، كليوباترة والباقين - كانت صورة ذاتية. لقد رسمت الصورة وكأنها ملكى الخاص الذى أغار عليه. كانت حقيقة فقط فى حدود إدراك جزئى، للحقيقة. والآن ماذا على أن أفعل فى ضوء كل هذه الكنوز الجديدة. والتى هى فى الحقيقة كنوز رغم كونها، كالحب، لا تعرف الرحمة؟ هل أبسط حدود الحقيقة الأصلية، مالئا هذا الاتساع بمكونات تلك المعرفة الجديدة كأساس أشيد عليه إسكندرية جديدة؟ أم هل تظل الأمزجة والطبائع كما هى، وكذا الشخصيات، وتكون الحقيقة وحدها هى التى تغيرت إلى نقيضها؟

عشت طوال هذا الربيع فى جزيرتى الموحشة تحت ثقل هذه المعلومات العجيبة، والتى بدلت مشاعرى نحو الأشياء، حتى ماكان منها فى الماضى، بطريقة غريبة للغاية. هل يمكن مراجعة المشاعر وإعادة الحكم عليها بأثر رجعى؟

لقد بنيت الكثير، مما كتبت، على أساس مخاوف جوستين من نسيم - وهى مخاوف حقيقة عبرت عن نفسها تعبيرا صادقا. لقد رأيت بعينى تلك الغيرة الباردة الخرساء مرسومة على وجهه - ورأيت الخوف مرسوما على وجهها. ويأتى بلتازار الآن ليقول إن نسيم ما كان ليوقع بها الأذى، بأى حال من الأحوال. من أصدق؟

كنا كثيرا ما نتمشى معا نحن الأربعة، كنت أجلس هنالك صامتا تسكرنى ذكرى قبلاتها، مقتنعا (كما أخبرتنى هى) بأن وجود الرابع، وهو بورسواردن، سوف يهدهد غيرة نسيم، ويقدم لنا غطاء آمنا! ومع ذلك فإن كان على أصدق ما يقوله بلتازار الآن، فقد كنت أنا ذلك الطعم الخادع (هل أتذكر، أم كان ذلك من فعل الخيال، ظهور ابتسامة صغيرة، من وقت لآخر، فى ركن فم بورسواردن، ابتسامة ربما كانت تهكمية وربما كانت تبعث الرعب؟). كنت أعتقد حينذاك أننى أحتمى وراء وجود الكاتب، بينما كان هو فى الحقيقة الذى يختفى وراء وجودى!. إن ما يحول بينى وبين تصديق ذلك هو.. هو ماذا؟ نوع القبلة من شفاه تهمهم بكلمة «أحبك»، بينما تسلم جسدها نفسه للهلاك. ذلك صحيح بالطبع، بالطبع. فأنا خبير بالحب - وكل رجل يعتقد أنه كذلك، وخاصة الرجل الإنجليزى. هل يتحتم أن أؤمن بالقبلة أكثر مما أؤمن بما يقرره صديقى؟ هذا محال فبلتازار لا يكذب..

هل الحب بطبيعته المجردة، نوع من العمى؟ بالطبع. لقد أشحت بوجهى عن فكرة احتمال خيانة جوستين عندما كانت ملكا لى - ومن ذا الذى لا يفعل ذلك؟ لقد كان القبول بهذه الحقيقة أمرا مؤلما للغاية، رغم أنى كنت أدرك تماما فى أعماق قلبى، أنها لن تخلص لى إلى الأبد. وإن تجاسرت وهمست لنفسى بالفكرة، كنت للتو أضيف، شأنى فى ذلك شأن كل زوج وحبيب، «إلا أنها مهما فعلت، فإننى بالطبع الرجل الذى تحب حبا حقيقيا!». إنها المغالطات التى نتعزى بها - إنها الأكاذيب التى تبقى على الحب.

لم تقدم جوستين، فى يوم من الأيام، سببا مباشرا يدعونى للشك فيها. إننى أتذكر، على أى حال، مناسبة هبت فيها أنفاس من الشك واهنة فى بورسواردن. إلا أنها أخمدت لتوها. كان خارجا، ذات يوم، من المرسم، يتجه نحونا، وعلى فمه بعض من أحمر الشفاه. إلا أننى رأيت، للتو، سيجارة فى يده. كان واضحا أنه قد التقط واحدة من سجائر جوستين التى تتركها، فى المنفضة، مشتعلة (وهى من عاداتها المألوفة). كان طرف السيجارة أحمر. إن كل ماله علاقة بالحب يمكن تأويله فى يسر وسهولة.

إن الحواشى والتعليقات المزعجة والمشحونة بتلك الشكوك، تضغط، هنا وهناك، كأصبع فظ فوق أماكن كلها رضوض وكدمات. لقد بدأت نسخها جميعا، بلا استثناء، فى بطء وألم لأتعرف، فقط بصورة أكثر وضوحا على مواضع الاختلاف عن رؤيتى الحقيقية، ولكن، لأنظر إليها أيضا، ككيان مستقل - كمخطوط له حق وجوده الخاص، كرؤية محددة لعين أخرى رأت نفس الأحداث التى أولتها أنا بطريقتى الخاصة. هل فاتنى الكثير حقا مما كان يدور حولى - دلالات

الابتسامات والإيماءات والكلمات العابرة، والرسائل التى خطها أصبع بخمر أريقت فوق المائدة أو عناوين مطوية كتبت على أركان أوراق الصحف؟ هل يتوجب علىّ مراجعة خبرتى الخاصة حتى أصل إلى قلب الحقيقة؟ إن بورسواردن يكتب، «ليس للحقيقة قلب. الحقيقة امرأة، وذاك سبب غموضها. إن أكثر ما يمكننا قوله عن النساء، باعتبار أننا لسنا فرنسيين، إنهن حيوانات حفارة».

لقد أخطأت، طبقا لما جاء فى تعليقات بلتازار، تفسير مخاوف جوستين التى لها علاقة بنسيم. هنالك حادثة السيارة التى ذكرتها فى مكان آخر، وكيف كانت تسرع بها نحو القاهرة، ذات ليلة لتقابل بورسواردن، ثم انطفأت أنوار الرولز الفخيمة الكابية اللون. فقدت السيطرة عليها وقد أعماها الظلام فجنحت خارج الطريق تقفز ككرة فوق كثبان الرمال التى كانت تندفع إلى أعلى فى نفثات أشبه بالرذاذ الذى يقذفه حوت يعانى آلام الموت المبرحة. ثم دفنت نفسها فى واحدة من الكثبان حتى زجاجها الواقى، وهى تصفر كما يصفر السهم المنطلق. ثم رقدت هناك تهمهم وتنتفض. ولحسن الحظ لم يصب جوستين ضرر ما. كان لها من حضور البديهة ما جعلها تطفئ ماكينة السيارة. ولكن كيف وقعت الحادثة؟ لقد أخبرتنى جوستين، عندما حدثتنى عنها، أنه عند فحص السيارة وجد أن أسلاكها قد بردت بمبرد- من الذى فعل ذلك؟.

كانت هذه هى المرة الأولى، فى حدود ما أعلم، التى أفصحت فيها عن مخاوفها من نسيم، واحتمال قيامه بمحاولة تمس حياتها. نعم، لقد تحدثت من قبل عن غيرته، لكنها لم تتحدث عن شىء كهذا- شىء له هذا الطابع السكندرى الأصيل. أما ما أصابنى من فزع فذلك يمكن لأى امرئ أن يتخيله.

ومع ذلك، يأتينى الآن بلتازار ليقول فى تعليقاته وحواشيه إن جوستين قد رأت سليمًا، قبل الحادثة بأيام عشر، من نافذة المرسم، وهو يعبر المرج الأخضر نحو السيارة، ثم يرفع غطاء المحرك، وهو يعتقد أن أحدا لا يراه، ليأخذ من تحته بكرة شمعية، اعتقدت هى حينذاك أنها جزء من جهاز التسجيل الذى غالبا ما يستخدمه نسيم فى مكتبه. ثم قام بلفها فى قطعة قماش وحملها إلى داخل المنزل. وجلست فترة طويلة عند النافذة تدخن، مستغرقة فى التفكير، قبل أن تقدم على فعل أى شىء. ثم قادت السيارة إلى الطريق الصحراوى، إلى منطقة منعزلة، حيث يمكن فحصها على نحو أفضل. ووجدت تحت غطاء المحرك جهازا صغيرا لم تتعرف عليه، إلا أنه بدا لها أشبه بآلة تسجيل. وكان هنالك احتمال وجود سلك فى الرصاص، يوصل هذه الآلة بمكبر صوت صغير مدفون فى مكان ما وسط اللفات الملونة لأسلاك لوحة أجهزة القياس بالسيارة، إلا أنها لم تستطع تتبعه. فقامت بقطع السلك فى أماكن مختلفة، مستخدمة مبرد أظافرها، بينما تركت الآلة بكاملها فى موضعها، وكأنها ماتزال تعمل. والآن، طبقا لبلتازار، فإنها لا بد قد أصابت، عن طريق الصدفة، أو قطعت، حتى المنتصف، أحد أسلاك الرصاص الذى يوصل إلى الضوء الأمامى للسيارة. إن ذلك، على الأقل هو ما قالته له رغم أنها لم تقدم لى مثل هذا الإيضاح والتفسير. وإن كان علىَّ أن أصدق ما يقوله بلتازار، عما حدث طوال ذاك الوقت، فإنها بينما كانت تتحدث وتتحدث عن حماقة وطيش سلوكنا أمام الناس، والمخاطر التى نقدم عليها، كانت فى الحقيقة تجرنى، تسحبنى أمام عينى نسيم كالوشاح أمام الثور!

إلا أن ذلك كان فى البداية فقط، إذ حدث، فيما بعد، كما يقول صديقى ما جعلها تشعر بحق أن زوجها يدبر لها شيئا: كان ذلك

بالتحديد هو مقتل توتو دى برونيل خلال الكرنفال الراقص فى منزل آل سيرفونى. لماذا لم أذكر هذا الحدث من قبل؟ لقد كنت، فى الحقيقة، هنالك فى ذلك الوقت، ومع ذلك فإن الحادثة فى مجملها قد غابت، بصورة ما، أمام ضغط أمور أخرى، رغم انتمائها إلى الأجواء السائدة حينذاك. لقد وقعت فى الإسكندرية، فى ذلك الوقت، كثير من مثل تلك الأحداث الغامضة التى لا حل لها. ومع أنى عرفت تأويل جوستين للحادث إلا أننى لم أذكره بصورة عابرة. بالطبع، قدم لى التفسير الحقيقى لهذا الحادث بعد وقوعة بعدة شهور. عندما أوشكت، تقريبا على مغادرة الإسكندرية إلى الأبد، كما ظننت.

إن الكرنفال فى الإسكندرية حدث اجتماعى خالص - ولا علاقة زمنية بينه وبين احتفالات المدينة الدينية. وقد نشأ، فيما أعتقد، فى هذا المكان على يد ثلاث أو أربع عائلات كاثوليكية كبيرة - ربما لأنه أمدهم بمتعة الإحساس بانتمائهم إلى الجانب الآخر من البحر المتوسط، إلى فينيسيا وأثينا. واليوم، لاتوجد، على أى حال، عائلة ثرية واحدة، لا تحتفظ بصوان ملىء بملابس الدومينو المخملية التى تستخدم خلال تلك الأيام الثلاثة من النزق والحماقة - سواء كانت هذه العائلة قبطية أم مسلمة أم يهودية - ويأتى هذا الكرنفال، فى الأهمية، بعد ليلة رأس السنة كأكبر احتفال مسيحى خلال العام - ويسيطر التنكر على أيامه ولياليه الثلاث: التنكر الذى يمنحه الدومينو المخملى الذى يحجب الهوية والجنس، يمنع من التميز بين الرجل والمرأة، الزوجة والعشيقة، الصديق والعدو.

انطلقت وقحة أعمال المجون والضلال فى حماية سادة الفوضى الذين ترأسوا احتفالات هذا الموسم. ما إن هبط الليل حتى بدأ المقنعون

فى الظهور فى الشوارع ـ أفرادا ثم أزواجا ثم فى مجموعات صغيرة يحملون فى الغالب الآلات الموسيقية والطبول، يضحكون ويغنون وهم فى طريقهم إلى واحد من البيوتات الكبيرة أو الأندية الليلية حيث يستحم الهواء البارد فى دفء موسيقى الجاز الزنجى ـ ذلك النخر المتخم بمزيج الساكسفون والطبول. كانوا ينطلقون من كل مكان، فى ضوء القمر الشاحب، أشبه برهبان يرتدون القلنسوات. كان التنكر الذى يضفى عليهم تماثلا خارجيا يتسم بالكآبة والتعصب، يروع المصريين ذوى الجلاليب البيضاء ويملؤهم فزعا ـ إن رعشة الخوف تضيف طعما كالتوابل إلى الضحك الوحشى المنهمر فى المنازل، تحمله نسمات الشاطئ إلى المقاهى التى فى مواجهة البحر، بهجة تبدو بصخبها وضجيجها وكأنها ترتعش على حافة الجنون.

ويتسلق المنازل فى بطء، قمر الربيع المائل إلى الزرقة، ينزلق فوق المنائر إلى أشجار النخيل وهى تفرقع وتطقطق، كاشفا المدينة تتمطى كحيوان خارج من بياته الشتوى، وقد أخذت تنهل من موسيقى أيام المهرجان الثلاث.

يقول المثل، «العاشق يخشى الكرنفال». ويقظة مشوبة بالرقة تجتاح الجميع بعد ظهور تلك الكائنات الليلية المتلفعة بملابس سوداء فى كل مكان. وتنشط حرارة الحياة كلها فى المدينة، فيتنامى الدفء بإيماءات مقدم الربيع الغامضة. الكارنفال تحية وداع لجسد العام الذى مضى، يخلع عن نفسه أكفان مومياء الجنس، يخلع هويته واسمه، ويخطو عاريا يستقبل الحلم الآتى.

فتحت كل البيوتات الكبيرة أبوابها على مصراعيها لتظهر محتوياتها التى تفوق الخيال، تدفئها النيران التى تحف أضواؤها بالخزفيات الصينية

أو المصنوعات الرخامية والنحاسية ووجوه الخدم السوداء كالرصاص وهم يقومون بأداء واجباتهم. وربضت فى غبشة ضوء القمر سيارات السماسرة، رموزا صامتة شديدة الوقع على النفس، لثروة أعجز من أن تجلب لصاحبها الراحة وهدوء البال الحقيقين. إنها تكلف صاحبها كل ما فى نفسه وروحه. وتقبع السيارات فى شباك الضوء الشتوى، تعكس صمت كل الآلات، التى تتربص سقوط الإنسان، وقوتها، تتفرج على المقنعين فى غدوهم ورواحهم أمام النوافذ المضاءة فى البيوتات الكبيرة، وقد أمسك كل منهم بالآخر كالدببة السوداء، يرقصون على نبض وزفرات الموسيقى الزنجية - عزاء الرجل الأبيض وسلواه.

كانت بعض لمحات الموسيقى والضحكات، لا بد وأن تصعد إلى نافذة كليا، حيث كانت تجلس واضعة على ركبتيها لوحا وقد أخذت ترسم فى أناة، بينما هرتها الصغيرة ترقد نائمة فى سلتها، عند قدميها. البعض يضرب أوتار الجيتار أثناء فترة هدوء مفاجئ، فتعلو الأنغام، تتمرغ فى ظلام الشارع حتى تلتقى بأغنية آتية من بعد كأنها قادمة من قاع بئر، وترتفع صرخات ونداءات تطلب العون والنجدة.

لكن الدومينو المخملى يطبع الكرنفال بروح الخبث والشر الخالص - مضيفا على لابسيه ذلك التنكر الذى يبتغيه كل إنسان، فى أعماقه، أكثر من كل شىء سواه. المرء فيه مجهول بين جمع من المجهولين، لا يكشف عن جنسه ولا صلاته ولا تعابير وجهه - والقناع الذى يرتديه ينتمى إلى لباس الرهبان الكاثوليك مرضى العقول، لا يبين منه غير عينين متوهجتين كعينى امرأة مسلمة أو عينى دب من الدببة. ولا شىء آخر يميز المرء، فطيات الرداء الأسود السميك تخفى حتى تقاطيع

الجسد. ويغدو كل امرئ بلا إرادة، لا صدر ولا وجه. وتختفى تحت رداء الكرنفال جراثيم شىء ما (كما تختفى رغبة المجرم فى قلبه، أو إغراء يستحيل مقاومته، أو نزوة مخطوطة فى لوح القضاء والقدر): جرثومة حرية لا يجرؤ الإنسان على تخيل امتلاكها، حرية ممارسة ما يشاء دون حظر أو منع. إن الجرائم الوحشية وأغلب المآسى النابعة من الجهل بهوية المتنكر هى ثمار هذا الكرنفال السنوى، بينما أغلب العلاقات الغرامية تبدأ أو تنتهى خلال تلك الأيام والليالى الثلاث، والتى نتخلص فيها من قيودنا وعبودية شخصياتنا. إننا ما إن ندخل هذه القلانس والبرانس المخملية حتى تفقد الزوجة زوجها والزوج زوجته والحبيب حبيبته، وتغشى الجو سموم الثارات والحماقات، وحمى المعارك، والبحث المعذب طوال الليل والإحباطات، وأنت لا تدرى، مع من ترقص، رجل أم امرأة. تيارات «إيروس»(*) المظلمة، تقتضى سرية مطلقة، إن كان لها أن تفيض على النفس البشرية، تتفجر فى الكرنفال كشىء طال احتجازه، فتطلق أشكالا من مخلوقات بدائية غريبة - أشكالا تثير اعتقادات بانتمائها إلى عالم إبليس (كضلالات أعتقد أنها علة النفس). إن «ساتير»(**) المستتر والحورية الوالهة يكتشفان، مرة أخرى، بعضهما البعض ويتحدان معا. من ذا الذى يستطيع حقا ألا يحب الكرنفال وهو مجال تسديد كل الديون والتكفير عن الجرائم أو ارتكابها، وإشباع كل الرغبات المحرمة - دون إحساس بالذنب أو التفكير العمد، ودون أن توقع عليه العقوبات التى يفرضها الضمير أو المجتمع.

(*) إله الحب الجنسى عند الإغريق (المترجم).

(**) إله صغير نصفه الأعلى بشر ونصفه الأسفل ماعز (المترجم).

لكننى مخطئ فى أمر واحد ـ هنالك علاقة واحدة مميزة يمكن أن يتعرف بها عليك صديقك أو عدوك ـ إنها يداك. إن يدى حبيبتك، إن كنت قد لاحظتهما من قبل، سوف يقودانك إليها مهما كان زحام المقنعين كثيفا، أو تتفق معها على لبس خاتم معروف لديك، كما تفعل جوستين التى تلبس فى سبابتها اليمنى خاتما من عاج، عليه نقش محفور، مأخوذ من مقبرة شاب بيزنطى. ذلك كل ما يمكن عمله، وفاء بالغرض. (أدعو الله ألا تكون سيء الحظ «كأماريل» الذى عثر على المرأة الكاملة أثناء الكرنفال، لكنه عجز عن إقناعها برفع قناعها والكشف عن شخصيتها. لقد ظلا يتحدثان طوال الليل وهما راقدان فوق الحشائش قرب النافورة، يتبادلان الحب لمسات من وجهيهما المغطيين بالمخمل، وعيناهما تتناغيان. ومضى عليه حتى الآن عام وهو يجوب المدينة كالمجنون بحثا عن يدين تماثلان يدى محبوبته، فالأيدى شديدة التشابه. لقد أقسمت له تلك المرأة أن تعود إليه فى العام التالى، فى نفس المكان تلبس نفس الخاتم ذى الفص الأصفر الصغير. إنه ينتظر الليلة، ينتفض انفعالا، هاتين اليدين قرب بركة الزنابق ـ يدان ربما لن يظهرا البتة فى حياته مرة أخرى. ربما كانت المرأة التى أحبها جنية أو مصاصة دماء ـ من يدرى حقيقتها؟ ومع ذلك. ربما يعثر عليها بعد سنوات أخر، فى كتاب آخر. لكن ليس هنا، ليس فى هذه الصفحات التى تداخلت فيها وتشابكت وتعقدت قصص الحب سيئة الطالع..).

وهكذا تسير فى الشوارع المظلمة، وادعا كقاتل مجهول، وقد أخفت القلنسوة السوداء كل آثارك، تحس هواء الشتاء الندى على جفونك. والمصريون الذين تعبرهم ينظرون إليك فى ريبة، لا يدرون

أيبتسمون لمظهرك أم يحسون الخوف. إنهم، عندما يأتى الكرنفال، يرفرفون فى مواضعهم فى حالة عقلية وسطية ـ حائرين كيف يتعاملون معه. وتنظر إليهم، وأنت تمر بهم، نظرات مشتعلة صادرة من أعماق قلنسوتك، تحس السعادة وهم يجفلون ويشيحون بوجوههم. ويخرج لابسو الدومينو أمثالك من كل ركن. البعض فى مجموعات تضحك وتغنى وهى فى طريقها إلى واحد من البيوتات الكبيرة أو النوادى الليلية القريبة.

وتتذكر وأنت تسير هكذا، نحو بيت آل سيرفونى، عبر شبكة الشوارع، مارا بالبطريركية اليونانية، كرنفالات أخرى، فى مدن أخرى، تتميز بنفس الوحشية والمرح اللذين يضفيهما فقدان الهوية. تتذكر مغامرات غريبة وقعت لك ذات يوم، تتذكر العام الذى مضى وأنت فى ركن من شارع بارتو، وصوت أقدام تهرع وصراخ، ورجل يضع خنجرا فوق عنقك وهو يصيح كحيوان جريح. «هيلين، أقسم إنى قاتلك، إن حاولت الهرب الليلة..» إلا أن الكلمات تموت عندما ترفع القناع وتكشف عن وجهك فيتمتم معتذرا وهو يسير مبتعدا، لكنه ينفجر منتحبا وهو يلقى بنفسه فوق حاجز حديدى. لقد اختفت هيلين وسيقضى طوال الليل يبحث عنها.

بوابة فناء تضيئها مصابيح الشارع الواهنة، فتضفى عليها ظلالا موحشة، وشخصان يشتبكان أمامها فى عراك صامت غاضب عنيف. إنهما يسقطان يتدحرجان من الظلام إلى النور ثم إلى الظلام مرة أخرى دون أن ينطقا ببنت شفة. وأمام ملهى «الإيتوال» رجل معلق على عارضة، محطم الرقبة، لكنك ما إن تقترب منه بما يكفى لتتعرف عليه، حتى تجده مجرد دومينو أسود يتدلى من مسمار. أليس غريبا أن يتنكر

المرء اختيارا كى يتحرر من شعوره بالإثم، فى رداء يرمز تحديدا إلى محققى محاكم التفتيش، قلنسوة وبرنس محاكم التفتيش الإسبانية.

لكن الجميع لا يرتدى الدومينو - فعديد من الناس يتشاءم من هذا الزى، كما أنه، بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن يكون حارا فى الحجرات المزدحمة. ولذا سوف ترى الكثيرين وأنت تسير فى شوارع المدينة وقد ارتدوا ملابس متعددة الألوان كلباس المهرجين أو راعيات الغنم أو لباس أنطونيو وكليوباترا أو الإسكندر. وما إن تستدير لتدخل البوابات الحديدية الكبيرة لمنزل آل سيرفونى، وتبرز بطاقة الدعوة الموجهة إليك، وتصعد إلى الدفء والضوء والمسكرات فى الداخل، حتى ترى فى الظلام معالم من تحب ومن تخاف ومعالم الأصدقاء الذين تأنس إليهم وقد تشوهت كالمضحكين والمهرجين أو تدثروا بالأردية والقلانس السوداء، وقد انغمسوا بطريقة شيطانية فى مسرة عشوائية نادرة. وانفجرت الضحكات، كأشياء مضغوطة، مندفعة إلى السقف أو أى مكان آخر، أشبه بريش لحاف ممزق يتطاير، فى كتل، فى هذا الجو المحموم. وأخذت الفرقتان الموسيقيتان الوتريتان تعزفان موسيقى الجاز المجنونة فى إيقاعات قصيرة مترنحة، كأنها ضربات مضخة هوائية رتيبة، تكاد تضيع فى زحام الأصوات البشرية. وانهرست تحت الأقدام، فى قاعة الرقص، ملايين الزمامير والأبواق. وساهم صوت تهشمها فى تشويه الأنغام الموسيقية، بينما تدلت البيارق الورقية الملونة، من أكتاف الراقصين، تتأرجح تأرجح الأعشاب البحرية، فى المناطق الحارة، فوق سطح الصخور، كما تتساقط فوق الأرضية المصقولة، تتشابك وتسحب مع حركة كعوب الأقدام.

فى تلك الليلة التى يدور الكلام حولها، أول ليلة فى الكرنفال،

كان هناك حفل عشاء فى المنزل الكبير، وملابس الدومينو موضوعة فوق الأرائك الطويلة فى البهو فى انتظار لابسيها. وضوء الشموع يلقى بظلاله فوق وجهى جوستين ونسيم اللذين بديا وكأنهما موضوعان فى إطارين كباقى اللوحات المصفوفة على جدران حجرة الطعام القبيحة، وإن كان لها مهابتها وجلالها. كانت اللوحات الزيتية تضاهى الوجوه الآدمية الحية التى ارتسمت عليها خطوط سقم النفس وأشجانها، وقد تجمعت كلها لتكون وحدة واحدة فى ضوء الشموع اللامع الكلاسيكى. وتوجهت جوستين ونسيم معا، بعد العشاء إلى الحفلة الراقصة فى دار آل سيرفونى، كما يحدث كل عام. واعتذر ناروز، كالعادة أيضا، عن الحضور فى اللحظة الأخيرة. كان يصل، فى الوقت المناسب، والساعة تدق العاشرة، ليرتدى الدومينو قبل أن تنطلق الجماعة، تضحك وتثرثر، وهى فى طريقها إلى الحفلة الراقصة.

فضل أن يحضر إلى المدينة، كما يفعل دوما، ممتطيا جواده حيث ربطه عند نجار صديقه. كان يرتدى بذة قديمة زرقاء من صوف متين، مجاراة لهذا الحدث. كان يتخبط داخلها وقد عقد رابطة العنق. لم يكن عليه حرج، فى نهاية الأمر إن كان لباسه عاديا وغير رسمى، طالما سيرتدى الدومينو - وسار فى سرعة وخفة عبر الحى العربى، ردىء الإضاءة، ينهل المناظر والأصوات التى يألفها، ومع ذلك يحس الشغف لرؤية المقنعين عندما بلغ نهاية شارع فؤاد وقد وجد نفسه على أطراف المدينة الحديثة.

وقفت مجموعة من النسوة، عند أحد النواصى، يثرثرن فى صخب وقد ارتدين الدومينو وانتوين ارتكاب كل حماقة وخيانة. واستنتج من لغتهن ولهجتهن، أنهن من نساء المجتمع اليونانيات. كن يمسكن،

وهن أشبه بطائر العقاب الخطاف، بكل عابر يسخرن منه بالنكات محاولات كشف قناعه إن كان مقنعا. وكان على ناروز أن يواجه هذا التحدى، أمسكت إحداهن بيده متظاهرة بقراءة كفة تنبؤه عن مصيره. وهمست أخرى فى أذنه بعرض بالعربية وقد أراحت يده فوق فخذها، وقوقت ثالثة كدجاجة وهى تصيح. «إن لزوجتك عشيقا». وغير ذلك من الفعال التى تتسم باللؤم والقسوة. وما كان فى وسعه التكهن إن كن يعرفنه أم لا.

تراجع ناروز وانتفض، وابتسم وهو يخترق جمعهن، يدفعهن بعيدا عنه بطريقة مهذبة وهو يزأر ضاحكا من النكتة التى قيلت عن زوجته، وصاح فيهن بالعربية فى صوت أجش، «ليس الليلة، يايماماتى». وعندما أحس بهن يملن إلى اقتناصه، انطلق يعدو، وانطلقن خلفه يطاردنه لمسافة قصيرة، فى الشارع الطويل المظلم، وهن يضحكن ويصرخن بكلام لا تربطه رابطة، لكنه استطاع أن يسبقهن، فى سهولة، واستدار عند زاوية الشارع إلى المنزل الكبير.

كان ما يزال يبتسم وإن كان يلهث بعض الشىء، وقد أحس بالرضا لهذه الملاحظات المقلقة والتى بدت استهلالا طيبًا لمتع هذه الأمسية. ووقعت عيناه، فى صمت البهو، على أردية الدومينو السوداء، فارتدى إحداها قبل أن يفتح باب قاعة الاستقبال التى كان يسمع أصوات من بداخلها. وأخفى رداؤه التنكرى بذته الرثة زرية المنظر، وقد تدلت القلنسوة على كتفيه.

كان الجميع هنالك، يجلسون حول النار، فى انتظاره، وتلقى صرخات ترحابهم فى شوق وجدية، ثم أخذ يحييهم بادئًا بتقبيل جوستين على وجنتها، ثم صافح الباقين وقد خيم عليهم صمت مربك

ثقيل. ووضع ناروز على وجهه تعبير صفاء زائف. وهو ينظر بنفور فى عينى بيير بالبز قصيرتى النظر (كان يكرهه للحيته المخروطية الأشبه بلحية الماعز وغطاء الأحذية التى يلبسها) وكذلك عينى توتو دى برونيل (الذى كان يشبه كلبا يقبع فى حجر سيدة عجوز)، إلا أنه كان يميل إلى أثينا تراشا الوردة المتفتحة، وأحس بالأسى من أجل دروسيلا بانوبولا لأنها كانت من الذكاء بحيث لا تبدو كامرأة بأى حال من الأحوال، وتبادل وبورسواردن ابتسامة هادئة. وأخيرا قال، وهو يزفر فى ارتياح، «حسنا». فناوله شقيقه كأسا من الويسكى فى لطف وحنان، فجرعه ناروز فى بطء ولكن فى مرة واحدة، كما يفعل الفلاحون.

«لقد كنا فى انتظارك ياناروز».

وقال بيير بالبز متألقا متملقا. «المنفى من آل الحوسنانى».

وصاح توتو الصغير، «المزارع».

وعاد النقاش الذى كان دائراً فيما بينهم، والذى قطعه ظهوره المفاجئ، يخيم فوق رأسه، فجلس إلى جوار النار حتى يتهيئوا لمغادرة المكان إلى دار آل سيرفونى، وقد طوى ذراعيه القويتين معا، وكأنه يكبح كل قواه فى حركة واحدة حاسمة... ولاحظ أن جلد نسيم عند العارضتين مشدودا، وهى علامة يعرفها من قديم دلالة على الغضب أو التوتر. وكانت ذروة جمال جوستين الأسمر فى ردائها (الذى كان بلون دم الأرنب البرى). والذى كان يتوهج بين الأيقونات، كأنما يستمتع بأضواء الشموع الشاحبة ـ ليتغذى عليها ثم يعيدها ضياء يبرق فى حليها الهمجية. وانتاب ناروز إحساس رائع بالانفصال عما حوله، باللامبالاة. لم يكن يعى ماذا تعنى نذر كل تلك المتاعب والضغوط. كانت كليا وحدها هى التى فى وسعها أن تخترق اكتفاءه بذاته، وهى

وحدها التى تخيم على أفكاره بظلال معتمة. كان يأمل، كل عام، عندما يصل إلى منزل أخيه، أن يجدها هناك بين المدعوين. لكنها، فى كل عام، لم تكن هناك، مما كان يضطره للهيام طوال الليل فى الظلام، بحثا عنها، كما يهيم شبح بلا هدف، دون أمل حقيقى فى أن يلقاها مصادفة، ومع ذلك فإنه يعيش على طيفها الرقيق، أمله الذى يعشقه، كما يعيش الجندى على جرايته.

كانوا، فى تلك الليلة، يتحدثون عن أماريل وعشقه التعس ليدين مجهولتين ولصوت سمعه فى الكرنفال. وكان بورسواردن يخبرهم بواحدة من قصصه الشهيرة فى فرنسيته المتقنة سليمة النطق. «عندما كنت فى العشرين ذهبت إلى فينيسيا، لأول مرة، تلبية لدعوة شاعر إيطالى يدعى كارلو نيجرو بونتى، وكنا نتبادل الرسائل. كانت تجربة عظيمة لشاب إنجليزى من الطبقة الوسطى، أن يعيش، بالفعل، فى ضوء الشموع فى قصر متداع يقع على القناة الكبرى وقد وضع تحت تصرفى أسطول كامل من الجندولات ـ بالإضافة إلى صوان هائل ملىء بالعباءات المبطنة بالحرير. كان نيجرو بونتى، كريما، لم يدخر جهدا ليدخل المسرة على نفس رفيق شاعر بأفضل السبل. كان حينذاك يناهز الخمسين من عمره، نحيلا، جميلا أشبه بنوع نادر من الباعوض. كان أميرا شيطانيا. وكان شعره يعكس تزاوجا لتأثيرات بايرون وبودلير. كان يهوى العباءات والأحذية ذات الأبازيم والعصى الفضية، وقد شجعنى على أن أفعل مثلما يفعل. كنت أحس وكأنى أعيش فى رواية قوطية. وما كتبت فى حياتى شعرا أسوأ مما كتبته فى تلك الأيام.

«ذهبنا معا، فى هذا العام، إلى الكرنفال، إلا أننا افترقنا رغم أن كلينا ارتدى ما يمكنه من التعرف على الآخر. كان الكرنفال، كما

تعرفون في ذلك الوقت، من العام، الذى تسير فيه مصاصات الدماء بحرية. وكان العاقل الحكيم من يحمل معه بعضا من الثوم، في جيبه، ليبعدهن عنه إن حدث وصادف إحداهن. وتوجهت صباح اليوم التالى إلى حجرة سضيفى حيث وجدته يرقد فى سريره شاحبا شحوب الموتى، وقد ارتدى قميص نوم أبيض اللون مزركش الأكمام. وهنالك طبيب يجس نبضه. وقال عندما رحل الطبيب، «لقد قابلت المرأة المثلى. كانت مقنعة. اصطحبتها إلى المنزل حيث كشفت عن نفسها كمصاصة دماء». ثم أزاح قميصه كاشفا عن جسده فخورا مرهقا. كانت تغطيه آثار عضات هائلة أشبه بالآثار التى تتركها أسنان ابن عرس. كان مرهقا للغاية إلا أنه كان منفعلا - يخاف أن يحكى عن الحب الذى غرق فيه. قال، «لن تعرف طعم هذه التجربة، حتى تذوقها بنفسك. أن يمتص دم المرء، في الظلام، امرؤ آخر يهيم به حبا». وتهدج صوته، «ما كان فى وسع دى ساد أن يصف مثل هذه التجربة. لم أر وجهها، لكن انطباعا لدىّ أنها شقراء، شقرة أهل الشمال. لقد التقينا فى الظلام وافترقنا فى الظلام، وليس من انطباع عنها غير أسنانها البيضاء وصوتها الذى سمعت منه ما لم أسمعه من أية امرأة. إنها المعشوقة التى انتظرتها كل تلك السنوات. سألقاها الليلة مرة أخرى، قرب التمثال المرمرى ذى رأس العقاب وجسد الأسد عند كوبرى قطاع الطرق. آه يا صديقى، فلتسعد لسعادتى. كان العالم لى بلا معنى، لكننى الآن، وبفضل حب مصاصة الدماء تلك، أحس بقدرتى على الحياة من جديد، وأن تكون لدى مشاعرى من جديد، وأن أكتب من جديد». وقضى طوال النهار منكبا على أوراقه، حتى إن هبط المساء خرج في جندوله ملتفا بعباءته. لم يكن من شأنى أن أقول شيئا. ووجدته فى اليوم التالى مرهقا شاحبا شحوب الموتى، مرة أخرى.

أصابته الحمى وقد امتلأ جسده بتلك العضات البشعة. لكنه ما كان يتحدث عن تجربته دون أن ينتحب ـ يذرف دموع الحب والإرهاق. وبدأ، فى ذلك الحين، نظم قصيدته التى استهلها، كما تعرفون جميعا.

لن تكون الشفاه على الشفاه، لكنها فوق الجراح

تمتص الأجساد المسمومة لمن تحبهم

تسحب الغذاء من دماء ساكنة

تغذى الحب الذى يقتات على موتهم

«غادرت بعد أسبوع، مما حدث، إلى رافينا. كان لدىَّ بعض الدراسات التى يجب إعدادها لكتاب كنت أكتبه. مكثت هنالك شهرين لم أسمع خلالهما شيئا عن مضيفى، لكننى تسلمت رسالة من شقيقته تقول فيها إنه كان مريضا بمرض أنهكه، وعجز الأطباء عن تشخيصه. وإن العائلة قلقة عليه أشد القلق، فهو يصر على أن يغادر ليلا فى جندوله إلى رحلات لا يتحدث عنها أبدا، وإن كان يعود منها مرهقا غاية الإرهاق. ولم أعرف بم أجيب على هذه الرسالة.

«وتوجهت من رافينا، إلى اليونان. ولم أعد إلا بحلول الخريف. كنت قد أرسلت بطاقة إلى نيجرو بونتى أخبره فيها بأملى فى أن أقيم معه، لكننى لم أتلق ردا. وعندما كنت أجتاز القناة الكبرى، رأيت فى لجة الماء، فى ضوء الشفق، جنازة، وشعارات الموت ورموزه الرهيبة. رأيتهم يخرجون من قصر نيجرو بونتى. فرسوت على الضفة مسرعا إلى البوابات، بينما الجندول الأخير فى الموكب يمتلئ بالقسس والمشيعين، حيث تعرفت على الطبيب ولحقت به. أخبرنى الرجل بما

يعرفه بينما نجدف فى القنال بمشقة وقد تناثر الرذاذ. وأخذت عيوننا ترمش من طعنات البرق. مات نيجرو بونتى فى الأمس، وعند بدأوا لفه فى الأكفان، رأوا تلك العضات: ربما بسبب حشرة استوائية؟ التبس الأمر على الطبيب. قال، لم أر مثل العضات إلا عندما انتشر الطاعون فى نابولى. حيث هاجمت الفئران الأبدان. كانت العضات فى جسده سيئة إلى حد أننا قمنا بتغطيتها بمسحوق التلك قبل أن ندع أخته ترى جثته».

وتناول بورسواردن رشفة طويلة من كأسه، ثم استمر قائلا فى خبث، «لم تكن تلك هى النهاية إذ حاولت الانتقام له، فذهبت بنفسى إلى كوبرى قطاع الطرق، عندما حل المساء، حيث كانت تنتظره دوما تلك المرأة فى الظلام، كما أخبرنى ملاح الجندول. . إلا أن الوقت قد غدا الآن متأخرا، كما أننى، على أى حال، لم أقرر بعد كيف تكون بقية القصة».

وانطلقت الضحكات. وارتجفت أثينا ارتجافة مهذبة وهى تلف شالها على كتفيها. وكان ناروز يستمع إلى هذا الحكى فاتحا فاه، مبهورا، مضعضع الحواس، ثم قال متلجلجا، «ولكن، هل كل مارويت حقيقيا؟». وانطلقت ضحكات جديدة ترحب بهذا السؤال.

قال بورسواردن فى حسم، «بالطبع كله حقيقى». ثم أضاف، «فأنا لم أذهب طوال حياتى إلى فينيسيا».

ثم وقف، فقد حان أوان ذهابهم. وأخذوا فى ارتداء القلانس المخملية، بينما وقف الخدم السود ساكنين فى انتظار ما يوجه إليهم. وضبط السادة وضع أقنعتهم، كما يفعل الممثلون. ووقفوا، جنبا إلى جنب، يقارنون انعكاس هيئاتهم فى المرآتين الكبيرتين القائمتين بين

أشجار النخيل. وهأهأ بيير، وأطلق توتو دى برونيل النكات وهما يضحكان فى طريقهما إلى الخارج حيث هواء الليل النقى، هؤلاء السكندريون سادة اللذة والألم. .

احتوتهم السيارات، بينما الخدم والسائقون يهتمون بهم، يدسونهم فيها بعناية، كأنهم بالات توابل أو بضائع ثمينة، وفى رقة أيضا، كأنهم زهور أو ورود. وصوصو توتو معلقا على هذا الاهتمام وتلك العناية، «أحس أنى هش. ارفعوا هذا الجانب بعناية. إه؟ إننى أتساءل، أى جانب هذا؟». لا بد أنه الوحيد فى المدينة الذى لا يعرف الإجابة على سؤاله.

ومالت جوستين إلى الأمام فى السيارة عندما بدأت تتحرك. جذبت كم توتو وهى تقول فى صوت أجش، «أود أن أهمس لك بشىء». لم تكن بحاجة كبيرة إلى الهمس. كان نسيم وناروز منهمكان يناقشان، شيئا ما، بنبرات خشنة (وتميز صوت ناروز بنبرات طفولية)، بينما كانت أثينا تلوم بيير بصوت كالمزمار. وهمست جوستين، «اسمع ياتوتو. أود منك، إن شئت خدمة كبيرة الليلة. لقد وضعت علامة طباشيرية هنا على كمك من الخلف. إننى أود، فيما بعد، أن أعطيك خاتمى لترتديه هذا المساء، صه. إننى أود الاختفاء قرابة ساعة من الزمن لحسابى الخاص. خفض من صوتك ولا تقرقر ضاحكا». إلا أن الصوصوات والزفرات جاءت من تحت القلنسوة المخملية واستمرت جوستين. «سوف تكون لك الليلة مغامرات باسمى، يا عزيزى توتو، بينما أكون أنا بعيدة. فهل توافق؟».

أزاح القلنسوة إلى الوراء، كاشفا عن وجهه الطافح بالسعادة، وعينيه الراقصتين، وابتسامة القواد الصغيرة الكالحة. وهمس،

«بالطبع»، وقد استخفه الطرب لهذه الفكرة المثيرة للإعجاب الشديد. إن صوت جوستين يأتيه من القناع القابع إلى جواره، وقد خلا من كل تعبير، كأنها كاهنة أو عرافة. وكان القناع الذى يضوى بنوع متميز من جمال الموت، يومئ له فى ضوء مصابيح الشارع التى يمرون بها. ويطوقهما الحديث والضحك المحيط بهما ليبرما مؤامرة خاصة صامتة. وتساءلت جوستين، «هل توافق؟» وقال توتو. «بالطبع يا عزيزتى.».

كان الرجلان المقنعان الجالسان فى المقاعد الأمامية أشبه برئيسى دير من أديرة القرون الوسطى، يناقشان فى أحكام علم اللاهوت. وكانت أثينا غارقة فى صوتها. تبقبق مع بيير قائلة، «بالطبع».

وأمسكت جوستين بذراعه وأدارت كمه لتريه العلامة الطباشيرية التى وضعتها عليه. «إننى أعتمد عليك» قالتها فى صوت أجش متآمر، وأكملت همسًا «لا تخذلنى». تناول يدها ورفعها إلى شفتيه الكيوبيديتين، وقبل الخاتم، الذى جئ به من إصبع شاب بيزنطى، كما يقبل المرء صورة مقدسة، حققت له معجزة كان يشتاق إليها منذ زمن بعيد. كان عليه أن يتحول من رجل إلى امرأة. وضحك صائحا، «سوف تقع على رأسك كل الحماقات التى سأرتكبها. ولسوف تقضين بقية أيامك..».

«صه».

صاحت أثينا تراشا، وقد اشتمت رائحة نكتة أو فضيحة تستحق الإعادة، «ماهذا؟ وأية حماقات؟». صاح توتو فى الظلام بلهجة المنتصر. «حماقاتى أنا، حماقاتى بذاتها». إلا أن جوستين اتكأت إلى الخلف فى السيارة المظلمة، ساكنة فى قناعها، لاتتكلم. وقالت أثينا، «إننى أتحرق شوقا للوصول إلى هناك»، ثم استدارت إلى بيير مرة

أخرى. وأضاءت أنوار السيارة، بينما تجتاز بوابة منزل آل سيرفونى، معالم لوحة محفورة (بلون اللبن المحروق)، تمثل الإله «بان»، إله الرعاة، وهو يغتصب عنزة، وقد أمسكت يداه بقرنيها، بينما ألقى برأسه إلى الخلف منتشيا. وقالت جوسيتن مرة أخرى وأخيرة، «لا تنس» بينما سمحت له أن يتناول يدها، فى عنف، ممتنا لهذه الفكرة الرائعة «لا تنس»، ووضع يدها المحلاة بالخواتم فى يده.. كانت باردة. خالية من كل الأحاسيس. كبقرة تترك نفسها لمن يحلبها. «فقط، أخبرنى بكل ما سيدور من أحاديث ممتعة. هل ستفعل ذلك؟». ولم يملك غير أن يتمتم، «أيتها العزيزة، العزيزة، العزيزة» بينما يقبل الخاتم بعاطفة أنثوية جياشة، عاطفة من جرد من قدرته الجنسية.

تفرقت جماعتهم، ما إن دخلت صالة الرقص. واندمجت فى الجمع، كما يذيب تيار الخليج الدافئ جبل الجليد ويبدده. وفجأة أخذت أثينا فى الصراخ، وعملاق يرتدى الدومينو يجرها إلى قلب الزحام، وهو يغرغر يزأر بأشياء غامضة تنطلق من وراء قلنسوته. ووجد نسيم وناروز وبيير أنفسهم، فجأة، وقد تحولوا إلى رموز قذف بها إلى عالم بلا معالم، عالم من اللقاءات العفوية. والقناع الأسود فى مواجهة القناع الأسود، أشبه بنوع جديد من الحياة الحشرية. ومنحت العلامة الطباشيرية توتو بضع لحظات تميز هويته، بينما كان يحمل بعيدا كفلينة تطفو فوق مجرى مائى، وكان خاتم جوستين علامة مميزة لها أيضا (ذلك الخاتم الذى بحثت عنه، عبثا، طوال الليل).

انغمس كل شىء فى فوضى رقص أحمق مع نغمات الجاز الأسود الصادر عن هدير الطبول وصرير الساكسافون. وبدت أرواح الظلام وكأنها قد سادت تحجب بصيرة قلوب وعقول المقنعين، تغمسهم أعمق

وأعمق فى عزلة هويتهم التى لم يعد فى وسعهم استردادها، تطلق شهوات المدينة المتعددة المتنوعة. وجرفهم التيار إلى شطآن شخصياتهم الغائصة كالمستنقعات - إنهم رموز الإسكندرية. بركة ماء آسن، تميل إلى الملوحة وقد فقدت عذوبتها، يحيطها صمت الصحراء الذى لا يمكن التكهن بكنهه، والذى يمتد بعيدا فى أفريقيا تحت قمر خامد.

أخذنا نجوس، بين الجماعة، فى يأس، وقد أطبقت علينا أقنعتنا. نبحث من حجرة إلى حجرة ومن طابق إلى طابق منير فى أنحاء البيت الكبير، لعل شيئا مميزا يقودنا إلى أى من نحب: وردة مثبتة فى كم، خاتم، وشاح، خرزة ملونة، شىء ما، أو أى شىء يمكن أن نكتشف به أحباءنا. كانت القلانس والأقنعة أشبه برموز خارجية لما فى عقولنا من أسرار، ونحن نهيم، هنا وهناك، وبغرض واحد، متجردين كآباء الصحراء وهم يبحثون عن إلههم. وأحاط بنا حفل الكرنفال الكبير الراقص فى بطء. ولكن فى إلحاح لا يرد. وكان المرء يقع، هنا أو هناك، على شىء مألوف لديه، كما يقع القارىء على نتف من معنى فى متن مبهم: هنالك فى الممر من يرتدى لباس مصارع ثيران، يشرب الويسكى ويحيينا بلكنة بها لثغة تونى أو مبادا، وبوزو دى بورجو يرفع قناعه، لحظة، ليكشف عن نفسه لزوجته المرتجفة. وهنالك فى الخارج، فى الظلام، جلس أماريل فوق العشب إلى جوار بركة الزنابق، ينتفض أيضا وينتظر. لم يكن يجرؤ على البقاء بلا قناع خشية أن يثير منظر وجهه اشمئزازها أو إحباطها، تلك التى يجب أن تعود هذا العام فى الموعد الذى حددته. إذ وقع المرء فى حب قناع، بينما هو ذاته مقنعا.. فمن ذا الذى تواتيه الشجاعة ليرفع القناع أولا؟ ترى أيمضى مثل هؤلاء معا عبر الحياة وهما مقنعين؟ (وتنازعت الأفكار وجدان أماريل العاطفى.. فالحب ينعشه تعذيب الذات).

وهناك من تنكر تنكرا جيدا فى زى امرأة غسالة، ترتدى قبعة مألوفة، وحذاء يسهل التعرف عليه (إنها بومبال، كما يكون فى جميع الأحوال)، وقد أمسكت بتلابيب متنكر هزيل، يرتدى زى قائد مائة رومانى، فى ركن المدفأة، وراحت تلعنه فى صوت كصوت الببغاء. وحاول القنصل العام، ضئيل البنيان، أن يعبر عن ضيقه، مقاوما بحركات متموجة سريعة، إلا أن كل ما فعله كان عبثا، فقد أمسكه بومبال، فى سرعة، بمخالبه الهائلة. كان المشهد يأسر الألباب. وسقطت خوذة قائد المائة، ودفعه بومبال إلى منصة الجوقة الموسيقية وهو يضربه من الخلف على إيقاع الطبل الكبير، ويقبله، فى ذات الوقت قبلات والهة. كان، بالقطع، ينتقم لنفسه منه. وبينما أراقب هذا المشهد القصير، طمسه اقتراب الجمع منه وأحاطته به فى دوامة من الرايات ونثار الأوراق الملونة. وأمسك بنا الزحام فغدونا جسدا لجسد وخوذة لخوذة وعينا لعين، وساقتنا الموسيقى دورة وراء دورة، ولا أثر لجوستين بعد.

تيرسياس العجوز

لا أحد يضاهيه فى مرحه

لا أحد له انطلاقة وسلاسة

تيرسياس العجوز

لا بد أن الساعة كانت قد بلغت الثانية، عندما بدأت النيران تشتعل فى إحدى مداخن الطابق الأرضى. لم تكن لها نتائج خطرة، كما أشاعت المرح أكثر مما أثارت الفزع، لما صاحبها من ملابسات. وأخذ الخدم يهرولون، هنا وهناك، بطريقة متكلفة. ورأيت سيرفونى يسرع.

دون قناع، إلى الدور العلوى، ثم سمعت رنين الهاتف. وانتشرت سحب دخان لها رائحة الكبريت، وكأنها آتية من حفرة لا قاع لها. ووصلت سيارة المطافئ، فى لحظات، يسبقها زعيق صفارتها. وامتلأت القاعة برجال المطافئ بأرديتهم المزخرفة، يحملون الجرادل والبلط، حيث قوبلوا بالتصفيق تحية واستحسانا، وهم يشقون طريقهم نحو مكان النيران الذى هدموه بفؤوسهم. وتسلق البعض منهم إلى سطح المنزل وأخذوا فى إلقاء الماء من الجرادل فى المدخنة. مما ملأ الطابق الأول بسحابة كثيفة من السناج أشبه بضباب لندن. وتجمع المقنعون يصيحون فى فرح ويرقصون كالدراويش. كانت مثل تلك المفاجآت الناجمة عن السهو والإهمال، هى التى تضفى على الحفل بهجته. ووجدت نفسى أصرخ مع الصارخين. ولا بد أننى، كما أعتقد، كنت أوشك أن أكون ثملا.

فى القاعة الكبيرة بجدرانها المغطاة بالستائر المنقوشة الموشاة، كان الجرس يرن ويرن مخترقا ذلك الضجيج. رأيت خادما يجيب عليه، ثم يضع السماعة جانبا، ويفحص من فى القاعة ككلب صيد حتى يعثر على نسيم فيعود به، مبتسما سافرا، ليتحدث فى الهاتف فى سرعة ونفاذ صبر. ثم يضع، هو أيضا، السماعة جانبا، ويذهب إلى طرف حلبة الرقص، يحملق فى الراقصين بحدة. وسألته وأنا أزيح قلنسوتى وألحق به، «هل حدث شىء ما؟» وابتسم هازا رأسه، «لا أستطيع أن أرى جوستين فى أى مكان، إن كليا تود الحديث إليها. هل فى وسعك أن تراها؟» وأسفاه. لقد حاولت جاهدا أن تقع عينى على خاتمها المتميز، طوال الأمسية، دون جدوى. وانتظرنا، نراقب، ندقق النظر فى الراقصين وهم يدورون فى بطء، كما يراقب الصيادون الطعم فى انتظار أن تقضمه الأسماك. وقال نسيم، «كلا»، ورددت أنا قوله

«كلا». وجاء بيير بالبز ليلحق بنا رافعا خوذته وقال، «لقد كنت أرقص معها منذ لحظة مضت. ربما تكون قد ذهبت إلى الخارج».

عاد نسيم إلى الهاتف وسمعته يقول، «إنها هنا فى مكان ما. نعم، أنا متأكد تماما من ذلك. كلا، لم يحدث أى شىء. لقد كان بيير آخر من رقصت معه. إن الجمع كبير. ربما تكون فى الحديقة. هل ترغبين فى ترك رسالة لها؟ هل أطلب منها أن تتصل هاتفيا بك؟ حسنا. كلا، لم تكن أكثر من نار اشتعلت فى المدفأة وقد خمدت الآن». ووضع السماعة فى موضعها وعاد إلينا قائلا، «على أى حال، لدينا موعد لقاء فى البهو، سافرين، فى الساعة الثالثة».

وهكذا أخذ الحفل الراقص يدور حولنا. ولحق رجال الإطفاء، وقد أدوا واجبهم، بالجمع الراقص. ولمحت امرأة غسالة ضخمة الجثة، فاقدة الوعى بصورة واضحة، يحملها، إلى حجرة النباتات الزجاجية، شياطين أربع، لهم نهود كبيرة، وقد أحاط بهم تصفيق صاخب. لا بد أن بومبال قد استسلم، مرة أخرى، لنزوته المفضلة فى احتساء الوسكى. كان قد فقد قبعته، لكنه كان بعيد النظر فارتدى باروكه كثيفة من الشعر الأصفر المستعار. كان من المشكوك فيه أن يتعرف أحد عليه وهو فى مثل هذا اللباس.

وظهرت جوستين فى الموعد تماما، فى الثالثة. دخلت البهو قادمة من الحديقة وقد كشفت قناعها. وكنت أنا وبيير قد قررنا ألا نقبل عرض نسيم علينا بأن يأخذنا إلى بيوتنا فى سيارته. وأن نظل نمنح طاقتنا للحفل الراقص الذى كان قد بدأ فى التبلد والخمود. وأخذت المجموعات فى الالتقاء ومغادرة المكان، تحملهم سياراتهم. وقبل نسيم جوستين فى رقة وهو يقول، «أين خاتمك؟» سؤال كنت أتحرق شوقا

لتوجيهه إليها . إلا أننى لم أجسر على ذلك . وابتسمت تلك الابتسامة البريئة الآسرة وهى تقول «لقد انتزعه توتو من أصبعى منذ دقائق قليلة مضت، أثناء إحدى الرقصات . أين هذا الوحش الصغير؟ ، فإننى أريد استرداد خاتمى . » وأخذنا نبحث عن توتو ، فى الطابق ، إلا أنه لم يكن هنالك من أثر له . وأخيرا قرر نسيم ، الذى كان متعبا ، أن نكف عن البحث ، لكنه لم ينس أن يبلغ جوستين رسالة كليا . ورأيت معشوقتى تسير منصاعة إلى الهاتف ، تدير القرص على رقم صديقتها . كانت تتحدث فى هدوء ، وبطريقة مبهمة ، مدة لحظات قليلة ، وسمعتها تقول ، «بالطبع أنا فى خير حال» ، ثم حيت كليا تحية المساء . وخطا كلاهما إلى الخارج فى ضوء القمر وقد أخذ يضمحل ، وقد وضع كل منهما ذراعه فى ذراع الآخر ، وساعدتها أنا وبيير على دخول السيارة . كان سليم يجلس إلى عجلة القيادة ساكنا ، بملامحه التى تشبه ملامح الصقر . وصاحت جوستين «طبتم مساء!» ومست وجنتى بشفتيها وهى تهمس ، «غدا» . وزغردت الكلمة فى عقلى كصفير طلقة ، بينما نعود أنا وبيير إلى المنزل المضاء . كان وجه نسيم مفعما بسكينة شيطانية ، أشبه بمن يركن إلى الراحة بعد استنفاد قدر كبير من طاقته .

كان أحدهم قد سمع شبحا يتمتم فى حجرة النباتات الزجاجية . وكان هنالك ضحك صاخب . وصاحت أثينا فى صوت كقباع الخنزير ، «كلا ، إلا أننى أؤكد لكم أننا ، أنا وجاك ، كنا نجلس فوق الأريكة . أليس كذلك يا جاك؟» وظهر مقنع نفخ فى وجهها مصوصوا ثم تراجع . وهتف هاتف من أعماقى أنه توتو ، فسحبت قلنسوته إلى الخلف فظهر وجه كلو مارتيننجو . واستمرت أثينا قائلة ، «إلا أننى أؤكد لكم ، أنه نطق كلمة فى صوت كالأنين ـ كلمة أشبه . . » . وعبس وجهها وهى تركز تستجمع ذاكرتها . ثم قالت ، بعد فترة من الصمت ،

فى صوت أشبه بصوت من يغنى، يهدهد طفلا، كلمات تبدو كأنها آخر ما ستنطق من كلمات، «جوستيس . . . جوستيس»[1]. وضحك الجميع من أعماق قلوبهم. وأخذت أصوات عدة تقلدها : «جوستيس» بينما هدر أحدهم، ممن يرتدون الدومينو، «جوستيس» بينما يندفع صاعدا السلم.

ووجدت نفسى، مرة أخرى وحيدا، وقد تحول ما أصابنى من خور ويأس إلى جوع. فعبرت حلبة الرقص، حذراً فى اتجاه غرفة العشاء، التى كانت تنبعث منها أصوات طرقعات زجاجات الشمبانيا. كانت حفلة الرقص ما تزال على أشدها، والراقصون يتمايلون كغسيل مبتل فى مهب ريح عاتية، وأنغام الساكسفون تنتحب كصغار الخنازير، ودروسيلا بانوبولا تجلس فى خلوة وقد رفعت ثوبها إلى ما فوق ركبتيها الرائعتين، وقد سمحت لاثنين فى ملابس المهرجين بتضميد مفصل قدمها. يبدو أنها وقعت أو أن هناك من دفعها أرضا وخلفها رقد نائما، فوق أحد الأرائك، طبيب ساحر أفريقى، وقد وضع مونوكلا فوق عينه. وأمرأة فى الغرفة الثانية، جلست فى ثياب السهرة إلى بيانو كبير تعزف موسيقى الجاز وتغنى لنفسها وقد انهمرت دموعها على وجنتيها، بينما عجوز بدين، يغطى الشعر ساقية، يحوم حولها وقد ارتدى لباس فينوس دى ميلو. كان، هو أيضا، ينتحب وبطنه تنتفض معه.

كانت حجرة العشاء هادئة، نسبيا، حيث وجدت بورسواردن سافرا، واضح السكر، بعض الشىء، يتحدث إلى ماونت أوليف،

(١) جاءت فى الأصل Justice. وقد كتبتها كما هى رغم أن معناها العربى : العدالة. لأنها كما جاءت فى السياق تبدو أقرب إلى جوستين ولكن محرفه. (المترجم)

الذى كان يسير فى انسياب غريب حول المائدة يظلع فى مشيته ويملأ طبقه بشرائح الديك الرومى الباردة والسلاطة. كان بورسواردن يندد، بطريقة مشوشة، بصورة ما، بآل سيرفونى لتقديمهم السبومانتى بدلا من الشمبانيا. وقال. موجها حديثه إلىَّ، «خذ بالك من هذا المشروب، فكل رشفة منه تحمل للرأس صداعا». لكنه كان يملأ كأسه، مرة أخرى، وهو يمسكه بثبات فيه كثير من المبالغة. ونظر ماونت أوليف إلىَّ نظرة تأمل رقيقة، بينما كنت أتناول طبقا، ثم حيانى باسمى فى ارتياح واضح، قائلا، «آه، دارلى لقد ظننت للحظة أنك واحد من سكرتاريَّ - لقد كانوا يتتبعوننى طوال المساء، يفسدون علىَّ متعتى. إن إيرول يأبى، فى بساطة أن يخرق البروتوكول ويغادر الحفل قبل أن يغادره رئيس البعثة، لذا كان علىَّ أن أختفى فى الحديقة حتى يعتقدوا أننى قد غادرت الحفل. هؤلاء الرجال الأعزاء البؤساء. عندما كنت مرؤوسا كنت ألعن الوزير لإبقائه لى طوال أمسيات مملة تثير الضجر، فأقسمت ألا أعرض مرؤوسىَّ لما أعانيه إن غدوت يوما رئيسا للبعثة».

كان حديثه السلس العفوى، بما يتسم به من بساطة، يسبغ عليه مظهر المتعاطف مع الآخرين، رغم أنى كنت أعرف أن سلوكه إنما هو سلوك المهنى المحترف، سلوك الدبلوماسى الناعم المدرب. لقد قضى سنوات عدة يدرب نفسه على معاملة مرؤوسية بما يريحهم مخفيا شعوره بأن ما يقوم به إنما هو تنازل منه، حتى إنه حقق، فى النهاية، أسلوبا خاصا به، يتسم بالصدق المهنى التام الذى يبدو فيه متسقا مع طبيعته، فى حين أنه كان، فى الحقيقة، أقرب إلى الزيف. لقد كان شديد الإخلاص لتمثيل هذا الدور الكبير. إلا أن الضيق كان ينتابنى لأننى كثيرا ما كنت أجد نفسى لصيقا به. ودرنا حول المائدة فى بطء نتحدث ونملأ طبقينا بالطعام.

واستشاره بورسواردن قائلا. «ماذا رأيت فى الحديقة يا دافيد؟» ونظر الوزير إليه متأملا كأنما يحذره من قول فيه حمق ونزق. قال ماونت أوليف بينما يتناول كأسه مبتسما، «رأيت العاشق أماريل إلى جوار البحيرة يتحدث إلى امرأة ترتدى الدومينو. ترى هل تحققت أحلامه؟ آمل ذلك». كانت قصة عشق أماريل معروفة للجميع.

وتحداه بورسواردن بطريقة أقرب إلى السوقية، كأنما بينهما سر مشترك، قائلا، «وماذا رأيت أيضا؟ ومن رأيت أيضا، يادافيد؟». كان متنمرا متربصا رغم ما فى صوته من ود. واحمر وجه ماونت أوليف خجلا، وأرخى ناظريه إلى طبقه.

تركتهما عائدا أدراجى ومعى طبق ملىء بالطعام وكأس شراب. أحسست فى أعماقى بازدراء لبورسواردن وتعاطف جياش نحو ماونت أوليف لما وقع فيه من حرج. كنت أبغى الانفراد بنفسى، آكلا فى صمت، أفكر فى جوستين. كاد ينقلب ما معى من طعام عندما صدمتنى متنكرات ثلاث فى زى آلهات الإغريق الثلاث المانحات للفتنة والجمال، وقد صبغن شفاههن بالأحمر القانى. كن جميعا رجالا كما يبين من أصواتهم العميقة، وقد أخذوا يتعاركون فى البهو. كانوا يهاجمون الأجزاء الخاصة لكل منهم مازحين مزمجرين كالكلاب. راودتنى، فجأة، فكرة أن أصعد إلى المكتبة التى لا بد وأن تكون خالية فى مثل هذا الوقت. وأملت أن تكون مخطوطات كافافى الجديدة هناك، ألا يكون مغلقا عليها، فقد كان سيرفونى هاويا كبيرا لجمع الكتب.

رأيت فى الطابق الأول رجلا بدينا له ساقان طويلتان، يرتدى بذة «ذات القبعة الحمراء» ويدق باب دورة فى المياه فى عنف. والخدم

يزيلون السناج بمكانس هوفر كهربية ويتحدثون همسا. كانت المكتبة فى الدور العلوى، وهنالك ضجيج، فى إحدى غرف النوم. سمعت صوتا قادما من حمام الدور السفلى، صوت مريض متدرج الأنغام. بلغت بسطة السلم ضاغطا الباب، محكم الإغلاق، بقدمى لينفتح فأدخل. كانت الغرفة المستطيلة بأرففها البراقة خالية إلا من شخص يرتدى زى الشيطان، جالسا فى أحد المقاعد، قرب النار، وقد وضع كتابا على ركبتيه. وخلع نظارته ليتعرف علىَّ فعرفت فيه كابوديستريا. ما كان من الممكن أن ينتقى زيا أليق من هذا. زيًا يناسب أنفه الشبيهة بمنقار طويل، وعينيه الصغيرتين الحادتين المتقاربتين. وصاح، «ادخل. كنت أخشى أن يكون القادم واحدا من هؤلاء الذين يرغبون فى ممارسة الحب، وكان علىَّ فى مثل تلك الحالة.. يجب الالتزام دوما بآداب السلوك(*)، وإلا فإننى كنت سأضطر إلى.. ماذا تأكل؟ إن النار هنا ممتعة، وأنا أبحث عن فقرة أثارت قلقى طوال المساء».

تقدمت نحوه واضعا طبقى بما حمل فيما بيننا، دعوة منى إليه ليشاركنى الطعام، قلت، «لقد جئت لأرى مخطوط كافافى الجديد».

قال، «إن كل المخطوطات مغلق عليها».

«حسنا».

طقطقت النيران وتوهجت، والحجرة الهادئة ترحب بنا بما فيها من كتب بديعة. خلعت قلنسوتى وجلست بعد أن قمت بجولة أولية حول رفوف الكتب المعلقة على الجدران. كان داكابو قد انتهى من نسخ شىء ما فى قطعة من الورق. قال فى شرود، «ما أغرب أمر والد ماونت

(*) بالفرنسية فى الأصل.

أوليف، وعلاقته بتلك المجلدات الثمانية الضخمة من المتون البوذية. هل تعرف ذلك؟».

قلت بطريقة غامضة، «سمعت بهذا».

«كان العجوز قاضيا بالهند، وعندما اعتزل ظل هناك ومازال. إنه، كما أرى، من مقدمة الدارسين الأوربيين لمتون (بالى).. إن ماونت أوليف لم يره منذ أعوام طويلة. ويقول عنه إنه يرتدى (السادهو). إنكم معشر الإنجليز غريبو الأطوار تماما. لماذا لا يعمل العجوز فى متونة فى أكسفورد، إه؟».

«ربما كان ذلك بسبب الطقس».

«ربما. هاهو ما كنت أبحث عنه. كنت أعرف أنه هنا فى مكان ما من المجلد الرابع». وصفق الكتاب وأغلقه.

أمسك بورقته قرب النار، وأخذ يقرأ فى بطء ومتعة مرتبكة النص الذى نسخة، «إن ثمرة الخير والشر هى ذاتها لاشىء غير الجسد. نعم والتفاحة ذاتها لاشىء غير تفاحة من تراب».

قلت، «ليس هذا، بالطبع، نصا بوذيا».

«كلا. إنه، كما جاء فى المقدمة، لوالد ماونت أوليف نفسه»

«إننى أعتقد..»

إلا أن صراخا مضطربا ارتفع فى مكان ما، بالقرب منا. تنهد كابوديستريا فى ضيق وهو يفرغ كأس الويسكى فى جوفه. «لست أدرى بحق الشيطان، لماذا أشارك فى هذا الكرنفال اللعين عاما بعد عام. إن وقت إقامته، طبقا لعلم التنجيم، فترة نحس وسوء طالع-

أقصد بالنسبة لى . إذ تقع فى كل عام حوادث بشعة ، مما يثير قلقى . لقد وجد (آرنل) ، منذ عامين ، مشنوقا فى قاعة الموسيقيين فى بيت آل فونتانا . أليس هذا أمرا مضحكا؟ لقد كان عملا متهورا لعينا ، إن كان هو الذى شنق نفسه بنفسه . ثم تلك المبارزة التى خاضها مارتن فيرى وجاكوموا فروتى . . إن هذا ليدفع بالشيطان كى يسفر عن نفسه . ولهذا ارتدى زى الشيطان . إننى أحوم فى انتظار أن يأتينى الناس يبيعوننى أرواحهم» وسحب أنفاسه وهو يفرك يديه فى صوت كطقطقة الشواء ، وأطلق قهقته الجافة القصيرة . ثم انتصب واقفا وهو ينهى آخر شريحة من الديك الرومى . «يا إلهى . كم بلغت الساعة الآن؟ يجب أن أذهب إلى المنزل ، فقد حان موعد نوم بعلزبول»(*) .

«وأنا أيضا . . وأنا أيضا» .

قال ونحن نغادر الحجرة مرة أخرى إلى بسطة السلم حيث كانت الموسيقى تغمر المكان بأنغامها ، «أتحب أن أحملك بسيارتى إلى منزلك؟ من العبث أن نودع مضيفنا ، إذ المحتمل أن يكون سيرفونى نائما فى فراشه الآن» .

نزلنا السلم فى بطء ونحن نتسامر . ولجنا القاعة الكبرى والموسيقى ما تزال تنساب ، بلا انقطاع ، فى صوت رخيم . كان داكابو قد ثبت قناعه فغدا أشبه بطائر شيطانى غريب . وقفنا برهة نراقب الراقصين ، ثم قال وهو يتثاءب ، «حسنا ، هنا يجدر بنا أن نقتبس من قصيدة كفافى ، (الله يتخلى عن أنطونيو) طبت مساء . إننى لا أستطيع البقاء مستيقظا أكثر من ذلك ، رغم خشيتى أن تكون الليلة ما زالت مليئة بالمفاجآت كالعهد بها دائما» .

(*) رئيس الشياطين (المترجم) .

جاءت الأحداث مصداقا لما قال. أخذت أهيم، بعد أن غادر أرقب الرقص، بعضا من الوقت. ثم هبطت السلالم إلى ظلام الليل البارد. كان هنالك بضع سيارات ليموزين، والخدم واقفون فى الانتظار قرب البوابات، يغلب عليهم النعاس. والشوارع قد بدأت تفرغ من الناس، ولوقع خطاي صدى خشن غريب وهي تطقطق فوق الرصيف. وعاهرتان أوروبيتان، تقفان عند زاوية في شارع فؤاد، تتكآن إلى الحائط تدخنان السجائر فى اكتئاب. نادتا على مرة واحدة فى صوت أجش. كانت كل منهما تضع فى شعرها زهرة من زهور المانوليا.

كنت أتثاءب عندما مررت بالإيتوال لأرى إن كانت ميليسا ما تزال تعمل. كان المكان خاليا إلا من عائلة ثملة رفضت أن تغادر إلى منزلها، رغم أن زولتان، كان قد كوم المقاعد والمناضد حولهم فوق حلبة الرقص. قال لى زولتان الضئيل، «لقد غادرت مبكرا هذا المساء، وكذا العازفون والفتيات. لقد غادر الجميع باستثناء هؤلاء الأوباش من أسوان. إن شقيقه من رجال الشرطة، ولذا فإننا لا نجرؤ على الإغلاق». وأخذ رجل بدين يرقص هازا كرشه. كان يأتى بحركات ظريفة من ردفيه والجماعة حوله تتابعه بحركة أقدامها دون أن تترك أماكنها. غادرت الإيتوال لأمر بمسكن ميليسا الرث الزرى، يخامرنى أمل غائم فى أن أجدها ما تزال يقظى. أحسست بالحاجة للحديث مع أحد ما. كنت في حاجة لاقتراض سيجارة منها. هذا كل ما كنت أحتاجه الآن، ثم تأتى، فيما بعد، الرغبة فى معاشرتها، في أن أمسك بهذا الجسد الرقيق الحنون، أستنشق فيه روائح الكحول الحمضية ودخان السجائر، وأفكر طوال الوقت في جوستين. إلا أن نافذتها كانت مظلمة، فهى إما نائمة أو لم تعد إلى المنزل بعد. لقد قال زولتان إنها غادرت الإيتوال مع مجموعة من رجال الأعمال متنكرين فى زى

أمـراء البـحـر . وأضـاف فى إزدراء، «بعض الأعـمـال التـجـارية الصغيرة»(*) إلا أن الاعتذار كسا وجهه للتو بعد ذلك .

كان علىّ أن أقضى ليلة خاوية، والقمر الشاحب المعتم يطل على أمواج الميناء الخارجى . والبحر يلعق ثم يلعق دعامات الرصيف، ويبرق خط الشاطئ فى بياض الزبد، ويبرق رماديا كالميكا . وقفت برهة فوق الكورنيش أمزق مركبا ورقيا، قطعة قطعة . وكل مزقة منه تنفصل عنه، تنبتُّ صلتها به نهائيا بطريقة جافة خشنة، كالعلاقات الإنسانية . استدرت إلى منزلى فى كسل وفتور وأنا استعيد فى خاطرى كلمات دا كابو، «سوف تكون الليلة مليئة بالمفاجآت» .

كانت تلك المفاجآت قد بدأت بالفعل فى المنزل الذى كنت قد غادرته لتوى، رغم أنى لم أعلم بها، بالطبع، إلا فى اليوم التالى . إن المفاجآت تستقبل هنا استقبالا لا يتسق تماما مع المدينة ـ مدينة تؤمن إيمانا عميقا بالتسليم للقدر، وكأنها تكاد تكون، كلية مدينة إسلامية . لا أحد فى الاسكندرية يهتز لمثل تلك المفاجآت، فالمأساة تعيش بيننا، لتضفى، فقط، نكهة على ما يجرى بيننا من حديث . إن الحياة والموت ليسا إلا مخاطر القدر التى لا يمكن تجنبها . وهما، إن أقحما فى الأحاديث، يثيران فيها مشاعر الحيوية وبسمة الرضا بما قدر . إن السكندرى إن أنبأته بنبأ سيئ تنثال الكلمات من شفتيه، «كنت أعرف أن شيئا كهذا لا بد وأن يقع . إن مثل تلك الأشياء تحدث دائما» . وهذا ما حدث .

كان فى حجرة النباتات الزجاجية، فى منزل آل سيرفونى عدد كبير من الأرائك الطويلة عتيقة الطراز، وقد تكوم فوقها جبل من المعاطف والأوشحة المسائية . وعندما بدأ الراقصون فى الاستعداد للعودة إلى

(*) فى الأصل بالفرنسية .

منازلهم، أخـذوا فى خلع أردية الدومـينو، والبـحث عن القـلانس والفراء، وأعتقد أن بيير هو الذى اكتشف الجثة بينما كان يبحث فى هذا الكوم الهائل من المعاطف، كالمقبرة، عن سترة السهرة المخملية، والتى كـان قد خلعـها مـبكرا فى هذا المسـاء. وكـنت أنا فى ذلك الوقت، قـد غادرت المكان بالفعل، وبدأت عودتى إلى منزلى.

عثر على توتو دى برونيل وهو ما يزال دافئا فى رداء الدومينو، وقد رفع كفيه ببراثنهـما، فبدتا كظلفين رقيـقين صغيـرين، وبدا هو ككلب تدحرج على ظهره ليحك بطنه. كان مدفونا بعمق فى ركام المعاطف، وإحدى يديه تحاول الوصول إلى صدغة الذى أصيب فيه بمقتل إلا أن الحركة ماتت عند بدايتها فلم تكتمل وظلت مرفوعة قليلا عن اليد الأخرى وكأنها تمسك بعصا غير مرئية. كان دبوس قبعة بومبال مغروسا فى جانب رأسه بقوة رهيبة، فثبته فى قلنسوته المخملية كما تثبت الفراشة. كانت آثينا قد ضاجعت جاك فوق جثته تماما - وهى حقيقة، لوحدثت فى ظروف أخرى، لبعثت فيه بهجة حقيقية. إلا أنه كان ميتا، هذا المسكين توتو، بل وما فاق ذاك، إنه كان يرتدى خاتم حبيبتى «جوستيس!».

«إن شيئا كهذا يقع، بالطبع، كل عام».

«بالطبع». كنت ما أزال دهشا متحيرا.

«ولكن، أن يكون توتو - إن ذلك شىء ما كان أحد، فى الحقيقة، يتوقعه».

اتصل بى بلتازار هاتفيا، حوالى الحادية عشر، صباح اليوم التالى. ليخبرنى بالقصة كلها. إلا أن الأمر بدا لى، وأنا فى تلك الحالة من

الذهول والنعاس، ليس فقط بعيد الاحتمال، بل وغير مفهوم على الإطلاق، «سوف يجرى تحقيق فى الأمر، ولذا اتصلت بك هاتفيا. إن نمرود سييسر الأمر قدر طاقته. سوف يكتفى بشاهد واحد ممن حضروا حفل العشاء ـ وقد فكرت جوستين أن تكون أنت هذا الشاهد، إن لم تمانع؟ حسنا. بالطبع. كلا، لقد أيقظنى آل سيرفونى فى الرابعة إلا ربعا. كانوا فى حالة سيئة بسبب الحادثة، فذهبت إليهم.. لأقوم بما يجب القيام به. وأخشى أنهم لم يستطيعوا حتى الآن معرفة ما جرى بالضبط. إن الدبوس هو دبوس قبعة.. نعم، قبعة صديقك بومبال.. إنه يتمتع بحصانة دبلوماسية، بالطبع. إنه كان ثملا للغاية أيضا.. بالطبع لا يخطر ببال أحد أن يكون هو الفاعل، لكنك تعرف كيف تعالج الشرطة الأمور. هل هو مستيقظ الآن؟» لم أكن أجرؤ على إيقاظه فى مثل ذلك الوقت المبكر، فقلت له هذا. وقال بلتازار، «حسنا، إن موته، على أى حال، قد هز الكثير من الأوساط بما فيها القنصلية الفرنسية».

قلت وأنا أحس بالاختناق، وقد تجمعت كل هواجس الأشهر الأخيرة، فى قوة، فوق كاهلى تثقلنى، «لكنه كان يلبس خاتم جوستين». وأحسست أنى مريض محموم، فاستندت إلى الحائط، قرب الهاتف لحظة. بدا لى صوت بلتازار المرح ولهجته المتروية أشبه بالفحش والبذاءة. ساد صمت طويل، ثم قال. «نعم، إننى أعرف مسألة الخاتم». ثم أضاف ضاحكا فى هدوء ضحكة مكتومة، «إلا أنه يصعب التفكير فيه كسبب محتمل. فقد كان توتو، أيضا، عشيق عمار الغيور. أنت تعرف ذلك. هنالك العديد من الأسباب..»

قلت، «بلتازار»، ثم تهدج صوتى.

«سأتصل بك هاتفيا، إن جد جديد. سوف يكون التحقيق فى السابعة فى مكتب نمرود. سألقاك هناك، إه؟».

«حسنا.»

أعدت سماعة الهاتف إلى موضعها، وانطلقت كالقذيفة إلى حجرة نوم بومبال. كانت الستائر مسدلة، والفراش فى حالة شديدة من الفوضى، مما يوحى بأنه قد استخدم حديثا، إلا أنه لم يكن هنالك من أثر له. كان حذاؤه ومختلف مفردات زى المرأة الغسالة الغريب تتناثر فى الحجرة فى مواضع مختلفة مما بين حقيقة أنه قد أمضى الليلة الماضية فى المنزل. كان شعره المستعار ملقى على بسطة السلم خارج الباب الأمامى: عرفت ذلك لمجيئه المتأخر قرب منتصف النهار، سمعت خطاه الثقيلة تصعد السلم، ثم دخل الشقة، يمسك به بين يديه.

قال. على الفور، فى إيجاز، «لقد انتهيت تماما، انتهيت ياصديقى[*]» كان يبدو محتقن الوجه بصورة لم يحتقن مثلها من قبل، واتجه إلى كرسى النقرس يجلس عليه، كأنما يتوقع هجمة مفاجئة لمرضه عليه. أخذ يكرر القول، «لقد انتهيت» غاطسا فى كرسيه، متنهدا وهو يتمدد. وأحسست بالارتباك والحيرة، وأنا أقف هناك فى منامتى. وزفر بومبال زفرة حارة.

قال متجهما وقد أطبق فكيه، «لقد اكتشفت قنصليتى كل شىء. لقد كان تصرفى، منذ البداية تصرفا سيئا للغاية.. نعم.. إن القنصل العام يعانى اليوم انهيارا عصبيا..» وفجأة انهمرت من عينيه دموع حقيقية هى دموع مزيج من الغضب والارتباك والهستيريا. قال وهو

(*) بالفرنسية فى الأصل.

يعطس، هل تعرف ما حدث؟ إن المكتب الثانى يعتقد أنى قد ذهبت إلى الحفل الراقص خصيصا كى أدفع بالدبوس فى رأس برونيل، أفضل عملائنا وأشدهم إخلاصا، لنا هنا!».

أخذ ينتحب فى صوت كالحمار، ودموعه تنساب بطريقة تفوق الخيال، ثم يتحول نحيبه إلى ضحكات. كان يمسح دموعه المنهمرة لاهثا منتحبا ضاحكا فى ذات الوقت. تدحرج من كرسيه، وهو ما يزال فريسة تلك السورات والفورات، ليستقر كالقنفد فوق السجادة، ويرقد هناك فترة من الزمن ينتفض، يتدحرج فى بطء إلى الحائط المبطن بالخشب، دموعه تنهال ويضحك، ثم بدأ يخبط رأسه، فى الحائط، فى حركة إيقاعية. ويصرخ مع كل دقة بتلك الكلمة الرائعة الحبلى بالمعانى- ملخصة كل ما يحيط به من يأس، «هراء، هراء، هراء، هراء، هراء»(*).

قلت فى وهن، «بومبال، بحق السماء!».

صرخ من حيث كان على الأرض، «اخرج من هنا، لن أكف حتى تخرج من هنا. أرجوك، اخرج من هنا». غادرت الحجرة، إشفاقا عليه، متوجها إلى الحمام لآخذ حماما باردا. بقيت هنالك حتى سمعته يطعم نفسه خبزا وزبدا من مؤنتنا الغذائية. ثم جاء إلى باب الحمام يدقه قائلا، «هل أنت بالداخل؟» «نعم». فأخذ يصرخ من شراعة الباب، «انس كل كلمة قلتها لك، أرجوك، إه؟» «لقد نسيت بالفعل».

«حسنا أشكرك ياصديقى»(*).

ثم سمعت وقع أقدامه الثقيلة فى اتجاه غرفته. ظل كل منا راقدا

(*) بالفرنسية فى الأصل.

صامتا فى سريره حتى حانت ساعة الغداء. وصل حميد فى الواحدة والنصف وأعد الطعام الذى لم تتقبله شهية أى منا. دق جرس الهاتف ونحن جلوس إلى المائدة. فقمت إليه، أرد عليه. كانت جوستين. لا بد أنها كانت تفترض سماعى بما وقع لتوتو دى برونيل، لأنها لم تذكر شيئا عما حدث. قالت، «إننى أود استعادة خاتمى الفظيع. لقد طالب بلتازار به. ذلك الذى أخذه توتو. نعم. لكن يبدو أنه من الضرورى أن يتعرف أحدهم عليه ويوقع بذلك، فى محضر التحقيق، ألف شكر لك لتطوعك بالذهاب للشهادة. إنك تستطيع تخيل وضعى ونسيم. . إنها مسألة شهادة فقط. ويمكننا، بعدئذ، أن نلتقى يا عزيزى، وأن تعيد الخاتم إلى. إن على نسيم أن يطير، بعد ظهر اليوم، إلى القاهرة فى بعض أعماله. هل يمكن أن نحدد موعد لقاء فى حديقة (أورور) فى التاسعة؟ سوف يوفر لك هذا الموعد متسعا من الوقت. إن لدىَّ الكثير الذى أود أن أتحدث به إليك. نعم، يجب أن أذهب الآن. وشكرا مرة أخرى. شكرا لك».

جلسنا مرة أخرى إلى وجبة الغداء، أشبه بقنين يثقلها شعور بالإثم والإرهاق. وقف حميد، منتظرا، حولنا، يضفى علينا رعايته فى صمت. هل يعرف ما يشغل بالنا نحن الاثنين؟ كان من المستحيل قراءة أى شيء يدور وراء هذه الملامح الرقيقة المجدورة، وعينه الوحيدة الحولاء.

* * *

(١١)

كان الظلام قد حل عندما صرفت سيارة الأجرة فى ميدان محمد على، واتخذت سمتى إلى الإدارة الفرعية لرئاسة الشرطة حيث يوجد مكتب نمرود. كنت ما أزال ذاهلا للمنحى الذى اتخذته الأحداث، وأنا أنوء تحت ثقل الاحتمالات التى تبعث اليأس فى النفس، والتى أثارها هذا المنحى فى خاطرى ـ التحذيرات والتهديدات التى ثارت فى الأشهر القليلة الأخيرة، والتى عشت خلالها من أجل شخص واحد ـ جوستين. كنت أتحرق شوقا إلى رؤيتها مرة أخرى.

كانت الحوانيت مضاءة. وأمام مناضد الصرافين، الذين يستبدلون النقود، زحام من البحارة الفرنسيين يحولون فرنكاتهم إلى طعام ونبيذ وحرير ونساء وغلمان وأفيون ـ كل أنواع الممارسات المعقولة التى تحقق النسيان. وكان مكتب نمرود يقع فى الجزء الخلفى من مبنى رمادى عتيق الطراز، ويصنع زاوية مع الطريق، وقد بدا الآن مهجورا مليئا بالطرقات الفارغة والمكاتب المفتوحة. لقد أنهى كل الكتبة أعمالهم فى الساعة السادسة. كان لوقع أقدامى المتباطئة صداها عبر مأوى البواب الخالى والأبواب المفتوحة. بدا غريبا أن تسير، حرا هكذا، فى مبنى الشرطة دون أن يعترضك أحد. وصلت عند نهاية الممر الثالث الطويل

إلى حجرة نمرود الخاصة به، فطرقت بابها. كانت هنالك أصوات بالداخل. كان مكتبه واسعا حقا، فخما يوحي بالعظمة، يليق بمكانته ورتبته. كانت نوافذه تطل على باحة، حيث كانت تقوق بعض الدجاجات وهي تنقر طوال اليوم في الأرضية الطينية الجافة. وانتصبت في وسط الباحة نخلة واحدة مشرشرة تلقي بظلالها الصيفية.

لم أتلق أية استجابة من داخل الغرفة ففتحت بابها وخطوت إلى الداخل، لأقف حيث كنت، فقد أوحى لي الضوء الساطع والظلام السائد، أن هنالك عرضا سينمائيا. إلا أنه لم يكن غير فانوس سحري يعكس فوق الحائط البعيد الصور التي كان يغذيه بها نمرود، واحدة بعد الأخرى، من مظروف إلى جواره. تقدمت إلى الأمام، والنور يبهر عيني، لأتعرف على بلتازار وكيتس في غبشة الضوء الفوسفوري الموجود حول الماكينة، كانت اللمبات الجانبية تنير جانبي وجهيهما بطريقة جذابة.

قال نمرود. وهو يستدير نصف استدارة، «حسنا، اجلس»، دافعا نحوي بكرسي وهو غائب الذهن. ابتسم لي كيتس وقد امتلأ حماسا ورضا غامضا عن ذاته. كانت الصور التي يدرسونها، بهذا القدر من العناية، هي الصور التي التقطها للحفل الراقص في منزل آل سيرفوني، وقد بدت، وهي علي هذا القدر من التكبير، أشبه بلوحات مائية هائلة تتجسد ثم تختفي فوق الحائط الأبيض. قال نمرود، «انظر إن كنت تستطيع المعاونة في التعرف على من فيها». جلست وأدرت وجهي، ممتثلا، ناحية الضوء المستعر، حيث كانت تنداح خيالات دستة من الرهبان المعتوهين الذين يرقصون معا. وقال كيتس، «ليست هي الصورة». كان ضوء المغنسيوم الأبيض قد أشعل النار حول الخطوط الخارجية لشخص الراقصين في أرديتهم.

إن الصور، وقد ظهرت فى مثل تلك الأحجام الهائلة، كانت توحى بشكل جديد من الفن، شكل تقشعر منه الأبدان، أكثر من أى شىء تخيله «جويا» الفنان. كان ذلك نوعا جديدا من الأيقونات ـ رسم بالدخان وومضات الضوء الأشبه بالبرق. أخذ نمرود يبدلها فى بطء وإطالة، سائلا، «إن كان هنالك من يريد التعليق؟» قبل أن يستبدلها بأخرى منتفخة، تنسخ الحياة الحقيقية أمام أعيننا، ثم سؤال آخر، «هل من تعليق؟

إلا أن الصور لم تكن تصلح البتة لغرض التعرف على من فيها، كان عددها جميعا ثمانية صور ـ كل منها تمثل بقايا وهمية لشىء ما، لحفل ـ موت أقامه رهبان شديدو الشبق فى قبو من أقبية العصور الوسطى. صور ما كانت تخرج إلا من خيال دى ساد!. قال بلتازار، عندما أخذت الصورة الخامسة تحوم أمامنا فوق الجدار، «ها هى الصورة التى يظهر فيها الخاتم». أخذت مجموعة من لابسى البرانس تتطوح فى هياج مسعور وقد تشابكت أذرعها، تتمرغ أمامنا فى لذاتها. كانت شخوصهم خالية من أى تعبير كسمك الحبار، أو كتلك الوحوش الهائلة التى يمكن أن يراها الإنسان، فى بعض الأحيان، فى عتمة أحواض حفظ الحيوانات المائية. كانت عيونهم فارغة من أى معنى، وبهجتهم سخرية واستهزاء بكل ما هو إنسانى. هكذا إذن يعمل محققو محاكم التفتيش فى أوقات فراغهم! تنهد كيتس فى يأس. ظهر أحد الأشخاص وقد وضع يده فوق ذراع آخر يغطيه رداء أسود. كانت اليد تحمل خطًا أبيض صغيرا، يمكن التعرف فيه على خاتم جوستين المشئوم. وصف نمرود، ما نراه لنفسه، وصفا دقيقا كمن يقرأ مقياسا. «خمسة مقنعين.. فى مكان ما إلى جوار البوفية. يمكنك أن ترى جزءا منه.. لكن اليد، هل هى يد برونيل؟ ماذا تعتقد؟» حملقت فيه

وقلت، «لا بد أن تكون يد برونيل، فجوستين تضع خاتمها فى إصبع آخر».

قال نمرود منتصرا، «هيه»، ثم أضاف، «تلك نقطة جيدة» نعم، ولكن من هى الشخوص الأخرى التى التقطتها، من العدم، عدسة التصوير مصادفة وعرضا؟ وحملقنا فيهم، وحملقوا فينا عبر شقوق خوذاتهم كالقناصة.

أخيرا قال بلتازار متنهدا، «لا جدوى». أوقف نمرود الآلة بطنينها. عادت الأنوار الكهربية العادية إلى الحجرة، بعد لحظة من الظلام. كان مكتبه مكتظا بأوراق مطبوعة معدة للتوقيع - ولم يخامرنى شك فى أن تلك هى محضر التحقيق. رقدت فوق قطعة مربعة من حرير رمادى، حاجيات كثيرة لها علاقة مباشرة بما تطفح به أفكارنا - دبوس القبعة الكبير برأسه القبيحة الحجرية الزرقاء، وخاتم معشوقتى العاجى والذى لم يكن فى وسعى أن أراه، حتى الآن، دون شعور باللوعة.

قال نمرود وهو يشير إلى الورقة، «وقع هنا. اقرأ نسختك، ثم وقع». سعل واضعا يده على فمه، ثم أضاف فى صوت أكثر خفوتا، «فى وسعك أن تأخذ الخاتم».

ناولنى بلتازار الخاتم، الذى أحسست به باردا، وقد غطته طبقة رقيقة من المسحوق الذى يستخدم للتعرف على بصمات الأصابع. نظفته مما علق به برابطة عنقى، ثم وضعته فى جيب سروالى الصغير الأمامى. قلت له، «شكرا» وأنا أجلس إلى المكتب لأقرأ نص ما كتبته الشرطة، بينما أشعل الآخرون سجائر وهم يتحدثون فى أصوات خفيضة - رقدت إلى جانب الأوراق المكتوبة، على الآلة الكاتبة، أوراق أخرى مكتوبة بخط الجنرال سيرفونى الضحل المضطرب. كانت تلك

هى قائمة المدعوين إلى حفل الكرنفال الراقص، وهى ماتزال تحمل صدى الأسماء الشاعرية المهيبة، والتى غدت تعنى الكثير بالنسبة إلىَّ. إنها أسماء السكندريين. واستمع إليها».

ييادى تولومى، بنيديكت دانجو، دانتى بوروميو، الكولونيل نجيب، توتو دى برونيل، ويلموت بييريفو، محمد آدم، بوزو دى بورجو، أحمد حسن باشا، دلفين دى فرانكويل، جمبلاط بك، أثينا تراشا، حداد فهمى أمين، جاستون فيبز، بيير بالبز، جاك دى جيرى، الكونت بانوبيولا، أونوفريوس باباس، ديمترى رانديدى، بول كابو ديستريا، كلود أماريل، نسيم حوسنانى، تونى أمبادا، بالداسارو تريفيزانى، جيلدا أمبرون.

كنت أتمتم الأسماء، وأنا أقرأها فى القائمة، مضيفا إليها، فى عقلى، كلمة «قاتل». بعد كل منها، لأرى إن كان لها الصدى المناسب. لكننى ما إن وصلت إلى اسم نسيم حتى توقفت ورفعت عينى أنظر إلى الحائط المظلم ـ كى ألقى بصورته، التى فى خاطرى، هناك، أدرسها كما درسنا مختلف الصور. مازلت أرى ذاك التعبير الذى ارتسم على وجهه، وأنا أعاونه ليدخل سيارته الكبيرة ـ تعبير غريب مفعم بسكينة شيطانية، أشبه بامرئ ركن إلى الراحة بعد أن استنفد قدرا كبيرا من طاقته.

* * *

الجـزء الرابع

(١٢)

كان شاطئ البحر يزهو بالأضواء رغم الشتاء، وخطوط الكورنيش الطويلة المنحدرة تتثنى بعيدا، تتلاشى فى أفق يميل إلى الهبوط، وآلاف النوافذ الزجاجية تشع بالأنوار، وخلفها جلس سكان الحى الأوروبى من المدينة، كأسماك استوائية رائعة، إلى مناضد متألقة عامرة بزجاجات المستكة والينسون أو البراندى. أمسك الجوع بتلابيبى وأنا أرقبهم فلم أتناول من الغداء غير النذر القليل). دلفت إلى «دياموند سوترا» بأبوابه المتألقة، إذ كان لدى متسع من وقت قبل أن ألتقى بجوستين، وطلبت شطيرة لحم خنزير وكأسا من الوسيكى. بدأت، مرة أخرى، وكما يحدث على الدوام عندما تغير الأحداث الخارجية للدراما النموذج العاطفى للأشياء، بدأت أرى المدينة بعينين جديدتين- أفحص أشكال البشر وهيئاتهم، على طريقة عالم الهوام والحشرات الذى يعكف على دراسة نوع من الحشرات غير معروف حتى الآن. هنا، أمامى، كان هذا الجنس البشرى وقد استغرق كل فرد فيه فى حل همومه الفردية، ما يحب وما يكره وما يخاف. وامرأة تحصى النقود فوق منضدة زجاجية، وعجوز تطعم كلبا، وعربى يرتدى طربوشا أحمر كأصيص الورد وهو يسد ستائره.

دخان عطرى ذكى الرائحة ينثال من حانات البحارة الصغيرة المتناثرة على امتداد الشاطئ، حيث الأسياخ الحديدية المحملة بشحنة من الأحشاء المتبلة، تقلب على الجمر بطريقة رتيبة إلى الأمام وإلى الخلف. وحيث القدور النحاسية اللامعة تندفع منها، عند رفع أغطيتها، لفحات ساخنة تحمل روائح سمك الحبار والحمام. هنا يشرب المرء من طاسات زرقاء ويأكل بأصابعه كما يفعل السيكلاد (Cyclades) حتى هذه الأيام.

أوقفت عربة حنطور متداعية. أخذت أتسكع بها، صوب مقهى «الأورور»، على امتداد البحر وهو يتنهد. أنا مفعم، فى هذا الظلام المضاء، بمشاعر الندم والمخاوف الشاردة التى أعجز عن تحليلها. إلا أننى كنت أحس فيما وراء ذلك (كما تحس الضفدعة الكامنة تحت حجر بارد، بهواء الليل المنطلق) بهواجس مرعبة كلما راودتنى فكرة أن تكون جوستين ذاتها معرضة للخطر بسبب الحب، «الذى يحمله كل منا للآخر». قلبت الفكرة فى رأسى هنا وهناك، كسجين يضغط بكل ثقله على أبواب تنكر عليه حق الخلاص من هذا القيد الذى لا فكاك منه، محاولا تدبير مخرج من هذا الوضع الذى نحن فيه، والذى قد ينتهى، كما يبدو، بموتها وموتى.

كانت السيارة الكبيرة فى انتظارى وقد وقفت بعيداً عن الطريق فى الظلام تحت أشجار الفلفل. فتحت لى الباب فى صمت، فدخلت وأنا مأخوذ بمخاوفى.

أخيراً قالت: «حسنا». ثم أنَّت أنَّة قصيرة عبرت بها عن كل شىء. غاصت بين ذراعى ضاغطة شفتها الحارتين على شفتى. «هل ذهبت؟ هل انتهى الأمر؟».

أدارت السيارة وبدأت سيرها، فنثرت عجلاتها الحصى من حولها، متقدمة فى لحظة الغروب اللؤلؤى على امتداد طريق الساحل إلى الصحراء. أخذت أفحص بروفيلها السامى الحاد السمات فى الضوء الناعم الذى كان ينعكس من الأجسام العادية على جانب الطريق، عندما تقع عليها أنوار المصابيح الأمامية. كانت عميقة الانتماء إلى المدينة التى رأيتها الآن، كسلسلة من الرموز التى تمتد بعيداً عنا على جانبى الطريق - المنائر والحمام والتماثيل والسفن والعملات والجمال والنخيل وهى تعيش كلها فى علاقة وثيقة بتلك المساحات الخلوية البرية المرهقة التى تحيط بها - بمنحنيات البحيرة الكبرى: تنسجم مع هذا المشهد، كما ينسجم أبو الهول مع الصحراء.

قالت: «خاتمى، هل أحضرته؟».

«نعم»، صقلته، مرة أخرى، برابطة عنقى، ووضعته، مرة أخرى، فى أصبعها الذى يليق به. قلت بطريقة لا إرادية «جوستين، ماذا سيحل بنا؟».

نظرت إلىّ نظرة برية عابسة، أشبه بامرأة بدوية، ثم ابتسمت تلك الابتسامة الدافئة، «لماذا؟». «أنت، لا شك، تدركين. يتحتم علينا أن نوقف كل هذا تماما. إننى لا أطيق احتمال تعرضك للخطر.. وإلا فإننى سأذهب إلى نسيم مباشرة وأواجهه..». أواجهه بماذا؟ لم أكن أعرف.

قالت فى نعومة، «كلا، كلا. أنت لا تستطيع أن تفعل ذلك. إنك أنجلو ساكسونى.. لا تستطيع أن تتخطى القاعدة هكذا. هل تستطيع؟ إنكِ لست واحدا منا، كما إنك لن تخبر نسيم بجديد لا يخمنه، إن لم يكن يعرفه بالفعل.. يا عزيزى». وضعت يدها الدافئة على يدى،

«خذ الأمور فى بساطة وانتظر . . ومارس الحب قبل كل شىء . . وسوف ترى» .

إن ما يثير دهشتى الآن، أن أدرك، وأنا أسجل هذا المشهد، أنها كانت تحمل فى أعماقها موت بورسواردن (كما تحمل امرأة جنينا غير مرئى فى شهوره الأخيرة). كانت قبلاتها، كما أعرف تمام المعرفة، تقع على صورة صديقى المطبوعة على قناع موت الكاتب الذى لم يكن يبادلها الحب، وكان فى الحقيقة يهزأ بها. لكن مثل ذلك الشىء الشيطانى، الذى هو الحب، لا يثير دهشتى، فقد أثرى موت المحبوب، وعلى نحو غريب، معاشرتنا لبعضنا البعض، مالئا إياها بكل أشكال الغش والخداع التى تتغذى عليها عقول النساء ـ إنها سماد الملذات السرية والغدر والمخاتلة، والتى هى جزء لا يتجزأ من كل علاقة إنسانية .

ومع ذلك، فما الذى أشكو منه؟ لقد ملأ هذا الحب المنقوص قلبى حتى فاض. إنها هى التى لديها سبب للشكوى، إن كان لأحد أن يشكو. من العسير أن يفهم المرء مثل تلك الأشياء. هل كانت تدبر حينئذ هربها من الإسكندرية؟ ويكتب بورسواردن، «إن قوة المرأة تكمن فى أن قبلة واحدة منها يمكن أن تكشف حقيقة حياة الرجل وتقلبها . . ». ولكن، لماذا أستمر فى هذا؟ لقد كنت أجلس سعيداً إلى جوارها وأنا أحس دفء يدها وهى ترقد فى يدى .

كان الليل الأزرق تشوبه النجوم، والصحراء يقظى تمتد بعيداً على الجانبين، بمدرجاتها الهائلة، كحجرات خالية، فى قصر ضخم من الغيوم، فى فلك دوار. طلع القمر، فى تلك الليلة، متأخراً شاحبا. كان الهواء ساكنا، وقد نحتت الرياح كثبان الرمال. قالت حبيبتى: «فيم تفكر؟» .

فيم أفكر؟ أفكر فى مقطع من بروكلوس يقول فيه إن أورفيوس قد تسلط على الجنس «النقى كالفضة»، أى الذين عاشوا حياة «نقية»، كتلك التماثيل التى يضعها بلتازار فوق رف المدفأة تحت نجمة فيثاغورس الخماسية السحرية، تماثيل منظفى الأنابيب، والتماثيل الهندية المنحوتة من الخشب لقردة ثلاث لا ترى ولا تنطق ولا تسمع الإثم. فيم أفكر؟ أفكر فى الجنين فى برنسه الشمعى، فى الجراد المنقض على سنابل القمح، فى عربى يقتبس قولا مأثوراً يجد صداه فى العقل، «إن ذاكرة الرجل قديمة قدم المصائب والبلايا». وفى طيور السمان تنساب، من قفص محطم، إلى الأرض فى نعومة انسياب عسل النحل، دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن الهرب. وفى بازار العطور وقد فاحت منه رائحة البنفسج الفارسى.

قلت فى صوت مرتفع: «منذ أربعة عشر ألف سنة، كانت نجمة النسر الواقع، هى النجم القطبى. انظرى إليها وهى تحترق».

استدارت رأس المعشوقة بعينيها العابستين العميقتين. رأيت فيهما، مرة أخرى، القوارب الطويلة وهى تسحب ليركبها الفراعنة، مياه المد والجزر وهى تتدفق، وتلمع المآذن بالندى، وضوضاء جحا الأعمى الصارخ فى صوت خلد ماء هاجمه ضوء الشمس، وقافلة جمال تسير فى خطى متثاقلة تتجمع فى حفل تحمل فوانيس معتمة. وامرأة مصرية ترتب سريرى، تضرب الوسائد حتى تنفش كبياض بيضة تضربه مخفقة. ومقطع من كتاب بورسواردن يقول: «ونظر كل منهما للآخر وهما يدركان أن ليس لديهما ما يكفى من القوة والشباب ليمنع انفصالهما عن بعضهما البعض». عندما حبلت ميليسا من نسيم، لم يستطع أماريل إجراء عملية الإجهاض التى كان يبتغيها نسيم بشدة

بسبب مرضها وضعف قلبها، وقال: «إنها يمكن أن تموت، على أى حال». وأومأ نسيم فى اقتضاب وتناول معطفه. إلا أنها لم تمت حينئذ، وظلت حبلى بالطفلة.

وجوستين تقتبس مقطعا باليونانية لا أعرفه:

رمال الإسكندرية وزهورها البرية وصخورها البيضاء

وعلامات البحر التى ترشد الملاحين

وكثبان تنثال تصب الرمال

فى الماء والماء فى الرمال

لا فى نبيذ المنفى

الذى لوث الهواء الذى صب فيه

أو صوت يلوث العقل

يغنى بالعربية «سفينة بلا شراع

كامرأة بلا نهدين». هو ذاك فقط

هو ذاك فقط.

سرنا يدا فى يد عبر الكثبان الرملية الناعمة، نجاهد كالحشرات، حتى بلغنا «تابوزيريس» بما فيها من ركام أعمدة محطمة ذات تيجان. فيما بين علامات البحر التى تآكلت بفعل التجوية. (يقول كولريدج[1]. «إن اختزان الإحساس قد يدوم، فى حالة كمون، زمنا غير محدود، بذات الترتيب الذى انطبع به فى النفس»). هذا حق، إلا

---

(١) كولريدج، صموئيل تايلور (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤) شاعر رومانتيكى إنجليزى (المترجم).

أن الترتيب الذى يقوم عليه الخيال ليس هو بذاته الترتيب الذى اختزنته الذاكرة. هبت ريح خفيفة من الأرخبيل الإغريقى وكان البحر ناعما كخد بشرى إلا أطرافه التى كانت تتنهد مضطربة - إن تلك القبلات الدافئة تظل هناك فى مكانها وقد بترت عما سبقها وعما لحقها، تدوم فى موقعها الصحيح أشبه بالشفافية الهشة لنباتات السرخس أو الزهور وقد ضغطت بين غلافى كتاب قديم - متفردة لا تذبل كالذكريات التى تمثلها وتستدعيها: ونغمة موسيقية تنساب من جيتار منسى منذ الكرنفال، تظل أصداؤها فى شوارع الإسكندرية المظلمة، طالما ظل الصمت قابعا.

لم أعد أرى فينا رجالا ونساء، إنهم مجرد أدوات انتفخت بأعمالها المنسية وحماقاتها ومكرها وخداعها - إننى أرى بشرا يشكلون جزءاً من المكان، دون وعى منهم بذلك. لقد دفنوا حتى أوساطهم بين أنقاض مدينة فريدة، وغطسوا فى قيمها، كتلك المخلوقات التى كتب عنها أمبيدوكليس، «أعضاء منفردة تهيم بحثا عن وحدتها ببعضها البعض»، أو كما يكتب فى مكان آخر، «الحلو يقع على الحلو، المر يندفع نحو المر، الحامض يقبل على الحامض. والدافئ يقترن بالدافئ». إنهم كل قاطنى المدينة الذين تقبع أفعالهم خارج نطاق تدابير الروح وتغاضيها: إنهم السكندريون.

استندت جوستين إلى عمود من أعمدة تابوزيريس كان واقعا إلى الأرض، ورأسها الفاحم نحو المياه المعتمة المتنهدة، وخصلة من شعرها تطيرها رياح البحر، وهى تقول: «هنالك جملة واحدة تعنينى، فى كل اللغة الإنجليزية، وتلك كلماتها، «زمن ما قبل الأزل».

كم تبدو تلك الأمسية المنسية نائية وبعيدة وهى تترى عبر شاشات

الذاكرة المتقلبة المتغيرة. كان هنالك الكثير من أيامنا، علينا اجتيازه، حتى يحين الموعد الكبير لصيد البط، والذى دفع فجأة، وفى عجالة، بالتغيير النهائى - واختفاء جوستين نفسها. إلا أن كل ذلك ينتمى إلى إسكندرية أخرى - تلك التى ابتدعها عقلى - والتى جاءت حواشى بلتازار وتعليقاته لتغير كل ما كان مسلما به، إن لم تكن قد دمرته.

ويكتب بلتازار، «إن تداخل الحقائق هو الطريقة الوحيدة كى تكون أمينا مع الزمن: إذ إن الزمن، حاشد فى كل لحظة باحتمالات لا نهائية التكاثر. والحياة تتوقف على فعل الاختيار، أبدية الدينونة، وأبدية الانتقاء».

إننى أرى بعينين جديدتين، من هذا الموقع المتميز لهذه الجزيرة، كل الأشياء فى ثنائيتها، من تداخل الحقيقة بالوهم. تنتابنى الدهشة، وأنا أعيد قراءة الحقيقة وإعادة صياغتها فى ضوء كل ما أعرفه الآن. إن مشاعرى ذاتها قد تبدلت ونمت، بل وعمقت. إذن، ربما كان تدمير إسكندريتى ضروريا. (إن العمل الفنى الأصيل لا يبدى أبدا وجها مستويا). وربما طمرت بذرة الحقيقة ومادتها فرقدت هناك فى باطن كل هذا كحق من حقوق الزمن - وهى إن استطعت أن أتوافق معها، ستقودنى قليلا إلى ما هو حقا بحث عن ذاتى كما يجب أن تكون. ولسوف نرى.

* * *

(١٣)

والد كليا، الذى تبجله، عجوز أشيب، منتصب القامة، فى عينيه إشفاق قلق على ابنته الشابة، الإلهة غير المتزوجة، التى أنجبها. كانا يرقصان معًا، مرة فى العام بمناسبة رأس السنة فى فندق سيسيل، يرقصان فى عظمة وأدب وظرف. كان يرقص الفالس بخطى منتظمة دقيقة كالساعة». كتبت هذه الكلمات، ذات مرة، فى مكان ما. وهى ذاتها تستحضر الآن إلى ذهنى مشهدا آخر، ومتتاليات أخرى من الأحداث.

جاء والدها العالم العجوز ليجلس إلى منضدتى. كان يحس نحوى بضعف خاص. لا أدرى لماذا، لكنه كان يتحدث معى دوما بلطف وتواضع، بينما نجلس معًا نرقب ابنته الجميلة وهى تدور حولنا بين ذراعى واحد من المعجبين بها، رشيقة للغاية أيضًا. «ما زالت تحمل الكثير مما فى طالبة أو فنانة. لقد وقع الليلة بعض النبيذ على دثارها فارتدت معطفا واقيا من المطر فوق رداء السهرة. وأكلت ما وجدته من حلوى الطوفى فى جيب المعطف. إننى لا أدرى ماذا كانت تقول والدتها لو كانت ما تزال حية». شربنا فى هدوء ونحن نرقب الأضواء الملونة وهى ترفرف بين الراقصين. قال: «أحس وكأنى خاطبة عجوز.

أنظر حولى دوما بحثا عن شخص يتزوجها . . إن سعادتها تبدو لى، على نحو ما، أمرا هاما للغاية . إننى أفسد الأمر بفضولى وتدخلى . . ومع ذلك فإننى غير قادر على تركها بمفردها . . لقد دبرت بائنتها على مر السنين . . والنقود تحرق جيبى . . فعندما أرى شابا إنجليزيا مثلك، تدفعنى غريزتى لأقول : (خذها، بحق السماء، واعتن بها) . . لقد كانت تربيتها يتيمة دون أم ترعاها متعة مُرة . إه؟ لا يوجد أحمق يضاهى العجوز الأحمق» . ثم يسير متوترا إلى البار وهو يبتسم .

فى تلك الأمسية جاءت كليا لتجلس إلى جوارى فى الخلوة التى كنت أجلس فيها، تروح لنفسها وتبتسم . «لم يتبق على منتصف الليل غير ربع ساعة . ياالسندريلا المسكينة، علىّ أن آخذ والدى إلى المنزل قبل أن تدق الساعة وإلا افتقد روعة موعد نومه» .

تحدثنا، حينذاك، عن عمار الذى كانت محاكمته بتهمة قتل برونيل قد انتهت، فيما بعد ظهر ذلك اليوم، ببراءته لعدم كفاية الأدلة .

قالت كليا فى نعومة : «أعرف ذلك، وأنا سعيدة لهذا الحكم الذى أنقذنى من أزمة ضمير(*) . فأنا أعرف أنه لم يفعلها . لماذا؟ لأننى يا عزيزى أعرف من فعلها . ولماذا . . » . ضيقت عينيها الرائعتين واستمرت، «إنها واحدة من قصص الإسكندرية - هل أخبرك بها؟ شريطة أن تحتفظ بها سرا . هل تعدنى بذلك؟ اقبرها مع السنة التى أدبرت - مع كل بلايانا ونزواتنا، التى لا بد وأنك أتخمت بها، أليس كذلك؟ حسنا . استمع . كنت أرقد فى فراشى، ليلة الكرنفال أفكر فى صورة - صورة جوستين الكبيرة . كان بها خطأ فنى لم أستطع أن أحدد كنهه، وإن كنت أشك فى اليدين - هاتين اليدين السمراوين الجميلتين .

(*) بالفرنسية فى الأصل .

كنت قد رسمتهما فى موضعهما بأمانة تامة. لكن شيئًا ما كان غير متسق فى التكوين الفنى، مما أثار قلقى حينذاك. كان ذلك بعد شهور من انتهاء رسم اللوحة، دون أن أدرى لذلك سببا. وفجأة قلت لنفسى: «هاتان اليدان فى حاجة إلى إنعام النظر فيهما». أحضرت اللوحة من المرسم إلى حجرتى، حيث أسندتها إلى الحائط، إلا أننى لم أتوصل، حقا، إلى بغيتى. فأمضيت الليلة أدخن، وأرسم ليديها رسوما تخطيطية من الذاكرة، فى مواضع مختلفة. فكرت أن السبب ربما يعود إلى ذلك الخاتم البيزنطى الذى تلبسه. إلا أن كل ما فكرت فيه كان عبثا حتى اقترب منتصف الليل فكففت، واستلقيت على الفراش أدخن وقد رقدت قطتى عند قدمى.

«كانت تمر فى الشارع، من حين لآخر، مجموعات من الناس، تغنى أو تضحك، إلا أن المدينة كانت تخلو بالتدريج. فقد بات الوقت متأخرًا.

«فجأة سمعت، فى قلب هذا الصمت، وقع أقدام تجرى بكل سرعتها. لم أسمع أبدا ما يجرى بمثل هذه السرعة أو الخفة. كنت أفكر، وأنا أسمع، أن مشاعر الخطر والرعب والكرب هى وحدها القادرة على أن تمنح أى امرئ مثل هذه السرعة المندفعة المجنونة. جاء وقع الأقدام بهذه السرعة الخطرة المهلكة من شارع فؤاد، ثم استدار عند الناصية إلى شارع سانت سابا، وقد أخذ، مع الوقت، يزداد ارتفاعا. عبرت الأقدام الشارع ثم توقفت، ثم عادت تعبره عودة إلى الجانب الذى فيه منزلى. وعلا رنين الجرس بصورة وحشية.

«جلست وأنا أحس المفاجأة بعض الشىء. ثم أضأت النور لأنظر الوقت فى ساعتى. من ذا الذى يأتينى فى مثل ذلك الوقت؟ عاد

الرنين، وأنا جالسة، مترددا في ضغطتين طويلتين. حسنا! كانت وصلة الباب الأمامي الكهربية مقطوعة، كدأبها عند منتصف الليل، لذا لم يكن هنالك مفر من نزولي إلى أسفل ورؤية من الطارق. فارتديت لباسا منزليا ووضعت المسدس في جيبي وهبطت السلم لأرى. كان هنالك خيال فوق زجاج الباب الأمامي الذي كان سميكا فلا يبين من ورائه أحد. لذا كان عليّ أن أفتحه، وقد وقفت إلى الخلف قليلا، وقلت: «من هناك؟».

«وقف رجل بالباب، يبدو معلقا في ركنه كالوطواط. كان يلهث، إذ كنت أرى صدره صاعدا هابطا، لكن صوتا لم يصدر عنه. كان يرتدي الدومينو وقد أزيح غطاء رأسه إلى الخلف فاستطعت أن أرى وجهه في ضوء مصباح الشارع. خفتُ، بالطبع، للحظة، بدا وكأنه يوشك على الإغماء. مضت عشر دقائق حتى استطعت أن أحدد اسما لهذا الوجه القبيح بشفته الضخمة القاسية المشقوقة، غمرني شعور بالارتياح، وأحسست بإبر ودبابيس توخز قدمي. هل تعرف من كان؟ كان شعره ملبدا بالعرق، بدت عيناه في هذا الضوء الشاحب كبيرة للغاية - زرقاء وطفولية. عرفت فيه شقيق نسيم غريب الأطوار - ذلك الذي لم يره أحد - ناروز الحوسناني. كان التعرف عليه لمحة بارعة من ذاكرتي. إنني أتذكره فقط بطريقة ضبابية عندما أخذني نسيم إلى أراضي الحوسناني لأركب الخيل. ولك أن تتصور جزعي عندما رأيته هكذا، دون توقع، في منتصف الليل.

«لم أدر ماذا أقول. كان يحاول من جانبه أن ينطق شيئًا، إلا أن الكلمات لم تطاوعه. بدا كأنه لا يمتلك غير جملتين انحشرتا في مقدمة عقلة كخرطوشتين في ماسورة بندقية تسد كل منهما الطريق أمام

الأخرى. مال إلى الداخل نحوى متخاذلا شاحبا شحوب الموتى وقد تدلت ذراعاه إلى أسفل، إلى تحت ركبتيه تقريبًا، مما جعله أقرب إلى خيال أسود لقرد من القردة، يتحدث بنقيق كالضفدع. لا يجب أن تضحك، فقد كان مثيراً للرعب والهلع. ثم سحب نفسا عميقا، ضاغطا عضلاته حتى تطاوعه. قال فى صوت خافت كصوت الأراجوز، «لقد جئت أخبرك بحبى لك، لأننى قتلت جوستين». شككت للخطة أنه يمزح سألته وأنا أتلعثم، «ماذا؟» وكرر ما قال فى صوت أكثر خوفا، فى همس، بطريقة آلية كطفل يعيد درسا. «لقد جئت لأخبرك بحبى لك، لأننى، قتلت جوستين». ثم أضاف فى صوت عميق، «أوه يا كليا، لو تعرفين مقدار كربى». ثم نهنه باكيا وقد سقط إلى ركبتيه جاثيا فى البهو، ممسكا بذيل ردائى المنزلى، محنى الرأس وقد سالت دموعه من أنفه.

«لم أدر ماذا أفعل، أحسست بالرعب والاشمئزاز، ومع ذلك لم أستطع منع نفسى من الشعور بالأسف والأسى. كانت تصدر عنه ما بين الفينة والفينة صرخة خشنة، أشبه بالضجة الصادرة عن ناقة صارخة أو لعبة آلية مخيفة. لم تكن تماثل أى شىء رأيته أو سمعته من قبل أو من بعد. وانتقلت رجفته إلى عبر طرف ثوبى الذى كان يمسك به بين أصبعين من أصابعه.

«قلت له أخيرًا، «انهض». فرفع رأسه وهو ينق كالضفدع، «أقسم إنى لم أقصد قتلها. لقد وقع ما وقع قبل أن أفكر فى الأمر. لقد وضعت يدها علىّ يا كليا عرضت نفسها علىّ يا للبشاعة. زوجة نسيم».

«لم أدر ما الحقيقة فى كل هذا الذى قال: هل أصاب جوستين بالأذى؟. قلت له: «اتبعنى إلى أعلى، إلى شقتى». وقبضتى تزداد

تشدداً على مسدسى الصغير. فقد كانت تعبيراته تثير الخوف. «انهض الآن». قام للحال مطيعا. تبعنى إلى أعلى، إلا أنه كان يستند بثقل إلى الحائط، يهمس لنفسه بأشياء لا رابط بينها. كانت، كما أعتقد، اسم جوستين، وإن بدت لسمعى أقرب إلى جوستيس).

قلت له: «ادخل ريثما استخدم الهاتف». فتبعنى فى بطء. وقد أصاب الضوء عينيه فكاد يعميه. توقف لحظة إلى جوار الباب حتى يعتاده، وهنا رأى اللوحة، فصرخ فى قوة هائلة، «هذه الثعلبة اليهودية نخرت حياتى»، وأخذ يضرب فخذيه بقبضته مرات عدة. ثم وضع راحتيه على وجهه وتنفس بعمق. ظللنا هكذا وجهًا لوجه، بينما كنت أفكر، ماذا علىّ أن أفعل. كنت أعرف أن الجميع قد ذهب إلى الحفل الراقص الذى يقيمه آل سيرفونى. وكان علىّ أن أتصل بهم لأكتشف إن كان هنالك أى قدر من الحقيقة فى كل هذه القصة.

«فى تلك الأثناء فتح ناروز أصابعه وأخذ يرمقنى بنظرات مختلسة، وقال: «جئت فقط لأخبرك بحبى لك قبل أن أسلم نفسى إلى أخى». ثم فرد أصابعه فى حركة يائسة وقال: «هذا كل ما فى الأمر». «ما أقسى الحب وما أشد إثارته للقرف والاشمئزاز! ها ذى أنا محبوبة من مخلوق منذ زمن لا يعلم مداه إلا الله - وأنا لا أستطيع القول إنه إنسان - مخلوق لم أحس أبدًا بمجرد وجوده. كان كل نفس من أنفاسى، دون وعى منى، مصدر عذاب له لم أشعر به أبدًا. كيف وقعت تلك المصيبة؟ يجب أن يكون هنالك مكان فى أفكارك لمثل تلك المشاعر المتنوعة والتى تصدر عن الحيوان. كنت غاضبة مشمئزة وجريحة فى ذات الوقت. أحسست أنى مدينة له بالاعتذار، كما أحسست أيضًا بالمهانة لهذا التطفل بحب لم أسأله أن يطوقنى به.

«بدا ناروز وكأنه محموم للغاية. اصطكت أسنانه. أخذ ينتفض فى نوبات عنيفة. قدمت له كأسا من الكونياك، فجرعة دفعة واحدة. قدمت له كأسا آخر، أكبر من الأول، فأخذ يشربه فى بطء. وهو يغطس إلى السجادة متربعا كما يجلس العرب. همس قائلاً: «أخيرًا، أحس بالتحسن». ثم أضاف وهو ينظر فى حزن حوله، «هذا إذن المكان الذى تعيشين فيه. كم تمنيت أن أراه منذ أعوام. كنت أرسم له دوما صورة فى مخيلتى». ثم عبس وسعل وسوى شعره إلى الخلف بأصابعه.

«اتصلت هاتفيا ببيت آل سيرفونى. استطعت أن أتحدث، على الفور، مع نسيم. سألته فى لباقة دون أن أفصح عن أى شىء. إلا أنه لم يكن هنالك ما يخيف، بقدر ما استطعت أن أحكم من المكالمة، رغم أنه لم يستطع أن يحدد، فى تلك اللحظة، مكان جوستين. كانت هنالك فى مكان ما فى قاعة الرقص. واستمع ناروز إلى كل هذا، محملقا فى دهشة، لا يكاد يصدق ما يسمع. قلت له: «إنها على موعد معهم، فى البهو، بعد عشر دقائق. أكمل شرابك وانتظر حتى تتصل بنا جوستين، وحينئذ سوف تعرف أن خطأ ما قد حدث». أغلق عينيه وبدا كأنما يصلى.

«جلست على الأريكة أمامه، لا أدرى بالضبط ماذا أقول. سألته: «ماذا حدث بالضبط». فجأة ضاقت عيناه حتى صغرتا، وكست الريبة ملامحه. تنهد وقد تدلت رأسه. أخذ يتابع نقوش السجادة بأصبعه. همس بشفتين مرتعشتين، «إننى لا أود لك أن تسمعى ما حدث».

«ظللنا هكذا، وفجأة أثار ضيقى واشمئزازى العميقين، إذ بدأ

يتحدث عن حبه لى وإن كانت لهجته كمن يحدث نفسه. بدا كأنما قد نسى وجودى، فلم ينظر أبدًا فى وجهى. أحسست بالرعب الذى ينتابنى، بضرورة أن أعتذر، كلما أعجب بى أو رغبنى أحد وعجزت عن أن أبادله مشاعره. كنت خجلة أيضًا، على نحو ما، وأنا أنظر إلى ذلك الوجه الوحشى الذى لطخته الدموع. كان ذلك، فى بساطة، لأننى لم أكن أحس نحوه بأدنى مشاعر الإثارة أو التعاطف. جلس هنالك، فوق السجادة، كضفدع بنى ضخم، كساكن الكهوف، فى رواية ما. ماذا كان علىّ أن أفعل بحق الشيطان؟ وسألته: «متى رأيتنى من قبل؟». لم يكن قد رآنى من قبل غير مرات ثلاث، رغم أنه كثيرًا ما كان يمر بالليل فى الشارع ليرى إن كان مسكنى ما يزال مضاءً. وأخذت ألعن نفسى. كل هذا كان ظلما وإجحافا، فأنا لم أكن قد فعلت شيئًا أستحق عليه هذه العاطفة المشبوبة.

«أخيرًا جاء الإنقاذ، فقد رن الهاتف. وانتفض هو من رأسه إلى أخمص قدمه، ككلب صيد، عندما سمع بحة الصوت التى لا تخطئها الأذن، صوت المرأة التى اعتقد أنه قتلها. قالت إنه لم يبلغ مسامعها ما يثير الكدر: إنها ونسيم فى طريقهما للعودة، الآن، إلى المنزل. وأن كل شىء يسير كما يجب فى بيت آل سيرفونى. وأن الحفلة الراقصة قائمة على قدم وساق. وعندما قلت لها، طبت مساءً، أحسست بناروز يقبض على خفى ويقبله ممتنا. وأخذ يكرر مرة بعد الأخرى، «شكرًا لك، شكرًا لك».

قلت له: «هيا انهض، فقد حان وقت عودتك إلى دارك». كنت متعبة غاية التعب. فنصحته بأن يعود مباشرة إلى منزله دون البوح بقصته لأى امرئ كان، قلت له: «ربما تخيلت القصة كلها». فابتسم ابتسامة مرهقة وإن كانت متألقة.

«سار أمامى بطيئًا متثاقلا يهبط السلم، وهو ما يزال، كما كان واضحًا، متأثرًا بالتجربة التى مر بها، وإن كانت الهيستيريا قد فارقته. فتحت الباب الأمامى للمنزل، حاول هو، مرة أخرى التعبير عن امتنانه وعواطفه بطريقة مفككة - أمسك بيدىّ وأخذ يقبلهما، مرارًا وتكرارًا، قبلات عنيفة مبللة يكسوها الشعر. أف! ما أزال أحس بها حتى الآن. ثم قال قبل أن يبتلعه الظلام، فى صوت خفيض وهو يبتسم، «كليا، هذا أسعد يوم فى حياتى، فقد رأيتك وحجرتك الصغيرة ولمستك».

رشفت كليا شرابها وهى تومئ برأسها وابتسامة حزينة تغطى وجهها. قالت: «أف! . يا لهذه القبلات». وأخذت تمسح يديها بطريقة لا إرادية، وقد اتجه باطن كفيها إلى أعلى وقد وضعتهما على النسيج الأحمر لمتكأ المقعد، كأنها تحاول إزالة أثر تلك القبلات مرة وإلى الأبد، تحاول أن تمحو ذكراها.

أخذت الفرقة الموسيقية فى عزف رقصة بول جونس (ولعلها هى نفس الرقصة التى التقت فيها جوستين بأرناؤوطى لأول مرة). بدأت الوجوه الدافئة المضيئة تنتشر، مرة أخرى، فى القاعة خارجة من قلب الظلام. تألقت الأجساد والثياب والجواهر فى بهو الرقص الواسع الشاحب، حيث تعكس أشجار النخيل صورها كشظايا فى المرايا المرتجفة. أخذت كل تلك الأشياء تتسرب عبر النوافذ إلى حيث ضياء القمر يقبع صابرا فى الحدائق العامة المهجورة والطرق الرئيسية، ويثير كدر مياه الميناء الخارجى بإيماءاته الفاترة المتلألئة. قالت كليا: «هيا، لماذا لا تشارك فى مثل تلك الأمور؟ لماذا تفضل الجلوس جانبا، تتفحصنا جميعًا».

لكننى كنت أفكر وأنا أراقب دائرة الوجوه الجميلة البهية وهى تتحرك إلى الأمام وإلى الخلف وسط تألق الجواهر وحفيف الحرائر،

أفكر فى السكندريين الذين لا يعنى بالنسبة لهم مثل ذلك التنوع الهائل فى الخبرة، إلا مجرد إضافة إلى مجمل معرفتهم اللانهائية المقترنة بهموم دنياهم. درنا، ودرنا حول حلبة الرقص، النساء يتبعن، دون وعى منهن، حركة النجوم وحركة الأرض وهى تسبح مائلة فى الفضاء. فجأة حل الصمت، كإعلان حرب. أو انطلاق وليد من رحم. صاح صوت: «فليأخذ كل منكم رفيقة رقصته، لو سمحتم». اختلجت الأضواء فى لون أرجوانى، وبدأت رقصة الفالس. لمحت للحظة، نسيم وجوستين يرقصان، عن بعد، معًا، وعيناهما تتبادلان الابتسامات، ويدها الرشيقة فوق كتفه وهى ما تزال تلبس ذلك الخاتم الكبير الذى أخذ من قبر شاب بيزنطى، فالحياة قصيرة، لكن الفن مديد.

كان والد كليا يراقصها منتصب القامة سعيداً، دقيقًا، منتظمًا، يقبل اليد الموهوبة التى سقطت عليها قبلات ناروز المنبوذة فى تلك الليلة المنسية. إن الابنة أقرب إلى قلب أبيها من زوجته.

ويكتب بورسواردن: «فى البداية نسعى كى نملأ بالحب فراغ ذواتنا ونستمتع لحظة قصيرة بوهم الكمال. لكن ذلك ليس إلا وهما. حيث إن هذا المخلوق الغريب الذى اعتقدنا أنه سيصلنا بجسد العالم، قد نجح فى النهاية، فى فصلنا عنه فصلا تاما. الحب يصل ثم يفرق وإلا فكيف لنا أن ننمو؟».

هل هنالك، حقًا، بديل؟ أحسست بالراحة أن وجدت نفسى بمفردى مرة أخرى، فتلمست طريقى عائدًا إلى ركنى المظلم حيث مقاعد الطرب والعربدة خالية، كسنابل قمح خاوية.

* * *

(١٤)

تسلمت من كليا خطابا فى أوائل الصيف يحسن أن اختتم به هذه الذكريات الوجيزة عن الإسكندرية . لم أكن أتوقع هذه الرسالة .

طشقند - سوريا

«وصلنى خطابك الذى لم أكن أتوقعه أبدا، بعد صمت خشيت أن يطول مدى الحياة . لقد تبعنى خطابك من إيران إلى هذا المنزل الصغير الذى حط عاليا فوق منحدر تل تحوطه أشجار الأرز والصنوبر . لقد استأجرته لشهور قليلة لأجرب يدى وفرشاتى وهى تعمل فى رسم هذه الجبال الغريبة ، الصخور هنا تنفجر بالمياه العذبة وورود البحر المتوسط . القمرى يهدل بالنهار والعندليب يشدو بالليل ، حيث الراحة بعد العناء . كم مضى على فراقنا؟ آه يا صديقى العزيز . لماذا انتابتنى قشعريرة وأنا أفتح مظروف الخطاب لماذا؟ لقد خشيت أن يشدنى ما ستقوله من شعرى إلى الوراء ، إلى الأماكن والمشاهد القديمة والتى طال هجرانها ، المحطات والمواضع التى تنتمى إلى كليا السكندرية التى عرفتها أنت ، والتى لم تعد تنتمى بالتمام ، لى ، على أى حال من الأحوال ، لقد تغيرت - وامرأة جديدة ، فنانة بالقطع ، أخذت تنبثق منى ، وإن كانت ما تزال رقيقة حيية ، بعض الشىء ، كقرنى قوقع - إلا

أنها جديدة، على أي حال. إن عالما كاملا جديداً من الخبرة والتجربة، يقف بيننا. كيف يمكن لك أن تتعرف على كل هذا؟ ربما وأنت تكتب لى الآن، تكتب إلى كليا القديمة. ولكن ما الذى لدى أنا لأقوله رداً على كلماتك؟ لقد توقفت عن قراءة خطابك حتى حل المساء. لقد مسنى مسا شديداً، ولذا وجب علىّ أن أرد عليك: وإليك خطابى الذى كتبته فى أوقات غريبة بين فترات الرسم أو فى الليل عندما أشعل الموقد وأعد عشائى. يطيب لى اليوم أن أبدأ الكتابة والسماء ممطرة - وسفح الجبل غارق فى سكون الأمطار وخرير الينابيع الزاخرة، والأشجار تموج بالقواقع العملاقة.

«لقد أثار بلتازار، إذن قلقك بمعلوماته الجديدة المزعجة؟ إننى لست على يقين من موافقتى على ذلك. ربما كان ذلك مفيداً لك، لكنه ليس، بالقطع، مفيدا لكتابك أو كتبك التى يجب، كما أعتقد، أن تضعنا جميعا فيها، فى وضع خاص بالنسبة للحقيقة. أقصد كشخوص فى رواية أكثر منا بشرا. ألا ترى ذلك؟ أنت تسألنى، لماذا لم أخبرك بعشر الأشياء التى تعرفها الآن؟ إن المرء لا يفعل ذلك أبداً، وأنت تعرف أن المرء لا يفعل ذلك أبداً. إن المرء الشاهد الواقف عند مسافة متساوية من صديقين أو عاشقين، تدفعه الصداقة إلى التوسط أو التدخل - إلا أنه لا يفعل ذلك أبدا. وهذا عين الصواب. كيف كان فى وسعى أن أخبرك بما أعرفه عن جوستين - أو ما شعرت به من إهمالك لميليسا؟ لقد حال بينى وبين ذلك ما كنت أحسه من تعاطف واسع نحو ثلاثتكم. أما الحب فهو كائن شديد التناقض، يرضيه غاية الرضا أن لا يتبدل كثيراً، إن تدخلت الحقائق من خارجه إننى لعلى يقين، لو حللت مشاعرك، لوجدت أنك تحب جوستين أكثر لأنها خانتك! العاهرة، كما أخبرتك

ذات يوم، هى حبيبة الرجل الحقيقية. لقد ولدنا لنحب هؤلاء الذين يصيبوننا بالجراح أكثر من غيرهم. هل أنا مخطئة فى ذلك بالإضافة إلى أن مشاعرى نحوك كانت كامنة هناك فى ركن آخر. كنت أغار منك ككاتب، وككاتب أيضًا كنت أبتغيك لنفسى وأحتفظ بك. هل ترى ما أعنى؟

«ليس لدىّ ما أقدمه عونا لك - أعنى عونا لكتابك، وعليك أن تتجاهل ما أمدك به بلتازار من معلومات بطريقة شريرة، أو أن «تعيد صياغة الحقيقة» كما فعلت.

«تقول إنك لم تكن منصفا مع بورسواردن، وهذا حق. إلا أنه ليس هاما، فهو لم يكن، بالمثل، منصفا معك. لقد التقت أيديكما ككاتبين، عندى، لم يكن أيا منكما يدرى بذلك. إن أسفى الوحيد أنه لم يعمل على إنهاء المجلد الأخير من كتابه «الإله المرح»، كما كان مخططا له. إنها خسارة - رغم أنها لا تقلل من قدر إنجازه، وأظن أنك ستبلغ قريبا نفس الدرجة التى كان عليها فى امتلاك ذاته - ربما من خلال مدينتنا الملعونة، الإسكندرية، والتى ننتمى إليها أشد الانتماء، فى ذات الوقت الذى نكرهها فيه أشد الكراهية. وبهذه المناسبة تسلمت خطابا من بورسواردن حول المجلد المفقود والذى حملته معى لدهور بين أوراقى كتعويذة أو تميمة. إنه لا يعاوننى فقط على إنعاش ذكرى الرجل ذاته، بل هو ينعشنى أيضًا عندما يصيبنى الإحباط بسبب عملى الفنى (يجب أن أذهب الآن إلى القرية لأشترى بيضا. سوف أقوم الليلة بنسخ هذا الخطاب إليك).

«أخيرًا، ها هو الخطاب الذى حدثتك عنه. إنه فظ وعابس إن شئت القول، إلا أن رغم كل شىء يعبر تعبيرًا صادقا عن صديقنا. لا تأخذ

ملاحظاته عنك مأخذ الجد، فقد كان معجبا بك، مؤمنا بك ـ لقد أخبرنى بهذا ذات مرة، وربما كان يكذب، على أى حال.

ماونت فولتور أوتيل[1]

الإسكندرية

عزيزتى كليا:

كان عثورى على خطابك، فى انتظارى، مفاجأة لى ومدعاة لسرورى. شكرًا لك أيتها القارئة المتأنية ـ لا للتقريع أو المديح (فالمرء ينكمش، بنفس القدر، أمام كليهما). ولكن لأنك هناك تكرسين ذاتك وتراقبين. أنت قارئة حقيقية لما بين السطور، حيث توجد كل الكتابات المعنية. لقد حضرت لتوى، ساخن الخطى، من مقهى الأقطار، بعد أن استمعت إلى نقاش طويل شارك فيه الرجل العجوز «محدد الملامح» وكيتس وبومبال. لقد تحدثوا وكأن كل رواية ليس لها مذاقها الخاص. كان حديث بومبال حديثا فارغا بلا معنى، حيث تناول «النساء» بطريقة معممة، وكأنهن جنس ما، باعتبار أن العلاقات العائلية، رغم كل شىء، ليست هى المسألة التى تهم حقيقة. حسنا. قال العجوز «محدد الملامح»: إن الخلاص والخطيئة الفطرية هما الموضوعان الجديدان لكتاب اليوم.. أف! لقد وليت الأدبار وأنا أحس أننى كاتب اليوم السابق على الأمس، ولست كاتب اليوم، كما كنت عازفا عن المشاركة فى هذا الخلطة الموحلة.

«إننى لعلى يقين أن العجوز «محدد الملامح» سوف يكتب رواية طريفة حول الخطيئة الفطرية، ويحقق ما كنت أسميه دوما، وعلى نحو

---

(١) فندق جبل النسور (المترجم).

شخصى، بامتصاص ـ بيض التقدير والإعجاب (أى عدم القدرة على تحقيق النجاح والفلاح). لقد كنت، حقيقة، فى حالة من اليأس الشديد عندما خطرت ببالى فكرة شهرته القادمة، حتى إنى فكرت فى ضرورة التوجه مباشرة إلى إحدى المواخير حتى أكفر عن شعورى بالخطيئة المتعمدة، إلا أن الوقت كان مبكرًا، كما كنت أحس بأنى أفوح عرقا، حيث كان اليوم حارا. لذا عدت إلى الفندق حتى آخذ دشا واستبدل قميصى، وهنا عثرت على خطابك. كانت هنالك بقية من شراب الجن فى الزجاجة. وحيث لم أكن أعرف أين سأكون فيما بعد، فقد فكرت فى الجلوس مباشرة والكتابة إليك بأفضل ما أستطيع حتى تحين السادسة، ساعة أن تفتح المواخير.

«إن الأسئلة التى توجهت بها إلىّ يا عزيزتى كليا، هى نفس الأسئلة التى أوجهها أنا إلى نفسى، يجب أن أجعلها أكثر وضوحا قبل أن أبدأ فى إعداد الكتاب الأخير، الذى أود، قبل كل شىء، أن أربط فيه وأفسر وأنسق بين كل ما ظهر أو ابتدع من حالات الشد والجذب. إننى أحس برغبتى فى أن يكون لما أكتب صدى التأكد واليقين ـ وإن كنت لا أعنى أن يكون ذلك عن طريق مصطلحات فلسفية أو دينية معينة. يجب أن يكون ذلك فى المنحى الذى تحتويه الكتابة وتعبر عنه سلوكيات المحبين الصامتة. يجب أن أنقل للقارئ إحساسا بأن العالم الذى نعيش فيه، إنما يقوم على شىء أبسط من أن يوصف بأنه قانون كونى. إنه يقوم على الإدراك والفهم البسيط، تصرف يتسم بالرقة، الرقة البسيطة التى تتجسد فى العلاقات البدائية بين الحيوان والنبات، بين المطر والتربة، بين البذور والأشجار، بين الإنسان والله. علاقة رقيقة، حتى إنها تتحطم ببساطة شديدة بفعل عقل يبحث ويستقصى، كذا بفعل الضمير بالمعنى الفرنسى، والذى له، بالطبع، حقوقه الخاصة ومجاله

الخاص للانتشار والامتداد. إننى أحب التفكير فى عملى وكأنه، فى بساطة، مهد طفل تهدهد فيه الفلسفة نفسها لتنام وإبهامها فى فمها. ما رأيك فى هذا؟ إن ذلك، على أى حال، ليس أقصى ما نحتاجه فى هذا العالم، لكنه يصف، فى الحقيقة، حالة الأوضاع المجردة التى تجرى فى العالم. الزمى الصمت برهة ولسوف تشعرين باستيعاب هذه البادرة من الرقة والحنان ـ لا القوة والصولجان، ولا بالرحمة قطعا ويقينا، فتلك الصفة نابعة من سوقية العقل اليهودى الذى لا يستطيع أن يتخيل الإنسان إلا قابعا تحت السياط. كلا، إن الرقة التى أعنيها رقة خالية من الرحمة تماما! إنها «قانون قائم بذاته»، كما نقول. بالطبع، يجب أن يتذكر المرء، دوما، أن الحقيقة ذاتها تنشطر إلى اثنين عند تداولها ومع ذلك يجب أن أصر فى كتابى الأخير على أن هنالك أمل فى الإنسان. هنالك مجال واسع أمام الإنسان، فى حدود قانون بسيط. إننى، كما أعتقد، أرى الجنس البشرى يفرز لنفسه، بالتدريج، المعرفة الضرورية، من خلال مجرد الانتباه والالتفات لما حوله، وليس عن طريق الذهن والعقل، مما قد يمكنه يوما من الحياة فى إطار فكرة تحوى المعنى الحقيقى «للبهجة التى لا تحدها حدود». وكيف يمكن للبهجة أن تكون أى شىء آخر؟ إن هذا الكائن الجديد الذى نبحث عنه لن يحيا، طويلا مثل الزمن، لكنه إلى زوال. اللعنة. إنه لصعب على المرء أن يقول مثل تلك الأشياء، ربما يكمن مفتاح تلك المسألة فى الضحك، فى «الإله المرح؟» ومع ذلك، فإن الذين لا يحبون الفكاهة هم الذين يعكرون صفو سلام القلب بأعمالهم التى تثير السخرية ـ مثل جوستين (انتظرى. يجب أن أعد لنفسى كأسا من الجن).

«إننى أعتقد، أنه من الأفضل لنا أن ندير ظهورنا بوضوح للكلمات الرنانة مثل «الجمال» و«الحقيقة» وما إلى ذلك. هل ترين ما أرى؟ إننا

سخفاء للغاية، وضعاف العقول عندما نتناول أمور الحياة، لكننا عمالقة عندما نحكم على الكون. إننى أعانى مثلك من مشكلتين متداخلتين: إنهما فنى وحياتى. إننى أعيش الآن حياتى متدنيا حائرا، إلى حد ما. لكننى أمارس، فى فنى، حريتى كى أكون الشخص الذى أود أن أكونه تماما ـ إنسانا يمكن أن يبعث بالعزم والتوافق فى النفوس التى تموت من حوله. إننى بفنى حقيقة، ومن خلال هذا الفن أبغى أن أحقق ذاتى، وأطرح عن نفسى العمل الذى لا أهمية له، كما تطرح الحية جلدها عن نفسها. ربما كان ذلك هو السبب الذى من أجله يود الفنانون، من أعماقهم، أن يكونوا محبوبين لأعمالهم أكثر من أن يكونوا محبوبين لذواتهم ـ هل ترين ما أرى؟! إلا أن هذا يقتضى طرازاً جديداً من المرأة أيضاً. أين هى؟

«تلك، يا عزيزتى كليا، هى بعض مما يثيره صديقك العالم بكل شىء، بكل إرباك وتشويش. صديقك ذو الرأس الكلاسيكية والقلب الرومانسى: لودفيج بورسواردن».

«أف! لقد تأخر الوقت، وأوشك زيت المصباح على النضوب ـ لا بد لى أن أتوقف عن كتابة الخطاب هذا المساء. ربما باكرا، إن غدوت فى مزاج أفضل، بعد أن أتسوق ما أحتاج إليه، أكتب لك المزيد. وإن لم أكن كذلك فلن أكتب، ألم يكن من الأفضل، أيها الممتلئ حكمة، أن نتبادل الحديث؟ إننى أحس أن أحاديث كاملة مكدسة فى أعماقى، تقبع هناك دون أن يستخدمها أحد! أظن أن تلك هى الحقيقة الوحيدة التى ربما يعى المرء افتقادها وهو يعيش وحيداً، قوة الوساطة التى تحملها أفكار صديق من الأصدقاء، عندما توضع إلى جانب أفكار المرء الخاصة ليرى مدى توافقهما! إن من يعيش وحيداً يغدو مستبداً بطبعه، يطلق

أحكامه المطلقة فى كل ما يخص طبائع الأمور، وربما كان هذا ضاراً بالعمل الذى ينجزه. لكننا، هنا، صنوان، على الأقل متماثلان، أنت فى جزيرتك - التى هى مجرد نوع من الاستعارة أشبه بفرن ديكارت، أليس كذلك؟ وأنا فى كوخى، الأشبه بأكواخ قصص الجان بين الجبال.

«لقد ظهر فى الأسبوع الماضى رجل بين الأشجار. هو رسام أيضًا. أخذ قلبى يدق سريعًا بطريقة غير عادية. أحسست باستعداد مفاجئ للوقوع فى الحب. عندما أعملت عقلى فيما أحسست، افترضت، «أنه إذا أوغل امرؤ بعيداً عن العالم. ثم وجد إنسانًا آخر فى المكان الذى بلغه، أفلا يكون هذا الإنسان هو الذى قدر له أن يشاركه خلوته وعزلته، وأنه قد استدعى إلى هذا المكان بعينه بالقوة غير المرئية لشوق إنكار الذات وحنينه ليكون النصيب المحدد المخصص لهذا الإنسان؟». إن القلب يقدم على حيل، هى أوهام ذاتية خطرة، تعذبها دوما رغبة المرء فى أن يكون محبوبا! لقد ادعى بلتازار، ذات مرة، أنه فى وسعه أن يغرى اثنين بالحب، بإجراء تجربة محكومة، عن طريق فعل يتسم بالبساطة: إنه سيخبر كل من هذين الاثنين اللذين لم يلتقيا أبدًا، أن الآخر يتحرق شوقا إلى لقياه، وهو لم ير فى حياته من هو أشد منه جاذبية، وهكذا. إن هذه كما يدعى وسيلة مؤكدة لوقوع كل منهما فى حب الآخر. وهى دوما تحقق الغرض. ماذا ترى فى ذلك؟

«أنقذتنى هواجسى، على أى حال، من الشاب الرسام الذى كان، كما أقر وأعترف، وسيما، ذكيا للغاية. كان فى وسعه أن يقدم لى معروفا كعاشق، ربما مدة صيف واحد. إلا أننى عندما رأيت رسومه، أحسست بروحى تتقوى وتنقلب وتعود إلى انفصالها مرة أخرى. لقد تعرفت من خلالها على شخصيته كاملة. قرأتها كما يقرأ المرء مخطوطا

أو سمات وجه ما. رأيت وهن القلب وافتقار العواطف، وقدرة على إيقاع الضر والأذى. لذا قلت للحال، وداعا. وظل الشاب المسكين يكرر متسائلا: «هل أتيت ما أساء إليك؟ هل قلت ما ضايقك؟» بماذا كان في وسعي أن أجيب - إذ لم يكن هنالك ما يستطيع فعله غير إخراج الإساءة إلى حيز الوجود، أن يرسمها. إلا أن ذلك كان يقتضي منه أن يعي وجودها هي بذاتها في أعماقه هو بذاته.

«عدت إلى كوخي. أغلقت عليّ بابه وأنا أحس براحة حقيقية. جاء، عندما انتصف الليل، إلى الباب يدقه، إلا أنني صرخت فيه: «اذهب بعيدًا». فامتثل وعاد من حيث أتى. وقد رأيته هذا الصباح يغادر في سيارة الركاب، إلا أنني لم أفعل شيئًا، ولم ألوح له بيدي وداعا. ووجدت نفسي أصفر سعيدة. كلا، كنت أكاد أرقص وأنا أسير، عبر الغابة، إلى المدينة لأشتري حاجياتي. كم هو رائع أن يتغلب المرء على خداع قلبه وغدره. عدت إلى المنزل، وما إن اجتزت بابه حتى أمسكت بالفرشاة، وأخذت في رسم لوحة كانت فكرتها تسيطر عليّ منذ قرابة شهر. كانت كل الوسائل واضحة، وكل العلاقات في متناولي. واختفت تلك العقبة الكؤود الغامضة التي كانت تعيقني. من ذا الذي يستطيع إنكار أن ما حدث لي، إنما يعود إلى صديقنا الرسام، وعلاقة الحب التي لم أنلها؟ إنني ما زلت أدندن لحنا وأنا أكتب إليك هذه الكلمات.

«إنني أتساءل، وقد أعدت، فيما بعد، قراءة رسالتك: لماذا تتناول موت بورسواردن على هذا النحو؟ إن هذا الأمر يحيرني. فالتناول، على هذا النحو، يتسم بالسوقية. أعني يقينا، أنه ليس من اختصاصي أو اختصاصك أن نصدر حكما صريحا في هذه المسألة. إن كل ما نستطيع قوله، هو أن فنه قد تجاوز الحواجز. أما ما بقي، فأعتقد أنها

أمور تخصه شخصيا . يجب ألا تحترم فقط خصوصيته فى تلك الأمور، بل علينا أن نعاونه فى الدفاع عنها ضد عدم إدراك هذه الحقيقة . هنالك، رغم كل شيء، أسراره الخاصة به، والتى لم نر منها بالفعل غير القناع البشرى الذى يرتديه الفنان (كما فى شخصية بار العجوز، الشهوانى البائس . فى الجزء الثانى من كتابه، والذى تحول فى النهاية إلى الفنان الذى رسم لوحة العشاء الأخير والتى أثارت كثيراً من الجدل . هل تتذكر؟) .

«لقد حمل بورسواردن، بنفس الأسلوب، وإلى حد كبير، سر حياته اليومى، إلى القبر معه . وتركنا مع كتبه فقط، لتثير دهشتنا . وتلك العبارة المحفورة على قبره لتثير حيرتنا : (هنا يرقد دخيل من الشرق) .

«كلا، كلا، إن موت الفنان أمر لا يمكن الخوض فيه . فقط، على المرء أن يبتسم وأن ينحنى .

«أما عن سكوبى، فأنت محق فيما قلت . فلقد انزعجت أشد الانزعاج عندما أخبرنى بلتازار أنه سقط على سلالم قسم الشرطة المركزى، فقتل . نعم، لقد أخذت ببغاءه، الذى ظل بالمناسبة مسكونا بروح الرجل العجوز، فيما بعد، ردحا طويلا من الزمن . كان يقلد، فى وفاء حقيقى، الطريقة التى يستيقظ بها فى الصباح، ويغنى ذلك المقطع من أغنية : «أصمت أيها القرد الصغير»(*) . (هل تتذكر؟) . بل حاول أن يقلد صوت طقطقة عظامه المقبض، عندما يغادر فراشه، لكن الوهن أصاب ذاكرته بالتدريج، فغدت أشبه بأسطوانة قديمة، وقل أداؤه وأخذ يتخلل صوته ضعف فى ثقته بنفسه وهو يقلده . كان أشبه

(*) بالفرنسية فى الأصل .

بسكوبى نفسه، يموت فى بطء شديد وفى صمت: إن هذه هى الكيفية، على ما أعتقد التى يموت بها المرء بالنسبة لأصدقائه والعالم. يبلى كلحن رقصة عتيقة، أو حديث مشهود مع فيلسوف تحت شجرة كرز. إنه يوفى ما عليه فى صمت. وأخذ الطائر، فى النهاية، يتدهور حتى مات ورأسه تحت جناحه. حزنت عليه غاية الحزن، وإن كنت سعدت أيضًا غاية السعادة.

«إن المشكلة، بالنسبة لنا نحن الأحياء، لها طراز مختلف تمام الاختلاف، إنها كيف نمتلك ناصية الزمن لننمى نمطا خاصا بالقلب - شىء ما من هذا القبيل. إننى أحاول، فقط، التعبير عما يجول بخاطرى، ليس إرغاما للزمن، كما يفعل الضعفاء، مما يقود إلى الإضرار بالذات وتثبيط العزائم، ولكن بامتلاك ناصية إيقاعاته ووضعها فى خدمة ما يعود علينا بالنفع. لقد اعتاد بورسواردن أن يقول: «أيها الرب، أعطنا نحن الفنانين العزم واللباقة». وأنا أصدق من أعماقى على هذا القول، وأقول آمين.

«لا بد أنك تعتقد الآن، أننى قد غدوت عجوزًا سليطة، صلبة الرأى، عنيدة. ربما أكون. ولكن ما أهمية ذلك، ما دام كون المرء هكذا يزوده بالقدرة على استنباط فكرة تستخرج من ذاته؟

«بقى من الوقت قليل. إننى أحس بنسمة خريفية هذه الأيام. والأخبار التى ترد من أوروبا تزداد سوءًا كل يوم - وكأنها فى طريقها للاستقرار إلى مستقبل لا يمكن التكهن به. وأحس، جنبا إلى جنب، مع هذا الشعور، بأن الخيوط تشتد حول معاصمنا. تشدنا فى بطء لنعود، من جديد، إلى قلب المسرح. وإلى أين يمكن أن يكون هذا الجذب إلا إلى الإسكندرية؟ لكننا ربما نجدها مدينة جديدة، مختلفة عن

تلك التى فرضت نفسها، طويلا، على أحلامنا. إننى أود الاعتقاد بأن الإسكندرية القديمة، وكل ما رمزت إليه، إن لم يكن قد مات، فقد صار، على الأقل، بلا معنى بالنسبة للشخص الذى أحس أنى قد غدوته. ربما تغيرت أنت أيضًا بالمثل. وربما يكون كتابك قد تغير أيضًا. أو ربما تكون أنت، أكثر من أى واحد منا، فى حاجة إلى رؤية المدينة مرة أخرى، فى حاجة إلى رؤيتنا مرة أخرى. إننا، من جانبنا، فى حاجة شديدة إلى رؤيتك أنت مرة أخرى، وإنعاش الصداقة التى نأمل أن تدوم عند الطرف الآخر من الكتاب المؤلف - إن كان حقا فى وسع الكاتب أن يكون صديقا «لشخصياته». إننى أقول «نحن»، وأنا أكتب بالأسلوب الإمبراطورى وكأنى ملكة، لكنك ستخمن أننى أعنى، فى بساطة، كليا القديمة وكليا الجديدة - فكلتاهما فى حاجة إليك فى المستقبل الذى..».

ثم بضعة سطور أخرى وكلمات تفيض ودًا.

متتــاليـــات

كتب كيتس هذه الملاحظات بالاختزال مسجلا بعض مقولات بورسواردن المتناثرة.

(أ)

«أعرف أن نثرى له مذاق حلوى البرقوق المطبوخة، لكن ذلك هو حال كل النثر الذى ينتمى إلى التواصل الشعرى، والذى يقصد به تجسيد الشخصية. كما أن الأحداث لا تتابع، لكنها تتجمع هنا وهناك، كمقادير من الأشياء، كالحياة الحقيقية».

(ب)

«ليس لنسيم المنابع التى لنا نحن الأنجلو ساكسون، فكل نسائنا ممرضات فى أعماقهن. إن على المرء، حتى يضمن ولاء المرأة الأنجلو ساكسونية، طوال العمر، أن يقطع رجليه إلى ما فوق خصره. لقد فكرت، على الدوام، فى ليدى شاترلى وضعفها كرمز، عند الحديث عن وجهة النظر هذه. فما كان يمكن لأى شىء أن يُكسب كليفورد ولاء زوجته له أكثر من مرضه. ربما لا يهتم الأنجلو ساكسون بالحب قدر اهتمام الأوروبيين الآخرين به، إلا أنهم يصابون بنفس الأمراض التى يمرضون بها. لقد كان لافورج يخاطب، على وجه التخصيص حبيبته الإنجليزية كيت عندما صرخ، «إنها ممرضة حبا فى الفن(*). وذلك عندما اكتشف الممرضة التى فى أعماقها».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(جـ)

إن الكلاسيكى فى الفن، هو ما يجارى، عن عمد، كونية العصر».

(د)

«يجب مقاومة ما تفرضه الدولة، من عقيدة دينية أو ميتافيزيقيا، بحد السيف إن لزم الأمر. يجب أن نقاتل من أجل التنوع، إن كان علينا أن نقاتل. إن التماثل النمطى كئيب كآبة بيضة منحوتة».

(هـ)

وعن داكابو، «يلعب المقامرون والعشاق، حقا، كى يخسروا».

(و)

«الفن كالحياة، سر مفتوح».

(ز)

«العلم هو شعر العقل، والشعر هو علم علل القلب».

(ح)

«الحقيقة مستقلة عن الواقع، لا تبالى بدحضها. لقد غدت، بالفعل، مجردة ساعة النطق بها».

(ط)

«إننى أحب الطبعة الفرنسية، حيث تترك صفحات الكتاب دون قصها. إننى لا أحب قارئًا أكسل من أن يستخدم السكين معى».

(ى)

جاء فى ديوان شعر، «إنه يمكن للمرء أن يتناوله من حين لحين، كلما احتاجه. ثم يسمح له بالذوبان فى عقله».

(ك)

«يجب أن ندافع، دوما، عن أفلاطون فى مواجهة أرسطو، والعكس صحيح. إنهما إن افتقدا التماس معًا، هلكنا لا محالة. إن ثنائية النفس قد أوجدت كليهما».

(ل)

«لقد أضفنا نحن المحدثين، إلى صورة عالم القرون الوسطى، والتى تتكون من العالم والجسد والشيطان (والذى يستحق كل منها كتابا)، بعدا رابعا، هو الزمن».

(م)

«جهاز جديد للنقد: الرواية البفتيك، أو الأراجوز أو الصرصار»(*).

(ن)

«إن أطلال أوروبا الحقيقية، هى رجالها العظام».

(س)

«لقد آمنت، دوما، بأن أترك قارئى يغرق أو يطفو كالرغوة».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(ع)

عندما قرأ تقريظا طويلا عن «الإله المرح»، قال: «يا إلهى الطيب. لقد بدأوا، أخيرًا، يأخذوننى مأخذ الجد. إن هذا يضع على عاتقى عبئا رهيبا. يجب أن أضاعف ضحكى».

(ف)

«لماذا أقتبس على الدوام عبارات مختارة من دى ساد؟ لأنه يثبت العقلانية الخالصة، لأزمان الإدراك الخلابة التى عشناها عبر أوروبا منذ ديكارت. إنه الزهرة الأخيرة للرشاد، والنموذج الحقيقى للسلوك الأوروبى. إننى آمل أن أعيش حتى أراه مترجما للصينية. إن كتبه سوف تقوض البيت وتقرأ كدعاية خالصة. إن روحه قد قوضت البيت، بالفعل، من حولنا».

(ص)

«أوروبا: محاولة منطقية إيجابية كى يثبت لذاته أنه موجود عبر الاستدلال المنطقى».

(ق)

«أهدافى فى رواياتى أن أستنطق القيم الإنسانية عبر تقديم أمين للعواطف الإنسانية. إنها نهاية مرغوبة، إلا أنها ربما تكون هدفا بلا أمل».

(ر)

«إن نقادى الأكثر قسوة يزعمون أننى أصنع أغطية المصابيح من الجلد البشرى. وهذا أمر يثير حيرتى. ربما ما يزال فى أعماق النفس الأنجلو ساكسونية صوت صغير يهمس إلى الأبد، «هل هذا عمل متقن تمام الإتقان؟». ويبدو أن كتبى لا تنجح على الإطلاق فى الامتحان».

نقاط عمل

تساءلت كليا: «كم عدد العشاق الذين استطاعوا، منذ بيجماليون، أن يصيغوا وجه معشوقتهم من اللحم، كما فعل أماريل؟». إن العدد الهائل من الأنوف التى نسخت له رسومها، بحب عميق، كى يختار منها، منذ نفرتيتى حتى كليوباترا، قد اطلع عليها فى غرفة معتمة.

* * *

لقد احتفظ ناروز دوما، فى مؤخرة ضميره، بذكرى حجرة يضيئها نور القمر، وقد جلس والده على الكرسى ذى العجلات أمام المرآة، يكرر مرة بعد أخرى جملة واحدة، بينما صوب مسدسه إلى المرآة.

* * *

سيطر على ماونت أوليف وهم خطر، أنه غداً الآن حرا، يعتقد ما يشاء ويفعل ما يشاء - وتلك الخطيئة بذاتها هى التى تقرر مصير الدبلوماسى.

* * *

قال نسيم فى أسى: «كل الدوافع قد اختلطت. لقد اختفت، لحظة أن تزوجتها، تلك المرأة اليهودية، كل التحفظات، وكفت عنى كل الشكوك. إننى لا أدعى أن ذلك كان هو السبب الوحيد، فالحب نبت يتسم بروعة الرفاهية، لكنه حقيقة غير قابل للتحديد. إنه، من ناحية، يذبل كما فى الروايات الأسطورية كما أنه عار طموح من الناحية الأخرى.

* * *

إن هذا قد فسر لى الآن أمراً حيرنى من قبل. لقد نقلت مكتبة دا كابو الضخمة، بعد موته، كتابا إثر كتاب إلى أزمير. كان بلتازار هو الذى قام بحزمها وشحنها.



حاشية فى المتن

(ϕ) ص ١٦٢

من أيوجين مارايس «روح النملة البيضاء» .



لو رنس داريل
واحـــد من أهــم الروائيين الإنجــليز
وأكثرهم مبيعًا فى القرن العشرين. وكتابه «رباعية
الإسكندرية» هو بلا شك أحب أعماله للقراء. وتدور الأحداث فى
الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية. فى هذا العالم البراق والفاسد
الذى قارب شفا الانهيار يحاول «ل. ج. دارلى» أن يقنع نفسه بنهاية علاقته مع
الجميلة المثيرة «جوستين حوسنانى» ليبدأ رحلة مراوغة للخداع الجنسى
والسـيـاسـى أطـلـق عـليـها الـمؤلف «بحـث فى الحـب المعـاصـر».

"لا يـوجـد شـك فــى عظـــم إنجـــاز داريــل."
چـــورج شـــتـــايـــنـــر

"داريل متمكن فى خلق الإثارة. لقدبهـرنى من الـبـدايـة."
وليـــبـــور ســـميـــث

"إنجـــاز مـعـجـــز ومــبـهـــر."
مـلـحـق جـريدة الـتـايـمـز الأدبـى

"واحـــدة من أعـــظـــم أعـــمال الأدب الإنجـليـزى. تلمس مواضيع
إنـســانـيـة خـالـــدة لا تـــتــغـيـــر."
جـــريـــدة الـتـــايــمـــز

"الكتابة دائما رائعة، ليس فقط فى الفقرات
الشـــاعرية الرائعة، بل أيضـا فى التعليقات الذكيـــة
الســـاخرة." فيـــليب تويـــنـــبى،
جريدة الأوبزرفر

التصميم عمرو الكفراوى

دار الشروق
www.shorouk.com
6 221102 023115